# حديث عيسى بن هشام

## أو

# فترة من الزمن

لمنشئه

**محمد المويلحي**

كان النبي عليه الصلاة والسلام
يمزح ولا يقول إلا حقاً

( الطبعة الثالثة على نفقة )



الكتبي بمصر





( طبع بمطبعة السعادة سنة ١٣٤١ هجريه و ١٩٢٣ ميلاديه )

# حديث عيسى بن هشام

## أو

## فترة من الزمن

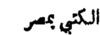
لمنشئه

محمد المويلحي

---

كان النبي عليه الصلاة والسلام
يمزح ولا يقول إلا حقاً

(الطبعة الثالثة على نفقة


الكتبي بمصر)



( طبع بمطبعة السعادة سنة ١٣٤١ هجريه و ١٩٢٣ ميلاديه )

# اهداء الكتاب

ألِفَ المؤلفون والكتّاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإهدائها الى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيفُ العاجز يُهدي هذا الكتاب إلى كل مَنْ يقرؤه من أديب يجد فيه طرَفاً من الأدب وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة وعالِمٍ يبصر فيه شذرةً من العلم ولغويٍّ يصادف فيه أثراً من الفصاحة وشاعرٍ يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال

وأهديه إلى أرواح المرحومِينَ الأديب الوالد والحكيم جمال الدين والعالم محمد عبده واللغويّ الشنقيطيّ والشاعر البارودىّ اولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدّبت بأدبهم وأخذت عنهم

وأهدى هذه الرسالة التى اختصني بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل الفضل والأدب لِما تضمنتــه من الحثّ على طلب العلم وأدب النفس ولحسن أسلوبها فى كتب المودّات . وهي لا تزال عندي إماماً يهديني ونوراً أستضيء به فأردت أن أشاركهم فى هــذه

الذخيرة التي يحق الضن بها والحرص عليها ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة . وإذا قدرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين فى اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتاباتهم ويبذلون فى سبيل ذلك من الأموال والمساعى مالا يقدر فإنى أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله تعالى



حبيبي الفاضل

تقلبك في شؤون العمل يشرح الصدور الحرجى من حسرتها
وخوضك في فنون الأدب يريح قلوبا علقت بك إما لما
وليس بعده الكرامات التي الذكي . ولكنه ومنه التجديد
ولقد تمثلت الطبقة الوسطى في معركة الحرب وبعد ترفض من حقيقتها
فاشتد أزرها وأبرم بها وثبت من الكبوة والحذق أسرها
حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولتكن كالذين غرتهم أنفسهم بالطمع
ابرأتها ووسائلهم الظنون الى سهوة رتقائها وحسبوا أنهم يحسنون
صنعا ولتصلون أمرا ولكن هو الحق ذريع نفسك ولا تنفق في سبيل
الى الفضائل عند عجلك لا نهاية للفضيلة ولا حد للعلا ولا موقف للقران
ودامت بعزيمتك همة وإباء فخرك والسلام صادق ودي محمد الحسيني

حبيبي الفاضل

تقلُّبك فى شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسراتها وخوضُك فى فنون الآداب يريح قلوبا علقت بك آمالها وليس بعد الإرهاص (١) إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدّى ولقد تمثلت اللطيفة الموسويّة فى مصر كرة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى فاشدد أزرها وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها حتى تكون كلمة الحق هى العليا ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها وحسبوا أنهم يُحسنون صنعا ويصلحون أمرا وكن عونا للحق ولو على نفسك ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عُجبك لا نهاية للفضيلة ولا حدّ للكمال ولا موقف للعرفان وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام جمال الدين الحسيني الأفغاني

---

(١) الارهاص الخارق الذي يظهر من النبي قبل البعثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأميّ القرشيّ الأبطحيّ التهاميّ المكيّ المدنيّ وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بن هشام — وإن كان في نفسه موضوعاً على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرّجة في ثوب خيال لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعيّن اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها . وهذه الطبعة الثالثة بعد نفاد الطبعة الثانية تعهدناها أيضاً بما تقتضيه معاودة النظر من إصلاح مواضع النقص والإهمال . ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال . وقد رأينا أن نقسم الكتاب في هذه المرة فصولاً ونجعل لكل فصل عنواناً خاصاً به بفهرس جامع تفسير الألفاظ اللغوية في الصحيفة نفسها لا في آخر الكتاب كما كانت عليه الحال في الطبعة الثانية . ومن الله التوفيق لكل حال والتسديد في كل مقال وفعال .

﴿ العبرة ﴾

حدثنا عيسى بن هشام — قال رأيت فى المنام . كأنى فى صحراء «الامام» . أمشى بين القبور والرجام[1] . فى ليلة زهراء قمراء . يستر بياضها نجوم الخضراء[2] . فيكاد فى سنا نورها ينظم الدرّ ثاقبه . ويرقب الذرّ راقبه . وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور وفوقها تيك الدور . بغرور الانسان وكبره . وشموخه بمجده وفخره . وإغراقه فى هواه وإسرافه فى هواه . واستعظامه لنفسه . ونسيانه لرمسه . وقد شمخ المغرور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك . استكباراً لما جمع واستعلاء بما ملك . فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقاً فى لحده . بعد أن وارى تحت صفائحه[3] صحائف عزه ومجده . ومازلت أسير وأتفكر . وأجول وأتدبر . حتى تذكرتُ فى خطاى فوق رمال الصحراء . قولَ الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفّف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الاجساد
وقبيحٌ بنا وإن قَدُم العهـ ... ـدُ هوانُ الآباء والأجدادِ
سر إن اسطعت فى الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العبادِ

فقرعتُ سن الندم . وخففتُ وطء القدم . ولانّ فى دهماء أولئك

---

(١) الرجام جمع رجم وهو القبر (٢) الخضراء السماء (٣) الصفائح حجارة القبور

الأموات. وعُمارِ تلك الرمم والرفات. لمَباسمَ طالما حوّل العاشقُ قِبلتهُ لقُبلتها. وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها. قد امتزجت بغبار الغبراء. واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء [1]

وتذكرتُ أن تلك الخدود التي كان يَغارُ منها الورد فيبكي بدموع الندى. ويشتعل الفؤاد منها بنار الجوَى. ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران. أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان [2]. ويترقرق فيها ماء الحياء وماء الشباب. قد طوى الدهرُ حسنها طيّ الكتاب. وصار بحكم القضاء. أديمًا لوجه الفضاء

وأن تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوكَ الصِيد [3]. فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد. وسَحرت ببابلَ هاروتَ وماروتَ. وأوقفت موقف الاستكانة ربّ الجلال والجبروت: يلتمس — والتاجُ في يمينه. وعرَق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها قبولا. كسائل يمدّ لالتماس الإحسان كشكولا. قد أمست ترابًا تحت الرمس. [4] كأن لم تفتن بالأمس

وأنّ ذلك الفاحم الأثيث من الشعَر [5]. الخاطفَ ببريقه

---

(١) الحصباء صغار الحجارة واحدتها حصبة (٢) ابن ماء السماء هو ابن المنذر وكان اسود وشقائق النعمان زهر احمر (٣) الصيد جمع أصيد وهو الملك المتكبر الزاهي (٤) الرمس القبر (٥) شعرًا أثيث كثير عظيم

سوادَ القلبِ والبصر . قد حصدتْهُ من منابتهِ يدُ الزمن. فنسجَ الأجلُ منهُ ثوب الكفن

وأنّ تلك النهود التي كأنها حِقاق من لُجينْ[1] تزينت بحب من المَرجان . أو كُرات من جليد بثَقَ فيها زهرٌ من الرمان . قد أصبحت كالمخلاة على الصدر . تحمل الزاد لدود القبر

كم صائنٍ عن قبلةٍ خدّهُ  سُلّطتِ الأرضُ على خدّهْ
وحامل ثِقْلَ الثرى جيدُهُ  وكان يشكو الضعفَ من عِقدِهِ

وأنّ تلك الرُّفات والعظام . من بقايا الملوك العظام . الذين كانوا يستصغرون الأرض دارا . ويحاولون عند النجوم جوارا . — وتلك الضلوعَ التي انحنتْ على البطش والحلم . والشفاهَ التي طالما لفظت أمر الحرب والسلم . — وتلك الأناملَ التي كانت تَبرِي القلمَ للكتاب . وتبرى بالسيوف الرقاب . — وتلك الوجوه والرؤوس . التي استعبدت الأبدانَ والنفوس . ووُصفَت تارة بالبدور وتارةً بالشموس . — قد تساوَى الرئيس فيها بالمرؤوس . فلا تفريق اليوم ولا تمييز . بين الذليل منها والعزيز :

---

(١) اللجين الفضة

هو الموتُ مُثرٍ عنده مثلُ مُقترٍ
وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرَ ناكبِ
ودرعُ الفتى فى حكمهِ درعُ غادةٍ
وأبياتُ كسرى من بيوت المناكبِ
فرُجّلَ فى غبراء والخطبُ فارسٌ
وما زال فى الأهلين أشرفَ راكبِ
وما النعشُ إلا كالسفينة راميا بِغَرْقاهُ فى بحر الردَى المتراكبِ

وبينا أنا فى هذه المواعظ والعبر. وتلك الخواطر والفكر. أتأمل فى عجائب الحدثان. وأعجب من تقلب الأزمان. مستغرقا فى بدائع المقدور. مستهديا للبحث فى أسرار البعث والنشور. اذا برجّة عنيفة من خلفى. كادت تقضى بحتفى. فالتفت التفاتة الخائف المذعور. فرأيت قبرا انشقّ من بين تلك القبور. وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة. عظيم الهامة. عليه بهاء المهابة والجلالة. ورُواء[1] الشرف والنبالة. فصعقت من هول الوَهَل[2] والوجل. صعقة موسى يوم دُكّ الجبل. ولما أفقتُ من غشيتى. وانتبهت من دهشتى. أخذت أسرع فى مشيتى. فسمعته ينادينى. وأبصرته يدانينى

(١) الرواء حسن المنظر (٢) الوهل الفزع

فوقفت امتثالاً لأمره . واتقاءً لشره . ثم دار الحديث بيننا وجرى
على شئ ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية اخرى :
(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل وما عملك وما الذى جاء بك .
فقلت فى نفسى حقاً ان الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين
فهو يسأل على أسلوبهما فاللهمّ أنقذنى من الضيق وأوسع لى فى
الطريق . لأخلص من مناقشة الحساب . وأكتفى شر هذا
العذاب . ثم التفتُّ إليه فأجبته :
(عيسى بن هشام) — اسمى عيسى بن هشام . وعملى صناعة الاقلام .
وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر . فهى عندى أوعظ من خطب المنابر
(الدفين) — وأين دَواتك يامعلم عيسى ودفترك
(عيسى بن هشام) — أنا لست من كتاب الحساب والديوان .
ولكنى من كتاب الانشاء والبيان
(الدفين) - لا بأس بك فاذهبْ أيها الكاتب المنشىء فاطلبْ
لى ثيابى وليأتونى بفرسى «دهمان»
(عيسى بن هشام) — وأين ياسيدى بيتكم فانى لا أعرفه
(الدفين) مشمئزاً — قل لى بالله من أى الاقطار أنت فانه
يظهر لى أنك لست من أهل مصر إذ ليس فى القطر كله من أحد

يجهل بيت أحمد باشا المنيكلى ناظر الجهادية المصرية

(عيسى بن هشام) — اعلم أيها الباشا أننى رجل من صميم أهل مصر ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت فى مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فاذا تفضلتَ وأوضحت لى شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت اليه وأتيتك بما تطلبه

(الباشا) مغضبًا — ما أراك أيها الكاتب إلا أنّ بعقلك دَخَلاً فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها وهل هي « إفادات أحكام » او « عساكر نظام » والأَولى ان تناولنى رداءك استتر به وتصاحبنى حتى اصل الى بيتى

(قال عيسى بن هشام) — فنزلت له عن ردائى — وقد كان المعهود ان سلب المارّة لا يكون الا من قطاع الطريق فاذا هو ايضا من سكان القبور — ثم ارتداه مستنكفا متردداً وهو يقول :

(الباشا) — للضرورة احكام وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم ابراهيم باشا على طريقة التنكر و « التبديل » فى الليالى التى كان يقضيها فى البلد ليستطلع بنفسه احوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول

(عيسى بن هشام) — ماذا تريد

(الباشا) — أنسيتَ اننا في الثلث الاخير من الليل وليس من يعرفني بهذا الرداء على ابواب مصر ولم يكن معي كلمة « سرّ الليل » فكيف تُفتح لنا الابواب .

(عيسى بن هشام) - كما أنك ياسيدى لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها في حياتك فأنا لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به

(الباشا) مستهزئاً ضاحكا - ألم أقل لك إنك غريب الديار ألم تعلم أن « سرّ الليل » كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى «الضابطة» وإلى جميع « القره قولات » والأبواب فلا يجيزون لأحد مشى الليل الا اذا كان حافظا لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له وهي تُعطَى لمن يطلبها من الحكومة سراً لقضاء أشغاله بالليل وتتغيّر في كل ليلة . فليلة تكون كلمة « عدس » وليلة تكون « خضار » وليلة تكون « حمام » وليلة تكون «فراخ» وهلم جرّا

(عيسى بن هشام) - يظهر لى من كلامك هذا انك لستَ أنتَ من أبناء مصر فما علمنا ان هذه الالفاظ تطلق فيها على غير الاطعمة ولم نسمع انها تدل على الاجازة للناس بالسير في ليلهم .

على ان الفجر قد دنا ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا لغيرها

(الباشا) ـ الامر فى ذلك موكول اليك

قال عيسى بن هشام ـ فسرنا فى طريقنا واخذ الباشا يزيدنى تعريفا بنفسه ويقص علىّ من أنباء الحروب واخبار الوقائع التى شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ويذكر لى ماشاء من مآثر محمد على ونجابة ابراهيم. ومازلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار الى ساحة القلعة فوقف وقفة المستكين الخاشع يقرأ سورة الفاتحة الى ضريح محمد على ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيبه:

«إيه لك يا مصدر النعم ومصرع الجبابرة من عتاة المماليك ويا مبعث الملك وحصن المملكة ومنبع العز ومهبط القوة ومجتمع المجد ومَوئل المستغيث وحِمَى المحتمي وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ومثوى البَطل الشهم ومقر الملك الهمام. أيها الحصن، كم فككتَ بالكرم عانيا. وقيدتَ بالاحسان عافيا. وكم أرغمتَ أنوفا. وسللت سيوفا وجمعتَ بين البأس والندى. وداورتَ بين الحياة والردى»

قال عيسى بن هشام ـ ثم التفت الباشا الىّ وقال: أسرع بنا نحو البيت لألبس ثيابي وأتقلد حسامى وأركب جوادى ثم اعود الى القلعة فألثم أذيال ولىّ النعم الداورىّ الأعظم

﴿الشرطة او البوليس﴾

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا فى الطريق و بينا نحن نسير اذ تعرّض لنا مُكَارٍ يسوق حماره وقد راضهُ الخبيث على التعرض وسدّ الطريق على المارة فكلما سرنا وجدنا الحمار فى وجهتنا والمكارى ينبح بصوت قد بُحّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :

(المكارى للباشا) — اركب يا أفندي فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك من الصباح

(الباشا للمكارى) — كيف تدعونى أيها الشقى الى ركوب الحمار وما رغبتُ فيه قط وما دعوتك فى طريقي وكيف لمثلى ان يركب الحمار الناهق . مكانَ الجواد السابق

(المكارى) — وكيف تُنكِرُ اشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك فى طريق « الامام » وقد دُعيتُ مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ولم ألتفت اليهم لارتباطى معك بتلك الاشارة فاركب معى او أعطنى اجرتى

(الباشا) وهو يدفع المكارى بيده — اذهب عنا أيها السفيه فلو كان سلاحى معى لقتلتك

(المكارى) متسافهاً فى القول — كيف تجسر على هذا الكلا

فاما أن تعطيني اجرتي وإما ان تذهب معي الى « القسم » وسترى هناك ما يعاقبونك به على تهديدك اياى بالقتل

( الباشا لعيسى بن هشام ) — انى لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فهلمّ فاضربه بالنيابة عنى حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه

(عيسى بن هشام) ـ كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام

(الباشا) ـ مالى أراك قد شقّ الخوفُ قلبك وقطع الهلعُ أنفاسك أيعتريك الخوف وانت معي . ان هذا لعجيبٌ منك

( المكارى ) مستهيناً ـ العفو ! العفو ! من انت ومن غيرك ونحن فى زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين المكارى وبين الامير

( الباشا لعيسى بن هشام ) ـ ويحك هلمّ فاضربهُ أودعني أقتله

(عيسى بن هشام) — أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً ما دمتَ معي . واعلمْ أنه لا تصدر منا « مخالفة » أو « جنحة » أو « جناية » الا والعقاب من ورائها فلا تعجبْ من طول صبرى واحتمالى وأقول لك ماقاله الخضر لموسى عليه السلام « إنك لن تستطيعَ معى صبراً وكيف تصبرُ على مالم تحطْ به خُبراً » والطريقة

للتخلص من سفاهة هذا السفيه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا الى سوانا وأنا أسأل الله ان يبلغنا بيتك بالسلامة

(الباشا) — لا تعطِ هذا الكلب النابح درهماً واحداً وقد أمرتك أن تضربه فان لم تفعل فانا أتنزل الى ضربه وتأديبه والفلاح لا يصلح جِلْدَهُ الا بجلده

قال عيسى بن هشام — ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسعه ضرباً واخذ المكارى يستغيث وينادى يا « بوليس » يا « بوليس » وأنا اجتهد فى إنقاذه من مخالبه وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم واقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عُقباه فاتق الله ايها الأمير فى عباد الله . فما أتَمْمْت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتغلبت عليه الحدَّة فتغير وجهه وانقلبت حماليقه وتقلصت شفته واتسع منخره وضاقت جُبهته فخفتُ ان يحمله جنون الغضب على البطش بى مع المكارى فتداركت امرى وقلت له : مثلك ادام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل فأنت أرفع قدراً من أن تَمسّ بيدك الشريفة مثل هذه الجيفة فسكنت بذلك من حدته وعَمدتُ الى المكارى فوضعتُ فى يده دُريهمات على غير علم من الباشا وطلبتُ منه ان ينصرف عنا فما ازداد الاثيم بذلك الا استغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس

(الباشا لعيسى بن هشام) ــ ألم أقل لك ان الفلاح لا يصلحه الا الضرب ألم تعلم ان غاية ما ينتهي اليه امره فى رفع الالم عنه ان يعلو صياحه استغاثة بالمشايخ والاولياء . ولكن قل لى بالله هل « بوليس » هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىّ جديد

(عيسى بن هشام) ــ نعم ان هذا البوليس هو ولىّ الامر احتلت فيه القوة الحاكمة

(الباشا) ــ لست أفقه هذا المعنى فأوضح لى حقيقة هذا البوليس

(عيسى بن هشام) ــ هو «القواس» الذى تعرفه

(الباشا) ــ وأين هذا «القوّاس» الذى لا يسمع النداء فانى ارغب فى حضوره ليتلقى امرى فى هذا الشقى

(المكارى) ــ يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) ــ هلم الى مساعدته فى نداء القوّاس

قال عيسى بن هشام ــ فقلت فى نفسي كيف انادي البوليس وانا احمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث . ثم التفت الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياح أو نداء فانه مشتغل ببائع الفاكهــة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليــه

وتبعه مِن تجمع حوالنا من النظّارة فوجدوه واقفاً وفى يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى صباحه من باعة الاسواق فى محافظته على « النظام » وهو لاهٍ بصاحب الدكان يأمره ان يضع فى داخلها ما عرضه فى خارجها من عيدان القصب وفى يده عود منها يهدده به ويهزه فى وجهه هزّة الرمح ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف امرأة ويناغيه حتى اذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل فى يدٍ وعودُ القصب فى الاخرى

(البوليس للجمع) ـ ماهذا الصياح فى الصباح وما هذا النداء وما هذا الغناء كأن كل واحد من الاهالى يجب ان يكون له واحد من البوليس خاصّ بخدمته

(المكارى) ـ أغِثْنى « ياسعادة الچاويش » فان هذا الرجل ضربنى ولم يعطني أجرتى وأنت تعرفنى في هذا « الموقف » وتعرف أني لست ممن يتشاجر أو يتخاصم

(الباشا) ـ خُذ أيها القوّاس هذا السفيه وضَعْهُ فى السجن حتى يأتيك أمرى فيه

(البوليس للمكارى) ـ من أين ركب معك هذا الرجل يا « مُرسى »

(المكارى) ـ رَكِبَ معى من جهة « الامام »

(الباشا للبوليس) ـ ماهذا الابطاء فى تنفيذ أمرى . أسرع به الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً ـ أظنك ايها الرجل من « مجاذيب الحضرة » فى « الإمام » هلمّ معى الى القسم فان هيئتك تنبئ عن إفلاسك وعجزك عن دفع الاجرة

قال عيسى بن هشام ـ وجذب الشرطىُّ صاحبي من ذراعه فكاد يُغشى عليه من الدهشة فلم يدرِ ما يصنع . وأودع البوليس ما كان فى يديْه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى أودع المكارى حماره عنده وسار صاحبي مسحوباً بذراع الشرطىّ والمكارى خلفهما واجتمع على اثرهم الى « القسم » فلما وصلوا اليه وصعدوا السلّم بدأ المكارى يصرُخ ويصيح فقابله احد عساكر « المراسلة » فضربه ليُسكِتَه لان « حضرة المعاون » غرق فى نومه فدخلنا جميعا فى حجرة « الصول » لضبط الواقعة فوجدناه يأكل والقلمُ فى أُذنه وقد نزع « طربوشه » وخلع نعليه وحل أزرار ثيابه وبجانبه اثنان من الفلاحين اظنهما من اقربائه يشاهدان ما يتمتع به من لذة الامر والنهى وسعة سلطانه على الكبير والصغير فى عاصمة القطر وقاعدة الملك وما فى قدرته من حبس اى شخص كائناً من كان وشهادته عليه بما يجرى فى هواه . فطرَدَنا جميعا

من الحجرة حتى ينتهي من طعامه فخرجنا ننتظر واراد الباشا ان يستند على الجدار من شدة ما ألم به من الحزن فخانته يده فسقط فوق جندى كان يكنس الارض هناك فأخذ الجندى في السب والشتم ودخل الى حجرة « الصول » هاجا فقال له ان المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدى عليّ « في اثناء تأدية وظيفتي » فضربني بكل جسمه . فأمر « الصول » باحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه ان يحرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة وأملى عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم افهم منه حرفاً . وبعد ان شهد « البوليس » الذي جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد « الصول » نفسه في محضر الجنحة بانه شاهد المتهم يتعدى على احد عساكر القسم في أثناء تأدية وظيفته ختم المحضرين وامر بالمتهم ان يؤخذ الى « خشبة القياس » وتحرير « ورقة التشبيه » فجاء العسكرى صاحب الدعوى وأخذ بيمين صاحبي وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاقه أنواعاً من الأذى فى مقاسه . كل هذا والباشا كالمغشي عليه من الدهشة والذهول حتي اذا أفاق من غشيته التفت الى يقول :

(الباشا) ـ انا لا اتصوّر فى هذه الحالة التى انا عليها الا أن يكون اليوم يوم حشر أو أن اكون حالماً فى المنام أو أن يكون

الداورى الاعظم غضب علىّ غضباً شديداً فأمر باهانتى على هذه الصورة الشنيعة

(عيسى بن هشام) ـ لا بدّ لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام

قال عيسى بن هشام ـ ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا هل له من ضامن يضمنه فقدّمت نفسى لضمانته فلم يقبلوا منى الا بتصديق «شيخ الحارة» فحرت فى أمري ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال . فألقى بعض العساكر فى أذنى أن اخرج فانك تجد «شيخ الحارة» بالباب فأعطه عشرة قروش للتصديق على الضمانة فخرجت ولحقنى ذلك العسكرى فدلنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا في مناولة اجرة التصديق. ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر فى ضرب ارباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية ان يوقظوا المعاون من رقاده ثم مالبثوا ان رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب في أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ووجدت مَنْ كان من بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصا على راحة المعاون فى منامه قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز

السرير هزًّا عنيفاً فاستيقظ المعاون فزعاً وعلم ان « المفتش » قد شوهد داخلا من باب القسم فأسرع الى ثيابه فلبسها في لحظة وهرول الى استقباله فلما رآه وقف « وقفة النظام بعلامة التعظيم» ولكن كان من نكد طالعه انه ذهل عند لبس «الطربوش» فلم يجعل زرّه جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة وكان الشعر قد تجدد في عارضيه لانه لم يتمكن من حلقه في يومه فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى الحجرة مغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته في الزيّ « للاوامر المستديمة »

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرة واحدة وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب وما شاهده من حركات المعاون سألني عن شأن هذا الداخل الذى أورث ذلك الانقلاب فأعلمته بأنه « المفتش » جاء الى «القسم» للتفتيش والتنقيب في الاحوال والنظر في شكوى الشاكين وتطبيق اعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام . فقال اذاً فلندخل اليه لنعرض عليه ما اصابنا من الاهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب في تقريره فالتفت الينا وسألنا عن أمرنا ولما بدأنا بذكر القصة امر أحد العساكر باخراجنا من حضرته . ثم رأيناهُ قد وضع التقرير

فى جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت فى التفتيش والتنقيب لغير زى المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج فى أنحاء القسم الى أشد ما كان عليهِ قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين فى شدة ألمه بأنهُ لا بد أن يشتكي عمَّال القسم الى «النيابة» فدخل أحد العساكر الى المعاون ليخبره بما يقول الرجل فوضعت أذنى عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله : «ما هذه الخدمة وما هذا الذل ولعنة الله على ضرورة الحاجة فى المعاش . ومع ذلك فالحمد لله اذ كان هذا المفتش من الانكليز ولم يكن من «أولاد العرب» فهو خير منهم لأن عجزه فى فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر فى التفتيش على طربوشي ولحيتى ولو كان من «أولاد العرب» لاطَّلع على الاختلال الواقع في القضايا وما يرتكبه عُمَّال القسم من مخالفة «الاصول». ثم التفت الى العسكري وسمع منهُ ماينقلهُ اليهِ من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية الى «النيابة» فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم فذهبت الى المعاون وكلمتهُ فيهِ ليطلقهُ بعد ضمانتى لهُ فأبى ذلك وقال لى بوجه عبوس: الأَولى أن يبقي فى القسم الى الغد حتى يُكشف على « السوابق » ثم

يرسل من هنا الى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين

﴿ النيابة ﴾

قال عيسى بن هشام — ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت الى داري بتّ طول ليلتي في همٍّ وأرق وقضيت رقادي في اضطراب وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية وهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك مضيّ الزمن ولا يدري ما الحال ولا يعلم بتغير الامور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الاحكام وانقلاب الدول . وكنت هممت أن أكاشفه بشرح الاحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتي له لولا ما دهمنا به القضاء المحتوم وأوقعنا فيما ألمّ بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأي عندي ان يبقى الرجل جاهلاً بالامر حتى ينتهي من خطبه ويكون جهله بتغير الأحوال قائماً بعذره في التخلص من محاكمته . ثم عقدت العزيمة على أني لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه ما لم يرَ وأسمعه ما لم يسمع وأشرح له ما خفي عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضي ولأعلم أيّ العهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعاً وما الفضل الذي يكون لأحدهما على الآخر . فبكرت الى القسم في

اليوم الثاني وحملت معي مايليق بصاحبي من الثياب ليرتديها عند خروجهِ من حبسه فوجدت المسكري يستعد بهِ للذهاب الى قلم « السوابق » في دار المحافظة فلما بصر بي ناداني بقوله :

(الباشا) ـ ماهذه الخطوب والملمات قد كنت أظن ان ما وقع لي أمس كان اسخط وليّ نعمتنا الداوريّ الاعظم وغضبهِ على عبده بمكيدة كادها لي أعدائي أو فرية افتراها حسادي، فلذلك صبرت لحكم الضرورة وامتثلت على تلك الصورة حتي اتمكن من التشرف بالاعتاب والمثول بين يدي مالك الرقاب فأزيل الشبهة وأنفي الريبة وأبرأ لهُ مما رماني بهِ الساعي والواشي وأجلي له حقيقة عبوديتي واخلاصي فيضاعف عليّ رضاهُ لحسن ما قمت بهِ من الطاعة في احتمال هذا الهوان .

طال مني تحملٌ خلتُ أني قابضٌ من أذاته فوق جمر

ثم اني أعمد بعد ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب في هؤلاء الأدنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترؤا عليهِ في معاملتي واقترفوه من جهل منزلتي ولكني سمعت في الحبس ـ ويا سوء ما سمعت ـ وعلمت ـ ويا شرّ ما علمت ـ ان الدول دالت والأحوال حالت وانكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان وفي حال

من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى : « إنه هو والباشا فى المنزلة سواء » وتلك التى :

تُصمّ السميعَ وتُعمِى البصير ويُسأل مِن مثلها العافيه

فاللهمّ عفوك وصفحك هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت المراتب وانحلت الرئاسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشىّ على حبشىّ فضل ولا لأمير مناعلى مصرىّ أمر . ذلك مالا يكون ولا تحتمله الظنون . ثم اعلمْ أيها الرجل ان ذنب أولئك السفهاء فيما جنوهُ علىّ لا يُعدّ في جانب ذنبك عندى الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر لكتمانك علىّ الأمر حتى دخلت بى بلداً هذا حاله وذاك شأنه وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن

( عيسى بن هشام ) — انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قالهُ موسى للخضر عليهما السلام « لا تؤاخذنى بما نسيتُ ولا تُرهقنى من أمرى عسراً » ولقد نزل بى من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورثنى التبلد والتحير ومنعنى عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك على ما تغيرت به الحال من بعد عهدك وما كدت أنتبه الى تعريفك بها حتى دُهينا بذلك المكارى ودُهمنا بتلك الحادثة فلا ذنب لى فيما

أتيت والعذر مقبول لديك فاصبرْ على ما تلاقيه . واحتملْ ما أنت فيهِ . وتقبل القضاء . بوجه الرضاء . ولا تأسَ على ما فات . لتكفر عنك السيئات

( العسكرى للباشا ) ــ هلم الى السوابق

( الباشا ) ــ سبحان العزيز القادر أُرى قد زال عنى بؤسى وانقشع نحسى ورجع الىّ عزى فجاءونى بموكبى وخيلى

( عيسى بن هشام ) ــ ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد الصافنات . والعتاق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيّد فيهِ سحنة المتهم وسيماه . ويكشف فيهِ عما جنتهُ يداه

( العسكرى للباشا ) وهو يسحبهُ ــ لا تطلْ فى الكلام وامشِ معى ساكتاً ساكناً

( الباشا ) وهو يتمتم ــ ما الحيلة فى القضاء وما العمل فى المقدور وكيف الخلاص وأين النجاة ومن لى بالموت ثانية ليردنى الى راحة القبر

( عيسى بن هشام ) وهو يتضرع ــ أقسمت عليك بدفين القلعة ووقع سيوفك فى المعمعة الا ما قبلتَ نصيحتي وعملت بمشورتى فلا تعارض ولا تعاند فان الامتناعَ لا يفيد ولا يزيدنا فى مُلِمّتنا الا شدةً . والعقلُ يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وان نلبس

لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها

(الباشا) ممتثلاً — اللهمّ لا راى مع القضاء

قال عيسى بن هشام — وسرنا مع العسكرى فوصلنا الى « قلم السوابق وتحقيق الشخصية » فرأى الباشا هناك من الشدة ماتنخلع له القلوب وتشيب منه النواصى فجردوه من ثيابه وفحصوا بدنه عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسده وحدّقوا فى عينيه وصنعوا به ماصنعوا وهو يتنفس الصعداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانة لأن المعاون قاتله الله ردشيخ الحارة عن التصديق على ضمانتى ليجوز له الحبس فأرسلونا مع العسكرى الى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا أمامه قضايا جمة وأصحابها مزدحمون ينتظرون نوبتهم فانفردنا ناحية ننتظر نوبتنا أيضاً والتفت الىّ صاحبي يسأل ويستفهم :

(الباشا) — أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام

(عيسى بن هشام) — نحن أمام النيابة وهذا عضو النيابة وهؤلاء أرباب الدعاوى

(الباشا) — وما النيابة

(عيسى بن هشام) — النيابة فى هذا النظام الجديد هي سُلطة

قضائية مكلفة باقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية والغرض من إنشائها ان لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البرىء

(الباشا) ـ وما الهيئة الاجتماعية التى تنوب عنها

(عيسى بن هشام) ـ هي مجموع الامة

(الباشا) ـ ومن هذا الأمير العظيم الذى اتفقت الامة عليه لينوب عنها

(عيسى بن هشام) ـ ليس هـذا الذى تراهُ بأمـير ولا بعظيم من عظماء الأمة وإنمـا هو أحد أبناء الفلاحين أرسلهُ أبوهُ الى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى فى الامة ولاية الدماء والاعراض والاموال

(الباشا) ـ نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة وللشهيد فى الجنة أعلى الدرجات ولكن كيف تتصور عقولكم ـ وأظنكم فقدتموها ـ أن تجتمع الشهادة فى سبيل الله والحياة فى الدنيا لأحد من الناس. والذى يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكم الناس فلاَّح وينوب عن الأمة حرّاث . ويُشهد الله أني خرجت من شدة الى شدة وانتهيت من خطب الى خطب فسلّمت وصبرت ولكن لا

صبر لى على هــذه الخارقة فما أعظم الفاجعة وأشقّ النازلة . لقد فَنِيَ مني الصبر. ومن لى بفناء القبر

( عيسى بن هشام ) ـ اعـلمْ أن هـذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد بل هي ورقة يأخذها التلميذ فى نهاية دروسهِ ليثبت بها أنه تلقى العـلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك

(الباشا) ـ مهٍ مهٍ كأنك تريد الإجازة التى يجيزها علماء الأزهر لمن تلقّى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها. غير اننا ماسمعنا فى دهرنا بهذه الاثمان وما عهدنا أن الازهر الشريف يعرف ما الفرنكات أو يفقه من العُملة سوى الجرايات

( عيسى بن هشام ) ـ ما هذه العـلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم افرنجية يتلقونها فى بلاد الافرنج . والفرنك عُملة تلك البلاد ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهى قيمة لا تذكر بالنسبة الى كثرة فوائدها لأن القاعدة فى هذا النظام «ان الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » وصاحب الشهادة اذا قدّمها للحكومة يكون لهُ الحق فى الاستيلاء على مرتب وظيفـة يزيد على الدوام ويَرقىَ

(الباشا) ـ الآن كدت أفهم . وأظن هـذه الشهادة تعادل «أوراق الالتزام» و «سراكى الروزنامجه» فى أيام حكومتنا

قال عيسى بن هشام ـ وبينا نحن فى هذا الحديث اذا بشابين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطِران فى مشيتهما والطيبُ ينتشر فى الجو من أردانهما وهما يصعّران خدهما[1] كبراً واختيالاً . ولا يلتفتان الى مَن حولهما تيهاً وإعجاباً . أحدُهما يشق الهواء بعصاه . والثانى تلعب «بالنظارة» يداه فشخصت فيهما الانظار وتحولت نحوهما الابصار . والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا الى باب النائب فقام لهما عن مجلسهِ وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته واشتغل الحاجب بسَحْبهم وجرّهم وطردهم ونَهرهم واشتغل النائب بطيّ المحاضر ورفع المحابر حتى خلا لصاحبيهِ من كل شغل وعمل

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ يَظْهَرُ لى ان هذين الشابين من أكبر أولاد الامراء او أنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم

(عيسى بن هشام) ـ ما أظنهما الا زائرين من قرناء النائب فى المدرسة كما يَظْهر لى من شمائلهما

(الباشا) ـ وهذا أعجَبُ وأعجب

---

(١) صعر خده أماله تكبرا

قال عيسى بن هشام — وأردت أن أخبر خبرهما وأكشف أمرهما فانتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت فى عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى فسمعت هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس — لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهى اللعب

(النائب) — لأنهُ كان قد مضى من الليل اكثرهُ وعندى من القضايا ما يضطرنى الى التبكير

(الزائر الثانى) — وهل سمع أحد ان القضايا تعوق الانسان عن مجالسة الاخوان . ومثل هذا العذر يُعتذر بهِ لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها أوَ لم تعلم ان فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله اكثر من ساعة واحدة وأخص بالذكر منهم فلاناً فانهُ يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منهُ ويستغنى عن مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للاحاطة بفهمها وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة و « البوليس » فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها اليهِ لاستيفائها ولا محل لتجديد التحقيق

بعده ُ وتضييع الوقت سدى فيما عساه ُ أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى

(النائب) — ذلك ما أفعله ولكن لابد من التمسك « بالظواهر ُ والاصول » على قدر الامكان

(الزائر الاول) — أفما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيكهُ

(النائب) — صدقت ان الكاتب ليكفى . والقول الصحيح ان السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ونحن لا نزال فى أوائله

(الزائر الاول) — تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائما مهما ربحت ومهما كسبت وما سمعت ُ منك فى عمرى الا انك خسران . أفلم تربح منى فى « اليد الاخيرة » التى كانت بيننا خمسة جنيهات

(النائب) — وحقّ شرفى وذمتى ومستقبلى انى قمت من عندكم أمس بالخسارة

(الزائر الثانى) — ما علينا . ولكن قل لى هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه الى صاحبنا الى مشاهدة الرقص البلدي من فلانة المشهورة

(النائب)ـ أسألك المسامحة فانه لايمكنني ذلك أولاً لأن هذا الرقص الذي يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبني وثانياً لاني دعوت « مادموازيل فلانة » المشخصة في «الاوبرا» مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء في الازبكية عند «سانتي» وسنذهب بعد ذلك الى « خان الخليلي » و « قصبة رضوان » و « مقابر الخلفاء » وبعض الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلي

(الزائر الاول) — دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شيء فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات

(النائب) — فاتني أن أذكر لكما ان معنا فلاناً المحامي ومعه صاحبهُ العمدة

(الزائر الثاني) — وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هــذا المجلس الأفرنجي أو يستريحان لهُ وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الاوربية

(النائب) ألم تعلم يا أخي أن أمنية المحامي أن يكون مصاحبا لأهــل القضاء. وأمنيَة الفلاح أن يحتك بنا. والرغبةُ عند أمثالهما عظيمة في حضور المجالس الافرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضبا — من أين اشتريت هذا «الكرافات» (رباط الرقبة)

(النائب) — ما اشتريته يا «مونشير» (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز

(الزائر الثانى) — هل بلغك زواج فلان بمعشوقته

(الزائر الاول) — هل ركبت مع فلان فى الاوتوموبيل (الدراجة الكهربائية)

(النائب) ـ قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول

(الزائر الاول) — أنا أعرفه فهو الغرام

(النائب) — لا

(الزائر) — المال

(النائب) — لا

(الزائر) — المرض

(النائب) — لا.. وانما هى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها

(الزائر الاول) ـ وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته

(النائب) — سيرته

( الزائر ) — لا

(النائب) — وطنيته

( الزائر ) — لا

(النائب) — فرنسويته

( الزئر ) — لا . وانما هى « انكليزيته »

---

## ﴿ المحامى الاهلى ﴾

قال عيسى بن هشام ـ فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكمنى وعدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره فوقفت عن بُعْدٍ أسمع مايدور بينهما

( السمسار ) ـ اعلمْ ان المحامي يدير القضاء فى يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرىء من يشاء وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوّع اشارته ورهن كلمته وكالخاتم فى إصبعه فلا حكم الا بقوله ولا قضاء الا بأمره وأنت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالمروءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ولى صاحب معروف

بين طائفة المحامين بالصدق والامانة وله مقام سامٍ بين القضاة والحكام فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضي وخدين النائب ووكيل «البرنس» ولو شاهدتَهُ ياسيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسَمَر ورفعِ الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنس وأوقات السرور يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكههم ويناظرهم ويقامرهم لأيقنتَ فى الحال ان كل طَلَبٍ له يُجابُ وليس لأمره من رادّ فالمجرم ُبرىء والبرىء جانٍ على حسب المراد. فقل لى حينئذٍ عن مقدار ماتستطيع دفعه من « مقدّم الأتعاب » فى تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) ـ أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخرولم يخبرنى صاحبى عن هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فاذا استفهمتُ عنه ... ..

(السِمسار) مقاطعاً ـ لالزوم للاستفهام من أحد فهاهو حضرة المحامي قد أقبل لمقابلة «النائب العمومى» فانا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك

(ويسرع السمسار الى مكالمة المحامى بعدأن يوسع له فى الطريق ويسلم عليه بسلام الأمراء حتى يصل بهِ الى جانب الباشا)

(المحامي) بصوت عال ـ انا لا أستطيع قبول التوكيل عن

أحد فى هذه الايام لتراكم الاعمال وتزاحم القضايا فلم يبق عندى وقت للطعام وللشراب فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم

(السمسار) ـ سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وبما جبلت عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء ان تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة

( المحامى ) ـ لاأرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك (وينصرف المحامي بعد مصافحته للباشا )

(السمسار للباشا) ـ هلم فادفع عشرين جنيهاً

( الباشا ) ـ ليس عندى الا ن شيء من الدراهم

(السمسار) ـ أعطني تحويلا

(الباشا) ـ أنا لاأفهم لك كلاماً فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعاً

( السمسار ) ـ كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامي أمامي

(الباشا) ـ أنا لم أتفق مع أحد فاتركنى وانصرف

(السمسار) ـ كيف تنكر اتفاقك مع المحامي بعد ان وضعت يدك في يده

(الباشا) ـ عفوك اللهم ولطفك ! ومن يصبر على هذه الحال أشرت بيدى فى حديثى مع صاحبى فوقعت فى حادثة المكارى . وصافحت المحامى فصرت مدينا بعشرين جنيها . ففى أى العوالم أنا وبين أيّ المخلوقات

قال عيسى بن هشام ـ ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع مع السمسار فى حادثة أخرى فأدركته وبخت الرجل على احتياله وتوعدته بالشر ورفع الأمر الى النائب العمومى إن لم ينته عنا . فخلفنا وانصرف . ونادي الحاجب أرباب القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهيا فى حديثه مع زائريه وأشار لنا بالتقدم الى الكاتب فتقدمت مع صاحبي وشرعت فى بسط القضية وبيان ما قاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افترائه فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له : لا تقبل كلاما فى البوليس ولا تسمع فيه طعنا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه . ثم نظر فى الساعة فوجد الميعاد قد حلّ فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي الآن وجب أن أذهب

للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابى للمدافعة عنك

(الباشا) ـ قل لى بالله ما هو المحامى عندكم

(عيسى بن هشام) ـ هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك عما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك وصناعتُه هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامى وسمساره . وهؤلاء بعينهم هم الذين يَعنيهم علاء الدين الكندىّ بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا    الاّ شياطينُ أولُو باسِ
قومٌ غدا شرُّهم فاضلاً    عنهم فباعوهُ على الناسِ

---

### ﴿ المحكمة الأهلية ﴾

قال عيسى بن هشام — ولما حلّ يوم الجلسة رافقتُ الباشا الى المحكمة . فوجدنا فى ساحتها أقواماً ذوى وجوهٍ مُكْفَهِرّة . وألوانٍ مصفَرّة . وأنفاسٍ مقطوعة . وأكفٍّ مرفوعة . وشاهدنا باطلاً يذكر . وحقّاً يُنكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد وشاهداً يتردد . وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبدّ . ومحامياً يستمدّ . وأمّاً تنوح . وطفلاً يصيح . وفتاةً تتلهف . وشيخاً يتأفف . وسمعنا

ألفاظاً متناقضة . وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميَيْن . عن الخصمين . يشحذ كلٌّ منهما لسانَه . ويقدح جنانَه . استعداداً للنزال . في ميادين المقال . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . ليَخرج كلاهُما بغنيمة البراءة في الحكم . ورفع التهمة والجُرم . فانزويت بصاحبي . ومحامينا بجانبي . يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية » وظروفاً وأحوالا . وشروحاً وأقوالا . وموادّ وفقرات . في الجنح والمخالفات . ثم يتصفح محاضره . ويقلب دفاتره . ويُقسِم لنا بوكيد الأيمان . أن الباشا من تهمته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال . بما تقتضيه الحال . ولما سألني عن هذه الملحمة . قلت له هي المحكمة

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير ما أرى فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب

(عيسى بن هشام) — هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية

(عيسى بن هشام) — للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهي محاكمُ متعددة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الاهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الادارية والمجالس العسكرية

والمحاكم القنصلية دع المحكمة المخصوصة

(الباشا) ـ ماهذا الخلط . وما هذا الخبط . وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقاً واحزاباً . وقبائلَ وأفخاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئاتٍ غير مؤتلفة . وطوائفَ متبددة . حتى جعلوا لكل واحدة محاكم على حدة . ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأوَل . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الغراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان

(عيسى بن هشام) ـ ليس الأمر على ما تتوهم وتخيل فلم يتفرق المصريون فرقاً ولم يتوزعوا شعوباً بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضي نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم . وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً

أما المحاكم الشرعية فقد جُرِّدتْ من النظر والحكم في عامة المخاصمات واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية أعني مسائل الزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب

(الباشا) ـ تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله :

قد نُسخَ الشرعُ في زمانهمُ  فليتهم مثل شرعهم نُسِخوا

(عيسى بن هشام) — لم يُنسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ على الدهر ما بقي في العالم إنصاف وفي الأمم عدل ولكنه كنز أهمله أهله ودرة أغفلها تجارها فلم يلتفتوا الى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دونَ الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلفوا في الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفساف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والاقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة الى الخيال وتعدوا الممكن الى المحال فكان من أكبرهم العالم العلامة فيهم والحبر الفهامة منهم أن يُبدع في التفنن للإغماض في الحق الأبلج والتعقيد في الحنيفية السمحة ولم يتنبهوا يوماً الى ما تجري به أحكام الزمن في دورته ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم بهِ المصلحة بين الناس بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولا يتحلحلون معتقدين ان الدهر دار دورتَه ثم وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمَل فيهِ ولا عمَل فكانوا سبباً في تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن العقْد وقلة الغنَاء فيه لانصاف الناس في معايشهم ومرافقهم على حَسَب ما تجدد به حالات الزمن وتخالف عليهِ أشكال العصور . ومِنْ هنا تولدت

الحاجة إلى انشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية

(الباشا) — ما أظن الا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه فى الدين عذر واضح فى النزول الى هذه الحال السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع أو من جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر فصدهم عن سواء السبيل وأرغمهم هذا المرعى الوبيل

(عيسى بن هشام) — لم يكن من ذلك شىء على الاطلاق فالارادات مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحدثان ولكنه فساد فى التربية عم أمره وانتشر وانحطاط فى الأخلاق عظم بلاؤه واشتهر سكنت اليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن واستولى على قلوبهم الجبن والخور وعلى عقولهم الضعف والخبل وعلى نفوسهم الفتور والكسل فوصلوا الى الحال التى يرون بها السنة بدعة والبدعة سنة والفضيلة نقيصة والنقيصة فضيلة وأقاموا يتعسفون فى الحكم ولا ينصفون . ويتفكهون فى الدين ولا يتفقهون . وصرفهم حب المال . عن صالح الاعمال . وألهاهم مايدخرونه من زخرف الحياة الدنيا . عما يدخر لهم فى الدار الاخرى . فنحن الذين فطلنا

كل هذا بأنفسنا . منا الإثمُ والوزر . وعلينا الذنب والإصر

وأما المحاكم الاهلية فهي القضاء الذى يَقضِى على الرعية اليومَ فى جميع الخصومات طبقاً لنص القانون

(الباشا) ـ القانون «الهمايونى»

(عيسى بن هشام) ـ القانون « الامبراطورى »

(الباشا) ـ ماعهدت منك ان تُعجم وتُبهم

(عيسى بن هشام) ـ لا إعجام ولا إبهام فهو قانون نابليون امبراطور الفرنسويين

(الباشا) ـ وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى

(عيسى بن هشام) ـ لا . وانما نحن الذين أدخلنا أنفسنا فى حكمِهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

(الباشا) ـ وهل هذا القانون ينطبق حكمُه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهّرة والا فانهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله

(عيسى بن هشام) ـ المسألة فيها خِلَاف فالاجماع تام عند علماء الشريعة فى السر والنجوى على أنهُ مخالف للشرع وأنّ كل من يقضِى به داخلٌ تحت نص الآية الشريفة : «ومَن لَمْ يحكم بما

أنزل اللهُ فأولئك هم الفاسقون» . ولكن يظهر أنهُ طابق عندهم للشرع فى حالة الجهر والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبرائهم عند نشر هذا القانون وهو يومئذ مفتى نظارة الحقانية فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التى أفتاها بأن هذا القانون الفرنسوى غير مخالف للشرع الاسلامي وإن كان لاعقاب فى هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المفسوق به ان تجاوز عمرهُ الثانية عشرة بيوم واحد ولاعقاب فيه على من يزني بأمه اذا هي رضيت به وكانت غير متزوجة . وهو الذى يعد الأخ مجرماً جانياً اذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعة عنهُ وكذلك بقية أهلها ماعدا زوجها . وهو الذى يحكم بالزام المدينين بدفع الربا لمداينيهم . وهو الذى يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذى لا يعاقب الزوج اذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه

وأما المحاكم المختلطة — وقضاتها من الاجانب — فهى تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الاهالي والاجانب وبين الاجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية أعني فى قضايا المال . ولما كان الاجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدهم وكان المصريون أخلق بالفقر

وأجدرَ لإهمالهم وتوانيهم كان معظم القضايا التى تحكمُ فيها هذه المحاكم لابدّ أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهى تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يُخلّ بتأدية وظيفته — وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه — وحدُّها فى العقاب الرفت والحرمان من المعاش . وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجعٌ فيه الى المحاكم الاهلية

وأما المجالس الادارية فهى تختص بعقاب من يخالف اللوائح والاوامر والمنشورات . وشرحُ ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهى تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضُبّاط والجنود وتحكم أيضاً على الاهالى فى مسائل القرعة وما شاكلها

وأما المحاكم القنصلية فهى تختص بالنظر فى الجُنح التى تقع من الاجنبى على المصرى ومن الاجنبى على الاجنبى من جنس واحد. فاذا وقعت جناية من أجنبى على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التى عددتها لك بالنظر فيها بل يرتدّ الجاني بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه

وديار قومه فينظر قضاته هناك فى أمره والغالب فى مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل : « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى . وضياع معالم القضية . وعدم توفر الشهود »

وأما المحكمة المخصوصة فهى تختص بمعاقبة الاهالى عند تعدّيهم على الجنود الاجنبية

( الباشا ) — ما زلتَ تسمعنى الغريب وتفهمنى غير مفهوم ومن أعجب ما سمعت أن المصرىّ يتعدى على الجندىّ

قال عيسى بن هشام ـ وبينا نحن فى هذا الحديث إذ ارتجّ المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى وهو فى عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجههُ حسنا . ويشاكل فى القد غصنا . وكأنه طائر فى مشيته من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن نوبة القضية ثم عدت الى صاحبى ومكثنا فى الانتظار زمناً طويلاً الى ان جاء وقتنا ونُودِىَ الباشا فدخل مع المحامى فى الجلسة وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتي «١٢٤» و «١٢٦» عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال «الضبطية القضائية» فى أثناء تأدية وظيفته وبالمادة «٣٤٦» مخالفات لتعديه على المكارى بالايذاء الخفيف

( القاضى للمتهم ) ـ « هل فعلت هذه التهمة »

(المتهم) ـ لم أفعل

قال عيسى بن هشام ـ وجاؤا بي شاهداً فسألني القاضي عما أعلمه في هذه الواقعة فأجبتهُ :

(عيسى بن هشام) ـ ان لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهي انهُ . . . .

(القاضي) مقاطعاً ـ لالزوم لتفصيل القصة والحكاية . قل لي « معلوماتك » فيها

(عيسى بن هشام) ـ « معلوماتي » هي انني كنت أزور المقابر ذات ليلة وقتَ الفجر أبغي المَوْعِظة وأنشدُ الاعتبار . . .

(القاضي) مستثقلاً ـ لالزوم لكثرة الكلام . أجبْني عن النقطة التي سألْتك عنها فقط

(عيسى بن هشام) ـ ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أني رأيت رجلا خرج من . . .

(القاضي) متململاً ـ قلت لك اني لا أقبل التطويل ولا الشرح في الواقعة ولكن هل ضَرَبَ المُتَّهَمُ العسكريَّ والحمَّارَ

(عيسى بن هشام) ـ ماضرب المتَّهَمُ الحمَّارَ وانما دفعه عنهُ من شدة إلحاحهِ وما ضرب العسكريَّ وانما سقط عليهِ مما غشيهُ بغير عمد

ولا قصد وهو يجهل . . . .

(القاضى) ـ يكفى . يكفى . هلم « النيابة »

(النائب) ـ « ان هذا الباشا متهم بتعديه بالضرب على أحد رجال البوليس فى أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهم بالتعدى بالايذاء على مرسي الحمار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الاوراق واطلاع المحكمة عليها كاف وبناء عليه النيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عداله المحكمة التشديد فى العقوبة لان حالة المتهم تستدعى ذلك لانه يتخيل ان رتبته تجعله خارجا عن سلطة القانون وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنا فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولاشك ان تشديد العقوبة عليه واجب لاعتبار أمثاله به والمساواة فى العدالة وأفوض الامر الى المحكمة»

(القاضى المحامى) ـ المحاماة . مع الاختصار

(المحامى) بعد أن يتنحنح ويقلب فى أوراقه ـ « اننا نتعجب من ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل وقوع الجرائم ياحضرة القاضى فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يقصد منه . . . .

(القاضى) مشمئزا ـ اختصر ياحضرة المحامي وادخل فى الموضوع

(المحامى) ـ . . . ومن المعلوم ان نظام الترتيب ياحضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى . . .

(القاضى) متضجراً ـ اختصر . يابك .

(المحامي) ـ الموضوع يقتضى ذلك

(القاضى) متأففاً ـ لالزوم له

(المحامى) متحيراً ـ قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أقوالها) ونحن نقول اننا لو سمعنا جدلا . . .

(القاضى) مغضباً ـ يكفي يابك . الموضوع

(المحامي) متلعثماً مضطرباً ـ ان هذا المتهم ياحضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم وله حديث منشور فى الجرائد ـ وهذه أعداد جريدة «مصباح الشرق» تطلعون عليها ـ وقد اعترضهُ فى طريقه أحد المكارين فدفعهُ عن نفسه والناس يعلمون إلحاح الحمّارة وسوء أدبهم ومثل هذه الطبقات التي ليس فيها تربية . . .

(القاضى) نافداً صبره ـ قلنا اختصر . يابك

(المحامى) وهو يتصبب عرقاً ـ . . . ولما توجه المتهم الى القسم

أغمى عليهِ فسقط بدون تعمّدٍ على عسكرى كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية . وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات الى دعوى البوليس . ولا عقاب على المتهم ألبتة لانهُ كان فى عصر غير عصرنا وفى نظام خلاف نظامنا ولم تبلغهُ دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالاحوال وان . . . .

(القاضى) منفعلاً ضارباً بيده على المكتبة ـ المحكمة تنورت يابك ولا لزوم للكلام مطلقا فهلم طلباتك

(المحامى) ساخطاً فى نفسه ـ طلباتنا هى « اننا نطلب من باب أصلى الحكم ببراءة المتهم وان رأت المحكمة غير ذلك فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٣٥٢ عقوبات »

قال عيسى بن هشام ـ وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفاً بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات . فضاقت الارض بى وأظلمت الدنيا فى عينى وكدت اشترك مع صاحبى فى الذهول والاغماء لولا ان المحامى أكد لى كل التأكيد انهُ لابد من البراءة فى محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولكن يجب مع ذلك ان نرفع عريضة شكوى الى «لجنة المراقبة»

لحسن التأثير فى القضية عند نظرها فى الاستئناف ثم قال لى اعلم ان السبب فى كل ما صدر عن هـذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنهُ مدعوٌ فى وليمة بعض رفقائهِ عند الظهر تماماً وأمامهُ فى جدول القضايا ثلاثون قضية يريد ان يأتى عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد

وأطعنا إشارة المحامى فقدمنا عريضة الى « لجنة المراقبة » ولما طلبنا منهُ ان يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها تنحّى عن استصحابنا وقال انه كان يودهُ مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعهُ ان يعلم القاضى بسعيه فى التظلم منهُ فيتعمد فى المستقبل أذاهُ وينصرف همهُ الى نكايته بسبب شكايته والمحامى فى حاجة دائمة الى اجتلاب رضاء القاضى واجتناب غضبه فقبلتُ عذره ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبنى وهو يشتد فى الإباء ويلجّ فى الامتناع بقوله:

(البـاشا) ـ يكفينى ما قد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القَدَر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى ان يجتمع عليها ذلاَّنِ فى سلك واحد ذلُّ المتحمل للظلم المستكنّ للجور وذلُّ المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع . فاليك عنى لا تكن عوناً للخطوب. ومفتاحاً للكروب. وصدَقَ

ابنُ يعقوب : « ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني اليه » . ويعلم الله لولا عذاب النار .لفرّجت عن همي بالانتحار . وبودي لو يبدل حكم الحبس بالاعدام .لأخلص من هذه الأوصاب والآلام , وقد عشت دهرى ماعلمت أن السجن يكون فى عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجرى عندنا فى عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة وللأمراء الامتياز على كل حال فان كان ثمّ لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون .أليق بنا من ظلمة السجون

(عيسى بن هشام) ـ ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع ولا أتوقع منك مثل هـذا الخوَر والهلع . وأنت البطل الجرىء والشجاع المقدم وما الشجاعة الا فى التصبر على المكروه والتجلد للخطوب تتلقاها بوجه طَلْق وصدر رحب وترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فُرجةٌ كحلِّ العِقال

وأنت عندى الحازم الأرشد . والعاقل المُسَدَّد . وما العقل الا نفاذ الرأى فى كشف المُلِمة . وتسديد الحيلة فى إزاحة الغُمة . وأمامنا اليوم طرق مسنونة ووسائلُ مشروعة لاغضاضة علينا فى وُلوجها ولا مضاضة فى سلوكها . واعلمْ أن تبدل الازمان وتقلب

الحدثان يغير من مباني الأمور ويكيف في اعتبار الأشياء فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر في الغد رذيلة وما كان يعدّه الناس في الزمن الماضي نقيصة يعدونه في الحاضر كمالاً . وان كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والنعمة ويقوم ركنُه على البأس والبطش فان الشرف اليوم كل الشرف في الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون . فهلم نسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهي بالخلوص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء ان يقبل الانسان نظام الاحكام في البلد الذي اتخذ داراً واختار مُقاماً

(الباشا) — لَطعمُ الموت الزؤام (١) أهونُ من هذا الكلام .
وللشربُ من حميم آن (٢) آثرُ من احتمال هذا الهوان

قال عيسى بن هشام — فاعتلّت عليّ وجوه الآراء . في صرف صاحبي عن الامتناع والاباء . وكدت أيأس من بلوغ الغاية . في باب النصيحة والهداية . لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادي في طريقنا بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

!! المؤيد والمقطم !! الاهرام ومصر !!
الاربعة بقرش

---

(١) الموت الزؤام الكريه أو المجهز  (٢) الحميم الماء الحار وآن شديد الحرارة

(الباشا) ـ ماذا أسمع من الاعاجيب ! أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع فى الاسواق بالمزاد

قد اختل الانامُ بغير شك فجدّوا فى الزمان أو العبوه

(عيسى بن هشام) ـ ماهي بالآثار ولا بالبلاد ولكنها اسماء انتحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) ـ لعلك «تعنى جرائد الصيارفة ويومياتهم» أو «جرائد الالتزام» ولكن ما وجه هذه التعمية فى التسمية

(عيسى بن هشام) ـ ليس الامر كما ذهبت اليه ولكن الجرائد هى اوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع وتُسرد فيها الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس وهى أثر من آثار المدنية الغربية انتقل الينا منها فيما انتقل. والأصل فى وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة والذم للرذيلة والنقدُ على ما قبح من الاعمال والحثُّ على ماحسن من الأفعال والتنبيه على مواضع الخلل والتحضيضُ على اصلاح الزلل وتعريفُ الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لا تجري بها الى غير المصلحة وتعريفُ الحكومة بحاجات الأمة لتسعى فى قضائها . وبالجملة فان أصحابها هم فى مقام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت

الشريعة الاسلامية اليوم

(الباشا) ـ قد كنا نسمع فى زماننا بشيء من هذا القبيل يقال له «غازيته» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «روزنامه وقائع» وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تُدوَّن فيهما المدائح والتهانى ويذكر فيهما انتقال الركاب العالى. ولكن ان كانت الجرائد قد ارتقت اليوم الي ما تزعم فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتمّ بأمرها كبراء العلماء الاعلام وعظماء المشايخ الكرام ولنعمت الوسيلة وحسنت الطريقة فى تبليغ الناس ما يصلحهم فى معاشهم وينفعهم فى معادهم. فعليّ بواحدة منها

(عيسى بن هشام) ـ علماؤنا ومشايخنا — يغفر الله لهم — هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونهُ فضولاً تنهي عنه الشريعة وتداخلاً فيما لا يعنيي فلا يأبهون بها وربما اختلفوا فى كراهة الاطلاع عليها أو إباحته. وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حِرفة للتعيش بها والتكفف على أية حالة كانت فلا تجد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الاسواق فرقاً فى الغش والخِداع والكذب والنفاق والمكر

والاحتيال للاستلاب والاغتيال

عمّروا موضعَ التصنّعِ فيهم ومكانُ الإخلاص منهم خرابُ

فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سفل قدرها عند الخاصة وأصبح ما كان يُرَجّى فيها من النفع دون ما تجلبهُ من الضرر . ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الايام أن تدور يوما بتهذيب هذه الحال ورفع هذه الصناعة الى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر . والحكمُ كلهُ للقارئين في الاقبال على ما ينفع والانصراف عما يضر « فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاء وأما ما ينفع الناسَ فيمكُثُ في الأرض » . ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعا وفتحت واحدة أقرأ على صاحبي نُتفًا من أخبارها فوقع نظري فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين فأسمعتهُ ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش في سجنه واستدرار الدموع لما يلاقيهِ هذا الغلام من ضيق السجن وهو من سلالة الولاة والامراء . ثم قلت لهُ بعد أن انتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو :

(عيسى بن هشام) — انظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال في المساواة وقد علمتَ ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين

من حكم المحاكم عليهِ فكيف ترفع نفسك بعد ذلك وتأبى الخضوع للقانون والامتثالَ لأحكامهِ والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيهِ

(الباشا) — ما «البرنس» . ومَن أحمد سيف الدين

(عيسى بن هشام) ـ اما «البرنس» فهو لقب أجنبي قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترؤا على الأمة بانتحال لقب «امبراطور» ثم صار يُطلق بعدهم فى أوربا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويُطلقهُ اليوم على أنفسهم اعضاء «العائلة الخديوية» ذكوراً وإناثاً وإن كان لا ذِكر لهُ بين الألقاب الرسمية فى الدولة العلية . واما أحمد سيف الدين هذا فهو احمد بن ابراهيم بن احمد بن ابراهيم بن محمد على جد الأُسرة الخديوية وعميدها وقد ارتكب جناية فسحبوهُ الى المحاكم واستحق العقاب الذى يقضى به القانون فحكمت عليهِ المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف فأنقصوا المدة الى خمس ثم استغاث بمحكمة النقض والابرام فلم تغثهُ . وقد انصرفت المساعي لاتفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنهُ وذهبت أمهُ يميناً وشمالاً فلم تبق

وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون فان سيفه ماضٍ فى كل الرقاب وسلطانهُ نافذ فى كل الرؤوس . فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسُك من السعى وراء « لجنة المراقبة » و « محكمة الاستئناف » وقد علمتَ من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت

( الباشا ) ـ ثم كيف لا تخرّ الجبال الشمّ . اذا استنزلوا منها الأراوىّ العُصْم (١) . وكيف لا تنشقّ القبور . ويُنفخ فى الصور . وقد انحطّ المقام وسفل القدْر . وحقت كلمة ربك على مصر : « فجعلنا عاليَها سافلَها » . وما دام حفيد محمد على فى السجن على ما ترى يخضع لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمهُ بتلك الشفاعات فما علىّ من عارٍ فيما تدعونى اليهِ فاذهبْ بى الى حيث تريد . وليتهم كانوا يقبلون منى ان أكون فداءً لابن سادتى وأولياء نعمتى فتضاف عقوبتهُ الى عقوبتى .

﴿ لجنة المراقبة ﴾

قال عيسى بن هشام ـ فسرّنى من الباشا مطاوعتهُ إيّاىَ وقبوله لنصيحتى ورضىَ بالتوجه إلى نظارة الحقانية فسار معى وهو

---

(١) الأراوى جمع أروية وهو الوعل والاعصم ما فى ذراعيه بياض وسائره أسود

مختنق بدمعه متعثر بقدمه. ولما وصلنا اليها قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وهممنا بالدخول في حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلب منا « الكارت »

(الباشا) مستفهماً - ما معنى هذا اللفظ الأعجمى

(عيسى بن هشام) - « الكارت » بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المَزُورُ بالخيار فى قبول الزيارة أو التملص منها

(الباشا) - لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة فى أيامنا لكل من يطرقها. وكيف ينطبق هذا التضييق على ما تصفه لى من المساواة فى الحقوق والانصاف فى الأحكام

(عيسى بن هشام) - لا يسلمَ الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من لجاجة صاحب حاجة فوُضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لاعمالهم

(الباشا) - ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصد مَن ذكرتَ عن الدنوّ منهم والتجرؤ عليهم

قال عيسى بن هشام - وبادرت الى القلم فكتبتُ وُريقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب فجاءنا بعد الانتظار بالاذن فدخلنا فوجدنا

أمامنا فتى من أجمل الفتيان . قد أرسل لحيته قبل الاوان . يتموج تحتها ماء الشباب . كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب . رأيت في يده جريدة حساب . يجمع في أرقامها ويضرب في أعدادها . ثم يضع يدهُ على جبهته . كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته وعن يمينه كتاب أعجمي وعن شماله كتاب عربي . فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسوي الملحد . وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوهُ سألنا عن حاجتنا فذكرت لهُ العريضة التي قدمناها وقصصت عليه القصة وشرحت لهُ ماعاملنا بهِ القاضي من سوء المقاطعة في الشهادة والمرافعة . وهنا انبرى الباشا يخاطبهُ بقولهِ :

( الباشا ) ـ وأدهي مافي القضية وأمرُّ مافي الامر أن الذي تسمونهُ « النائب » اعتبر رتبتي سبباً لأهانتي وما كنت أتخيل في الاحلام ان الرتبة التي نلتها باقتحام الاخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر وبرهاناً قاطعاً لديه في تشييد دعواهُ يطلب بهِ تشديد العقوبة . فقولوا لي بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام . ومِنْ أي صنف أنتم بين صنوف الانام

قال عيسى بن هشام ـ ودخل أحد الزائرين في هذه الاثناء

فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله والا فقد كان الباشا اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلّم الزائر سأل عما حدث من الاخبار . في وجه النهار . فناوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها . بعد ان بالغ له في بلاغتها . وما كاد يلتفت الينا ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الاجانب فأطلعهُ على رسم في ورقة زعم أنه نقشهُ في أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتدّ الجدال فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ضحكة ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه وختم كلامهُ بقوله :

( المفتش للباشا ) ـ قد اطّلعتُ على ظروف القضية كلها في «مصباح الشرق» فاما القاضي فقد يكون له العذر في مقاطعة المحامي لان منهم من اعتاد أن يأتي في مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة وتكوين الجمعية البشرية وما يجري هذا المجرى مما يطول شرحه ويُملّ سماعهُ ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وهم يستعملون ذلك في أيسر القضايا وأدناها ليقتنع صاحب القضية ان المحامي لم يدخر لديه كلاماً يقال في الدفاع عنهُ بقطع النظر عن ربح القضية أو خسرانها . فترى أرباب القضايا يعتقدون ان المحامي لا يستحق

أجره من المال . الا بكثرة ما يقال . كالسلعة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجعالة لمحاميه بعد أن ربح له القضية بدعوى انهُ لم يسمع منهُ كلاماً مطولاً في المرافعة يستحق عليه الاجر سواء كان مفيداً أم مضراً بها وليس يخفى أن وقت القاضي قصير ثمين فلا يسعهُ الا المقاطعة على المحامي المكثر في كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه الى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر ان القاضي لم يخالف القانون بشيء فيما أتاه معكم

(الباشا) — ليت شعري اذا اعتذرتَ عن القاضي في مقاطعته فما العذر في وضعه لي في « قفص المتهمين » وتقييده لي بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل شيخ معمر وقد قضيتُ عمري في المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمي في خدمة الاسرة الخديوية فهلا كان وقرني لسنيّ واحترمني لقدري وأيّ قانون في الدنيا يمنعهُ من ذلك وتوقيرُ السن طبيعيّ واحترام المقامات أمرٌ أصليّ والله تعالى يقول : ( ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات )

(المفتش) — ذلك ما يقضي به القانون أيضاً فانه قائم على المساواة بين الناس ولا فرقَ عندهُ في المقامات والاعمار وهذا عين ما يأمر به

به الشرع الشريف وعين مايجرى على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة الحكام اذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذه القانون عليه . ولا معرة عليك ولا غضاضة فى وقوفك أمام القاضى فانما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات

( الباشا ) ـ ان كان هـذا حكمكم فى القاضى فما الحكم فى عضو النيابة الذى عيرنى بشرف رتبتى

( المفتش ) ـ انا لم أطلع بعد على أوراق القضية وتفصيل المرافعة ولكن ما انتشر فى «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ منه معنى التعيير بالرتبة بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة مهما عظم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجعل له سبيلاً على محروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب فانه جرى بيننا مجرى العادة فى هذا العصر

( الباشا ) ـ اذا كان للقاضى العذر وللنائب الحق فما فائدة تظلمي لكم وحضورى أمامكم أفما كان من من اللائق أن تزجروا القاضى وتؤنبوا النائب وتفحصوا القضية وتتثبتوا من بطلان التهمة وتنقضوا ذلك الحكم أمامهما

( المفتش ) ـ ليس ذلك من اختصاصنا . واذا وقع من أحد رجال الحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر فى أمره موكول الى « مجلس التأديب » ولا سبيل لرئيس على مرؤوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرف فى قضيتك . والحكمُ فيها راجعٌ الى محكمة الاستئناف وحدها

قال عيسى بن هشام ـ وكنت أشاهد فى أثناء هذه المحاورة شابا آخرَ بجانبنا من المفتشين يسطع «طربوشه» احمرارا . ويقلب طرفه ازورارا . تلوح على وجهه مخايل الامارة . ولا تنفك يدُهُ فى رفع وخفض « للنظارة » . وتشهد عليه سيماهُ بالتفنن فى التدبير وتدل على قوة الدهاء والتفكير . فلما وصلنا الى حيث وقف بنا الكلام رأيناه ينادي الحاجب ويقول لهُ :

( المفتش الثانى ) ـ علىَّ « بدللّوز » و « جارو »

( الباشا لعيسى بن هشام ) ـ هل هذان الاسمان يطلقان على القاضى والنائب وهل ترى هذا الشاب همَّ للانتصاف لى منهما

(عيسى بن هشام ) ـ هذان اسمان لكتابينِ فى فقه القانون بدل « ابن عابدين » و « الهداية » فى فقه الشرع

وحضر خازن الكتب بالكتابين فردَّ المفتش لهُ أحدَهما وقال لهُ :

ماطلبت « بودري » بل طلبت « جارو » . ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليائس وقال: ائتني « بفوستن هيلي » فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسوية وانتهى الامر بينهما أن قالا للباشا معاً: ليس أمامك الا الاستئناف في قضيتك وأما مايختص بالقاضي والنائب فسنضع له « نوته » ( مذكرة ) ونقدمها الى اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أقل خلل في تصرفهما أصدرت منشوراً الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك في المستقبل

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول:

( الباشا ) ـ قد كُتب عليّ ان لا أخرج من همّ الا الى همّ ولا أنتهي من كدر الا الى كدر حتى كاديصفو بالي ويخلو خاطري لكثرة ماترا كم عليّ من الهموم والاحزان:

فاني رأيت الحزنَ للحزن ماحياً كما خُطّ في القرطاس رسمٌ على رسم

ومن البديع الغريب في أمر هذه الحكومة الحاضرة انني ما وضعت قدمي في دائرة من دوائرها الا ورأيت أمامي غلماناً وفتياناً يتولون أمورها ويتصرفون في أعمالها فهل خُلق المصريون خلقاً جديداً أم صاروا في الجنة استوت فيها الاعمار

(عيسى بن هشام) — لا تعجبْ من تقلد الشبان لمناصب الحكومة فان نظام هذا العصر يقضى بذلك وهم يزعمون انهُ ليس فى استطاعة الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب لخلوهم عن علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة

(الباشا) — كيف يدّعون ان العلم ينحصر فى الشبان دون الشِّيب وما عهدناه الا فى مَنْ أحنت السنونُ ظهورهم وبيّضت التجاربُ مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأى والادب

(عيسى بن هشام) — هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهماً فى حلبة العلوم وأجمع لشتات الفنون لما يختص بهِ من جِدّة الذهن وسرعة الادراك فاذا انصرف بهمتهِ الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التى يمتاز بها ذوو الاسنان والاعمار :

ليس الحداثةُ عن علمٍ بمانعةٍ قد يُوجَدُ العلمُ فى الشبان والشِّيبِ

(الباشا) — ولنرجع الى شأننا فقد اتبعتُ آراءك وامتثلتُ نصائحك وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا بعد هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ولم يبق لك بعد اليوم

وجه فى أى احتجاج وجيه توجهنى به وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام

(عيسى بن هشام) — لا تيأس ولا تقنط فان أمامنا محكمة الاستئناف ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الاحكام . ولو خاب فيها الامل على الفرض والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتمسهُ بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) — لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهما بالغتَ لى فى الوصف واستشهدتَ فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) — ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكبٌّ على الاوراد منصرف الى الاذكار . يُحيى ليلَهُ قائماً . ويصبح نهارَهُ صائماً فبين السبحة وأصابعهِ عهد وميثاق . وبين السجادة وجبهتهِ ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكرنا فى هذا العهد الجديد بعهدكم القديم . وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمهُ حسن باشا المناسترلى

(الباشا) — حسن المناسترلى !! ذاك خليلى وقرينى وصاحبى

وخديني ورفيقي في الخدمة وأخي في الحكومة ولماذا لم تخبرني عن ابن أخي هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهي وأنقذتني من كل هذه الاهانة وذلك التحقير

(عيسى بن هشام) ــ ما غاب عني ان أذكرك به فانه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب وانما نفعه يكون في آخر الدرجات ولا عمل نرجوه منه في مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعي في التماس العفو من ولي الأمر

---

﴿ محكمة الاستئناف ﴾

وآن أوان الجلسة في الاستئناف . فسرنا في طلب العدل والانصاف وكل واحد منا مشغول بحاجته . لاهٍ بنازلته . فالباشا يفكر في مصيبته . ويتألم من بليته . والمحامي يدبر في أمره . ويتطلع لأجره . وأنا أسأل الله لنا النجاة . من مكايد الحياة . ولما وصلنا الى حي « الاسماعيلية » ورأى الباشا دُورها ومبانيها . وشاهد قصورها ومغانيها . واستطاب رياضها وحدائقها . واستنشق رياحينها وشقائقها . استوقفنا سائلاً مبهوتا . واستنطقنا بعد أن كنا سكوتا . فقال ألا تخبراني عن موضع هذه الجنة الزاهرة . من مدينة القاهرة . فقلت له هذه « الاسماعيلية » اختطها اسماعيل . فيما اختطه لزينة

وادى النيل : يسكنها اليوم جماعة من العظماء . ذوى الغنى الاثراء . وقد كانت فى أيامكم خرابا قفرا . لا تحمل بيتا ولا ترفع قصرا . ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال[1] . ولا من الازهار غير شوك القتاد أو شوك السيال[2] . ولا من الطير غير البوم والغربان . أو الرخم والعقبان . ولا تجد فيها من الانس إلا لصا سالبا . أو مغتالا ناهبا . أو فاتكا متأهبا . أو كامنا مترقبا

(الباشا) — لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبدلهم من الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك الاطلال البالية

(المحامى) — أيها الأمير لا تغبط المصرىّ على نعمته . وتعالَ فابكِ معنا من نقمته . فليس له فى هذه الجنة من دار . يقرله فيها من قرار . وكل ما تراه من هذا الجانب فهو ملك للاجانب

(الباشا) — لله أبوك كيف يختص الاجنبى دون الوطنى بهذه الجنان الناضرة . ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة . ولعلك تلغز فى قولك وتحاجى . وتعمّى فى تعبيرك وتداجى

---

(١) الطلح شجر عظام يرعاها الابل والضال السدر البرى
(٢) القتاد شجر صلب له شوك كالابر والسيال جمع سيالة نبات له شوك أبيض

(المحامى) لا تحجية ولا تعمية بل هكذا قدّر المصرىُّ لنفسه. وتبدّل سعده بنحسه. واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف. ورضى بالقسم الخسيس الضعيف. فبات محروماً تحت ظل إهماله وخموله. وغدا بائساً فى سُباته وذهوله. وما زال الاجنبي يسعى ويكد. ويعمل ويجد. وينال ثم يطمع. ويسلب ثم يجمع. والمصرىُّ يبذّر بجانبه ويسرف. ويبدد ويتلف. ويتحسر ثم يلهو. ويعجز ثم يزهو. ويفتقر. ثم يفتخر. وساداتنا وكبراؤنا. وولاتنا وأمراؤنا. يعاونون الاجانب بسلطتهم فينا وسطوتهم. ويساعدونهم علينا بيأسهم وقوتهم. ويصطفونهم أنصاراً وأعوانا. ليزيدوا بهم المصريين ذلاً وهوانا. حتى اوقعوهم أيضاً بأسرهم. فى قبضة أسرهم. فتساوى السيد والمَسُود. وتشابه الحاسد والمحسود. وتعادلَ الرفيع والمنيع. بالحقير والوضيع. واشتركنا كلنا على السَواء. فى منازل الشدة والبلاء. وأصبح نصيب القوىّ المكين. مثل نصيب الضعيف المستكين. وكذلك تكون عاقبة من يُلقي للأجنبي بيديه. ومَن أعان ظالماً سُلِطَ عليه:

ومَن يجعل الضِّرغامَ بازاً لصيده    تصيّدَهُ الضِرغامُ فيما تصيدا

قال عيسى بن هشام — وما كاد ينتهي رفيقاي من خطابهما..

ويفرغان من سؤالهما وجوابهما . حتى مر بنا راكب دراجة تنساب به كالصلال[1] . في بطون الرمال . ويتمايل بها تمايل النشوان . مالت به نشوة الخمر . وينثني انثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلأ الباشا . تعجباً واندهاشا . وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا «البهلوان» . فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس . على المركبات والافراس . ومما يرغبهم فيها انها لاتأكل ولا تشرب . ولا تهزل ولا تتعب . وهذا الراكب رجل من أهل القضاء . يركبها لرياضة الاعضاء . فأتبعه الباشا نظره فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته فانفرط عقد الهيئة على سطح الارض الى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فلم شعثه وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها ويماشيها . وأخذ الباشا يخاطبني فيه وفيها :

(الباشا) ـ ياحبذا الوعد نا من حيث أتينا . وكنا مطلقين لا لنا ولا علينا . وكيف يكون شأن القاضي أو الحاكم اذا كان هذا منظره وذلك مركبه أمام أعين العامة . وهل حكم الناس يوماً بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر وفخامة المواكب وقد كان الحاكم أو القاضي

---

(١) جمع صل وهو الحية

لا يركب فى عصرنا الا فى موكب تحف به الحشم والاعوان . وتتقدمه الجنود والفرسان. فترتجف منه القلوب رُعبا . وتخر له الاعناق رُهبا. وقلّ من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يُقِفه أمامه يوماً موقف التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) ـ ذاك عصر مضى . وحكم انقضى . ولقد تفنن أهل العصور الماضية فى وصف ما تذكره من منظر الأبّهة والجلال وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء فى مخالصهم البديعة كقول أبى الطيب فى ممدوحه مثلاً :

جَمَحَ الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ مما يَشُوبُ ولا سرورٌ كاملُ
حتى أبو الفضل ابنُ عبد الله رُؤْ يتُهُ المُنَى وهي المقامُ الهائلُ

(المحامى) ـ قد آن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة

(عيسى بن هشام) ـ ولعلنا نجدها باذن الله فى مكانها فقد تعوّدت التنقل من مكان الى مكان حتى اشبهت خيام العرب :

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالـ ـعذيب يوماً ويوماً بالخُلَيصاء

ثم اقتربنا فوجدناها وأقمنا فى ساحتها ننتظر نوبتنا بين أرباب القضايا حتى نودى علينا فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة فأخذ الاجنبىُّ منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم

تستوف مخارجها فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكرى بالضرب فى أثناء تأدية وظيفته فى يوم كذا من شهر كذا والمتهم أنكر وشهد المجنى عليه ودل الكشف الطبى على وجود علامات فيه للضرب والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتى ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لى هكذا تجرى العادة هنا فيأخذ مثل هذا القاضى الاجنبي عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائى فيجعلها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بمربيتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل اقامته وأشار الى النيابة بالكلام فشرع النائب فى شرح القضية على مايوافق هواه . ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له فى كلامه كما يكون فى المحاكم الابتدائية ( والسر فى ذلك ان بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية فى الاستئناف هم فى حاجة الى العلم بها من أقوال النائب فيتركوه وشأنه فى التطويل والاسهاب ) ثم أذِنَ الرئيس بالكلام للمحامى مع الايجاز فابتدأ

المحامى يسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن المتهم وكلما وصل الى النقطة المهمة فى دفاعه قال له الرئيس : « الموضوع » : « طلباتك » . ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس على ان كلام المحامى فى عين «الموضوع» (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لاقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سُمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة الى حجرة المداولة وخرجنا ننتظر وسألت المحامىَ عن المدة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى :

(المحامي) ـ لاتزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) ـ وماهو متوسط عدد القضايا فى الجلسة

(المحامى) ـ متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) ـ وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ماتحتويه القضايا الجنائية من كثرة الاوراق

(المحامى) ـ نعم تكفى عندهم لكل القضايا ولوكان الاطلاع على القضية الواحدة التى يحكم فيها بالاعدام أو بالاشغال الشاقة المؤبدة يستغرق ساعتين أو ثلاثا . وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضي «الملخص» الى قلم الكتاب لاطلاع المحامين

فتجد عليها رمزاً بأحد هذه الاحرف : «ب» «ع» «ت» . فالباء اشارة الى البراءة والعين اشارة الى العقوبة والتاء إشارة الى تأييد الحكم الابتدائي . وانما يضع القاضي هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه فى القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة فاذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة . ولكن لما كان القاضي الجنائي له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خال من كل اعتقاد خاص للبراءة أو للتهمة حتى اذا استقامت لديه الادلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى غيره ولا أن يكون الحكم مبتوتاً فى القضية بأحد هذه الاحرف الثلاثة التى عنّت للقاضي الملخص وهو يمر عليها فى انفراده بيته مرّ السحاب

قال عيسى بن هشام — وبينا نحن فى هذا الكلام اذ عادت الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لعدم ثبوت التهمة عليه لانه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) ـ لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء. لا يحمل أعباء بطئه البريء • وكان الأولى في هـذه المحاكمات أن تكون النهاية في البداية فلا يلحق من كان مثلي هذا الهوان والصغار ويقع به ما وقع من الحبس والعار بعد أن يقف موقف التهمة والاجرام ويحل به ما يحل من التعذيب والايلام

(المحامي) ـ اني أهنئك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده . وقد مضى مني الدفاع وبقي عليك الدفع

قال عيسى بن هشام ـ ومازال المحامي عاكفاً علينا يطالبنا بالاجر. والباشا يعده لآخر الشهر . حتى يأتيه بعض خدمه وأتباعه . بمال من عقاره وضياعه . والمحامي يأبى التسويف والامهال . والا الدفع في الحال :

(المحامي للباشا) ـ أتظن ان هذه الوعود . تقوم لدينا مقام النقود . في بلد كثر فيه الانفاق وزادت الضرورات . وقل فيه الربح كما قلت المروءات . وصار الدرهم أعز عند الاب من بنيه . وعند الابن من أبيه . ولقد تعبت في القضية تعبين باللسان وبالجنان . ولا أستريح منهما الا بنقد الاصفر الرنان . وانك لا تصرفني ـ وان كنت محمود

الخلق ـ بالوعد . ولكنك تصرفني ـ وأنا أحمد ـ بالنقد . وانى لا أريد أن أسكن فى بيت المتنبي :

أنا الغنيُّ وأموالى المواعيد

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية . والفكاك من بلية ببلية . فذلك مالا يأتيه العقلاء . ولا يرتضيه الامراء

قال عيسى بن هشام — ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلفظ . من شدة الحنق والتغيّظ . وقفت بينهما وقفة الاريب . وتوسطت توسط اللبيب . فنلت بلطف الالتماس والرجاء . رضاء المحامي بالمهلة والارجاء الى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر . الى الغنى واليسر . وقلت لهُ ما يقال فى باب المروءة والهمة . من وجوب الحنو على من يقع فى مصيبة أوملمة . وأنَّ مَن تذكّر الدهرَ وغِيَرَه . والزمانَ وعِبَرَه . لانتْ عريكته . وطاوعتْ شكيمته . وليس بين صعود المرء ونزوله . وإشراق سعده وأفوله . وبين غناه وفقره . وصفوه وكدره . الا مسافة انقضاض القضاء . من رب السماء . فنظر الى الباشا نظرة الاحتقار والازدراء . وخاطبني بالانفة والكبرياء :

(الباشا) ـ لبئس الخدين أنت والقرين . كيف تسِمُني بسمة الفقراء . وتستعطف عليَّ قلوب الضعفاء . وأنا الأمير السريّ . والغني

المثرى . وأين ما ادخرته في عمري . واكتنزته في عصري . من مال وعقار . وفضة ونضار . وقصور وضياع وزخرف ومتاع . ولقد كان يضرب بغناى المثل . فان كنتَ جاهلاً بي فسَلْ . اذهبْ فأتني بخبر ما خلفت وأبقيت . وأثر ما جمعت واقتنيت . وكيف يخفى عليك وعلى المحامي مالى من الاموال والعقار . وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار . فانى يشهد الله ما تركت حيلة . ولا أغفلت وسيلة . في الحصول على الاثراء والغنى . حتى جمعت منهُ كثيراً مما تفرّقَ على الورى . فجعلته عدّة لشدّ أزرى . وأمانا لى من مصائب دهرى . وتركته ذخيرة لأبنائى وحفدتى . وميراثا لأعقابى وذريتى . ليكونوا من ذل الحاجة فى جُنّة . ومن نعيم العيش فى جَنّة . وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد . رفيع الذكرى رفيع العماد

(المحامي) — إنا لنعلم يا معشر الامراء والحكام انكم قضيتم الاعمار فى جمع الحطام واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم من دماء الارامل والايامى وانتزاع الاقوات من أفواه الاطفال واليتامى وكنتم سواء عليكم أحزتم المال من حله أم غيره

حله لم تبالوا بالضعيف المسكين ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البريء وبرّأتم الظالم فجمعتم لديكم من أثر ذلك ما فرقهُ الله على عبادهِ من رزق وماقسمهُ لهم من قوت ورضيتم بالوزر وطوقتم اعناقكم بالإصر ثم حرّمتم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه وحَرَمتموها من كل ماحزتموه ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ولم تؤدوا ما فرضهُ الله عليكم فيها من الحقوق ولم تطهروها بزكاة ولم تزكوها باحسان وأطربكم رنين الدرهم فوق الدرهم وصَمْتُ الدينار مع الدينار وأبدعتم ماشئتم فى وسائل وطرائق يأباها الله لعباده ويمقتها ويستبشعها الانسان ويستفظعها لسلب ما سلبتموهُ وكنز ما كنزتموه بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واجترأتم على الله فى أوامره ونواهيهِ وكلفتم العلماء بتأويلها على اهوائكم فأوّلوها لكم لانحصار الارزاق فى أيديكم واحتياجهم الى ما يقتاتون بهِ من فضلات عيشكم فالوزر عليكم وعليهم والـكنهُ عليكم أعظم وفوقكم أثقل . حتى اذا انقضى العمر وحلّ الأجل تركتم ماخلقتموه لِغِلمة من أولادكم وصبايا من جواريكم نشأوا بينكم على الحرمان ولم تثقفوهم بالتعليم ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم

وللأيام والليالى تهذبهم فكنتم في اعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز ـ كما يقال فى الاقاصيص ـ يحتالون لنقله بقتله فاذا استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم وفرقوا شملها فى أدنى من لحة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع فما هو الا أن يتسابق الدود والورثة فى احشائكم المدفونة. وأحشائكم المخزونة . فيسبق الورثة الدود . في الصدور والورود. فتذهب البَدرة وراء البدرة والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار حتى اذا لم يبق الا بيت السكن أتوا على ما فيه من الاثاث بيعاً وما فى أعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهناً ولا يزالون يُخلُون من البيت حجرة إثر حجرة والدائنون يدخلون فيه خطوة اثر خطوة الى أن يندكّ بناؤهُ ويعفو أثره ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه وهو يُشيّع منهم باللعنتين في الحالتين حالة الخلاص منهُ بالتشييع الى القبر وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم في خشونة الفقر

هذه أيها الامراء عاقبة ماصارت اليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم ويا ليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الاثم فى جمعها من دماء المصريين بانفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك

منهم كردّ بعض الحق الى أهله ولكن البلاء كل البلاء انها ذهبت جميعها الى أيدي الاجانب والغرباء . وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون اقواتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للاجانب يتمتعون به على أعين المصريين والمصريون أولى بالقليل منهُ . وما دفع بأعقابكم الى هذا اللِيان والتسليم الا ماورثوهُ عنكم من الاحترام لشأن الاجنبي والاحتقار لجانب المصري وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابًا للمصريين حتى شاركتم معكم الاجنبيّ في تلك الربوبية فغلبكم عليها واشركم مع المصريين في العبودية وتشابهت الموالي بالعبيد . وقد آن ان تعلم ايها الامير بان جميع أقرانك وإخوانك من ذوي الثروة واليسار في أيامكم قد اصبحت بيوتُهم خاوية على عروشها وأبصار أعقابهم شاخصة اليها فان اردت ان تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحثْ عنها تحت ثِفال [1] تلك الرَّحَي وقُلْ معي مايقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتي ثمَّرْتُ مالي وإنما ... لوارثهِ ماثمَّرَ المالَ كاسبهُ
يحاسبُ فيهِ نفسهُ في حياتهِ ... ويتركهُ نهبًا لمن لايحاسبهْ

---

(١) الثفال جلد يبسط تحت الرحي . والحجر الاسفل من الرحي

فياءَ بَثَ المدّخِر الجامع . ويا غبنَ المكتنز الطامع . ما كان أغناكم عن الجمع والادخار . وعن الحرمان فى الدنيا والخلود فى النار

(الباشا) - أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدّك فى اللوم والتعنيف وخرجت عن طورك فى العذل والتعزير وكان بودى أن أعطيك أجرك مضاعفاً ولا أشاهد منك هذه الجرأة علينا بسوء التقريع والتوبيخ . وربما تلت حقاً فى بعض ما تقول والرجاء فى غفران الله عظيمٌ وفى رحمته متسعٌ ولعل ما تخلل أعمالنا فى أيامنا من الحسنات يشفع لنا فى ما اقترفناهُ من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن فى اكتساب المعيشة والاحتيال لالتماس الرزق بعد أن ضاعت الاموال وذهبت من أيدينا الاحكام على نحو ما تروى وتحكى . وما أرى اضيق من الفرج الا أن أورد نفسى حتفها وأعيد لها حمامها فما أروَحَ ما كنت فيهِ من ظلام الرمس . وما أقبح ضياء هذه الشمس

(عيسى بن هشام) - ليس لمثل حالتكم غير الاسف منا والتوجع لكم فقد تمكن الاعتقاد فى رؤوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم أحياناً من ولاية الاحكام هو قياس مطّرد وصراط مستقيم لا مجال لكم سواهُ فى وجوه المساعي وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التى يجتني أهلها منها ثمر

الارتزاق والتكسب فاذا خلت أيديكم منها واعتزلتم الاحكام تقطعت بكم الاسباب وضاقت بكم السبل فى وجوه المعايش كما تصاب يد الصانع بالشلل فيتعطل عن العمل ويصبح كَلاًّ على كاهل الجميع يرجو الموت كما رجوتَ ويتمني راحة العدم كما تمنيتَ . وكأنكم أيها الحكام صنف فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون الا فوق ذهب العرش . أو فوق خشب النعش . وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه وهو فى ضيق الحبس . وضيق النفس :

ونحن أناسٌ لا توسّطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

ومعلوم لك ما فى هذه الصناعة صناعةِ الولاية والحكم من قلة ما يرفعه الصدر وكثرة ما يضمه القبر . وكان الأَولى بكم ان تكونوا كالناس فى معايشهم لكل انسان آلة يديه من صناعة أو حرفة أو مهنة يُحسن بها التعيش والارتزاق حتى اذا أنتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم فى بقية الأحياء من افراد الجمعية تنفعون وتنتفعون

(الباشا) ـ تالله ان ما قاسيته من الآلام أمام البوليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كان أقلّ همًّا وأدني شجنًا من مرارة هذا النصح والوعظ . وما الرأى عندكما وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم

يبقَ وقت للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعــة ولكنها لمن يجيء لا لمن يمضى

قال عيسى بن هشام ـ فأحزنتني حالة الرجل وأشفقت عليهِ فأخذت أتدبر له وأتفكر فى طريقة يتميش بها وكلما خطر لى فى ذلك خاطر خاب رجائى فيه حتى كدت أيأس من الحيلة والباشا ينظر اليَّ وأنا فى تفكرى تارة ويطرق للتفكير فى نفسهِ تارةً أخرى . ثم رأيتهُ قد انتفض من مكانه وأخذ بيدى يقول لى :

(الباشا) ـ قد وجدت والحمد لله باباً لسدّ العوز وكفاف العيش

(عيسى بن هشام) ـ ماذا وجدت

(الباشا) ـ كان من عادة الحكام امثالنا فى الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقرّبهُم من الله وتعتق رقابهم من النار بعمل صالح اتفقوا عليهِ كافةً وهو إقامة بناء لجامع أو كتّاب أو «سبيل» وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفاً عليهِ للانفاق من ريعها على طول الزمان وقد سلكتُ مسلكهم واتبعت سنتهم وخلّفت لذلك وقفاً عظيماً لا تناله أيدي الاعقاب بالإتلاف والتبذير فهلم معي نبحث على ما شيدتهُ ووقفتهُ

## ﴿ الوقف ﴾

قال عيسى بن هشام – وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف. للوقوف على تلك الاوقاف ونسائل العابر وابن السبيل. عن المسجد و «السبيل»: ولا سؤال المجدب عن الروض. والظمآن عن الحوض. فلم نجد من يرشد. إلى ما ننشد. وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأماكنها. والأزقة ومساكنها. ويقول كان هنا وكان هنا. وجل ما يقضي به إلهنا. وما زال يقاصر في خطواته. ويطاول من آهاته ويبكي لرسوم الاطلال والديار. بكاء صاحب عزة أو صاحب نوار[1]

فاسألنها واجعل بكاك جوابا  تجد الدمع سائلاً ومجيبا

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب. وترداد المجيء والذهاب. الى منعطف مضيق. في منتهى الطريق. فوقف الباشا هناك قبالة دور مهدمة. وجدران محطمة. ومسجد في فجوة منه حانوت خمار. وفي زاوية منه دكان عطار. وبجانبهما حوانيت متباينة الاوصاف. مختلفة الاصناف. فطفق الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه. ويخطىء حدسه تارة ويصوبه. فهداه طول النظر والتدقيق. وشدة الامعان والتحقيق. أن رأى شيخاً فانياً متربعاً في دكانه. متحيزاً

---

(١) نوار هي امرأة الفرزدق التي كان يتشبب بها

بمكانه . عليه علامات الانحلال والسقوط . وشارات الخذلان. والقنوط . وسيما الرضاء بالمقسوم . والتسليم للقضاء المحتوم . له جبهة كأنها من ورق البُرْدِيّ العتيق. تتلو فيها ما دوّنه الدهر من آيات الشدة والضيق. فخرج الباشا فى الحال من حال المتحير المتردد، الى حال الواثق المتأكد . فنادى صاحبَ الدكان عن بُعد . نداء السيد للعبد . فانتفض الرجل انتفاضاً عجيبا . وقصده ملبياً ومجيبا . فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية. إلا أن ملكا ينادي احد الحاشية. ووقف الرجل أمامنا وقفة الممتثل الخاضع. والمطيع الخاشع. فقال له الباشا بعد ان حدّد فيه نظره . واستجمع فكره :

(الباشا) — ألست أنت احمداً غالر كبدار المعدود من أهل حاشيتى. ألاَ تعرفنى من أنا

(صاحب الحانوت) — لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع بين ظهر الارض وبطنها لقلت انك سيدى وأميرى ويشهد الله انى كلما أمعنت في وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى ويندهش لبى لاستحكام الشبه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) — انى انا سيدك وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من ايام السبق والرهان

(وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة فوقع الرجل منكبا على الارض من شدة الدهشة يقبل قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع ويقول فى بكائه وشهيقه) :

(صاحب الحانوت) ـ كيف بالحياة بعد الممات. لَحَقٌ أنت احدى المعجزات . وليس ما أراهُ بغريب فقد شاهدت فى هذا العمر الموجز ما لا تحيط بوصفه الاقلام ولا تتسع له بطون لدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب فلا يبعد بعد ذلك ان تشرق الشمس من مغربها وتُخْرِجُ الأَرْضُ أمواتَها من مقابرها

قال عيسى بن هشام ـ فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والحيرة ولا تغرب فى الاستغراب والتعجب :

على أنها الايّامُ قد صِرْنَ كلها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

واعلمْ أن القَدرة لا تعجز عن شيء فى الوجود ولا تحيط بها العقول . ثم قصصت عليهِ قصة الباشا منذ البداية فصاح الرجل يبكى ويتضرع ويقول ليت أمى لم تلدنى وليت القدرة التى بعثت الامير من بعد موتهِ نشرت معهُ زمنه وأعادت عصره وإلا فكيف لهُ بالعيش فى هذا الزمن . وما أولاهُ بالعودة الى أدراج الكفن .

ثم التفت الى الباشا وشرع يقص عليه ما مرّ بهِ من الحوادث

والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب :

(صاحب الحانوت) ـ ولم يَبقَ لك أيها المولى من أثرٍ يُذكر فى ثروتك ومتاعك . وأموالك وضياعك . وقد عشتُ دهراً وأنا متمتع بريع ما وقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك فما لبث الوقف أن تهدّم وتخرب بطول الترك والإهمال فوقعنا كلنا فى الفاقة والاحتياج وانقلب الكتاب مخزناً والسبيل خمارةً والمسجد مصبغةً كما تشاهد وترى وأصبحت أنا بيطاراً بعد أن كنت « ركبداراً » وأخذت هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتى فيها والتعيش منها وسبحان مقلب الاحوال ومبدّل الاشكال

(الباشا) ـ ألم يبق من ذرّيتى أحد يباشر هذا الوقف بنظره

(البيطار) ـ آخر العهد عندى كان بواحد منهم ذهبت اليهِ لأجل هذه الحانوت وأعلمتهُ بمكاني من أهل الحاشية فانتهرنى وطردني وأبعدنى وزجرنى ولكنّ الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح فترددت عليهِ مراراً فتخلص من ثقل الحاحى باحالتى على رجل افرنجىّ عندهُ يدبر لهُ ما بقي لديهِ من ثروة نضبتْ عينها ونزحتْ

بئرها فأحالني الافرنجي على صاحب الجمارة لأنه أصبح صاحب الأمر في أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئا بغير ارادته خوفا من الخصومة في المحاكم: فقصدت الخمار واتفقت معه على أجرة معينة وأقمت في هذه الحانوت أصرع الدهر ويصرعني وأطلب القوت ويعوزني وأستعجل الأجل ويمهلني وتعالى الله المتفرد بعزته المبدع في حكمته

(الباشا) ـ وأين هذا الولد العاق المخالف لإرادتي وهو يعلم ان شرط الواقف كنص الشارع

(البيطار) ـ هو مقيم الآن في «الاوتيل»

(الباشا) ـ وما الاوتيل

(البيطار) ـ «اللوكاندة»

(الباشا) ـ وما اللوكاندة

(عيسى بن هشام) ـ «الاوتيل» هو بيت معروف يعدونه لنزول من لا بيت له من الغرباء على أجر معين وهو في المعنى كالخان الذي تعرفونه في زمانكم

(الباشا) ـ هل وصل التدني بهذا الخائن إلى سكنى الخان وسبحان مصرف الاحوال ومغير الازمان. وكيف يطيب للمسكين

عيش على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعى الى الحياة على مالا أرغبهُ ولا أرضاه . تعذيباً لى على مافرطت فى جنب الله . أولم يكن عنده سبحانهُ فى الآخرة من عذاب النار . مايغنى عن التعذيب بالعار . فى هذه الدار . ربِّ إن الجحيمَ لا هْوَنُ عليّ فى العذاب والنكال . مما ألاقيه من الرَّزية فى المال والعيال :

فليت وليداً مات ساعةَ وضعهِ ولم يرتضع مِن أمّهِ النُّفَساء

(عيسى بن هشام) — ليست السكنى فى « الاوتيل » اليوم عن ذل وفقر . بل هى عن عز ويسر . فان النفقة فيه عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر . على أكبر قصر . بجواريهِ وخدمه . وأتباعهِ وحشمه . وقد دعا أولادَكم الى ذلك وَلوعُهم بإحكام التقليد للاجانب وإتقان الاقتداء بهم والسعيدُ المنعّم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقارَهُ ويرهن ضياعهُ ليتيسر لهُ الاقامة فى هذا الخان ومنهم من يتعذر عليهِ مفارقة أهله فيُؤْتى لهُ بالطعام من « الاوتيل » إلى البيت وعنده الطباخ فى أسفله والجوارى الطاهيات فى أعلاه

(الباشا للبيطار) — أرجوك أن تصف لصاحبى مكان « الاوتيل » الذى يسكنهُ ذلك الغلام فانّ بى حاجة الى لقائه

(البيطار) ـ كيف تخاطبني أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر في خدمتك ان تأمرني بما تشاء وهل تظن أني أفارق ركابك أو أزايل مَعيّتك مهما تقلبت الاحوال وتبدلت الأزمان فهلم منك الامر والاشارة وعليّ السمع والطاعة

﴿ أبناء الكبراء ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ودعاني الباشا للسير معه. وهو يكفكف أدمعه. وتبعنا البيطارُ من خلفنا بخطاه الثقيلة. وعصاه الصقيلة. فقد صقلها طول التوكأ والاستعمال. وتعزّى بها في السير والانتقال. عن ظهور الخيل ومتون البغال. الى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة. من الفنادق الشهيرة. فهال الباشا ما رآه من ضخامة البناء. وفخامة المنظر والرُواء. وما لقيه من ادب الخدم والاعوان. ورشاقة الوُصفاء والغلمان. فتخيل أننا أخطأنا الابواب والمداخل. فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل. وتقدمت للسؤال والاستخبار. وقد خلّفنا البيطار في الانتظار. فدلّنا أحدُ الخدم عن رَقْم المكان الذي يسكنهُ الامير. بعد طول التردد والتفكير. فما وصلناه حتى دفع الباشا بيديه دَفّتي الباب. لم يلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب. فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء. وأعقاب الكبراء. مختلفين

فى الجلوس . حاسرين عن الرؤوس . ففريق منهم عاكفون على لعب القمار . وفريق ينظرون فى صور خيل المضمار . ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نَصَفٍ لا عجوز شوهاء[1] . ولا فتاة حسناء . تجتاب الحسن بافراط التأنق والتفنن . فى وجوه التصنع والتزين . فيكاد يضىء وجهها بسَنا العقود والقلائد . ويتلألأ جبينها بلألاء الجواهر والفرائد . وفى وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح . فى الاباريق والاقداح . وبجانبها مِنْضَدَة[2] . عليها آنية مُنَضَّدَة . وفوقها الدواة والقرطاس . ويراعة مرصعة بالماس . وكتبٌ أعجمية موشاة بالذهب . لا أدرى إن كانت فى اللهو أم فى الادب . وعلى الارض أوراقُ أحكامٍ منشورة . وجرائدُ تحت الاقدام منثورة . لم يُفضَض عنها ظرف . ولم يُقرأ منها حرف . وسمعناهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون اللغة التركية أو العربية . الا ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد ان يبدلوا القاف . بالكاف . وينطقوا بالحاء . كالهاء . ولما رأونا ظهر منهم العبوسُ والقطوب . وبدا عليهم انقباضُ الصدور والقلوب . وانبرى من جانب المرأة شاب فأسرع نحو الباب . فخاطبنا بعبارة

---

(١) النصف المرأة الوسط بين الحدثة والمسنة

(٢) المنضدة شىء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت

فرنسوية . ولثغة باريسية :

(الشاب) ـ كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) ـ دعا الى ذلك شوقُ الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) ـ لست أفهم لك كلاماً فصرح لي وبيّنْ

(عيسى بن هشام) ـ فلان يسأل عن فلان

(الشاب) ـ إني أنا فلان ولكن منْ فلانٌ الذى يسأل عني

(عيسى بن هشام) ـ هو جدّك الاكبر أحياه الله بعد مماته وبعثهُ من رقاده وكان من أمره اني كنت أزور المقابر ذات يوم من الايام . . . .

(الشاب) مقاطعاً مستهزئاً ـ اذهبْ عني فلست أسمع لهذا الكذب والخَرَف وليس لي اليوم من جدٍ ولا والدٍ ولا أنا ممن يصدق بحديث البعث في الآخرة فكيف برجوع الموتى الى الدنيا . تعالَوْا أيها الاخوان فاعجبوا معي واضحكوا مما أسمعهُ من هذا الرجل الذى يخاطبني وانظروا الى هذا «الباشِبوزق» الغليظ الذى بجانبه فهو يدّعي انه من آبائي وأجدادي بعثه اللهُ ليطالبني فيما أظن بما ورثتهُ من الاموال وينازعني في نظارة الاوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم لم يكتفِ الدهرُ بتكدير عيشنا وتعكير حياتنا بمطالبة أرباب الديون

حتى بعث الاموات من قبورهم ليطالبونا بمواريثهم وأموالهم ألاَ ترونها أيها الخلان انها أبدع نكتة فى أواخر القرن

قال عيسى بن هشام - فاستغرق الجميع عند ذلك فى الضحك واستلقوا من القهقهة وكلما سألنى الباشا عن مكان حفيده واستفهم منى عما يجري معى من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيء مما يقال ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم نادوا بالخادم ليأمروهُ بطردنا وإخراجنا . وحانت فى هذه الاثناء إلتفاتةٌ من الحفيد بين دوّراته وحركاته فلمح احد قرنائه واخوانه قد انزوى بتلك الخليلة . التى هي عندهم كالحليلة . يلاعبها وتلاعبه . وينازلها وتداعبه . فانقضّ عليهما كالصقر الأجدل فاستمر بينهم الجدال واشتد الخصام والتفّ حولهم الجمع وسمعت الحفيد يعتب والصاحب يعتذر والمرأة تبكّت وتؤنب وتقول لعاشقها : «ليس لك مثل هذه الجرأة فى العتاب والملام ولا يأتى ما تأتيه من الحدة والتهور فى الغيرة الاّ من كان قائماً بحاجتى مجيباً لرغبتى وقد طلبت منك بالامس ان تشترى لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من اوربا فى البريد الاخير فسوّفتَ وما طلت بعد ان اجبتَ ووعدتَ واعتذرت بالاعسار والضيق ثم بلغنى اليوم انك اشتريت

فرساجَوَاداً بمقدار عظيم من المال فكيف تقصر فى حاجتى مثل هذا التقصير وتبغي منى الاقتصارَ عليك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من أصحابك واخوانك»

ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها والعَرَق يتساقط من جبينه والوجد يقطع أنفاسه : «تا الله ما اشتريت شيئا ولكن بعتُ اشياءً لأشترى لك العِقْد بثمنها ولا يغرّنكِ مايقال لكِ عن ثروة هذا الصاحب الدنئ الخائن وعن قلة اموالى ورهن اطيانى فأنت تعلمين بمقدار الاموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئكِ به المحامي فى كل حين»

وما سمع ذلك الصاحبُ سبه بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب . وثارت به سورة الغضب . فتقدّم فلَعَنَهُ وشتَمه . ودفَعه ولَطَمه . فوعده الملعون الملطوم . بالمبارزة فى يوم معلوم

ثم علا هناك صياحٌ أيضاً فى مجلس القمار بين صديق وصديق . أحدُهما فى يُسرٍ والآخر فى ضِيق : وأخٍ يبغى الاقتراض من أخيه : ومُفلسٍ يطالبُ مُيسّراً بدَين لا يؤدّيه . وانكشفَ الجدال كذلك عن الضرب واللكم . وانتهي النزاع بالصفع واللطم

واشتبك خصام آخر فى ركن المكان : بين أهل السبق والرهان .

هذا يقول فرسي سابق . وفرسك لاحق . وذاك يقول «ركبداري» حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادي شاهق . وأنت الآن مقرٌّ معترف . بأن الوزن بينهما مختلف . واشتدت المنافسة والمنابزة . وجرى بينهم حديث المبارزة . كل هذا والمرأة تنسحب من حلقة الى أخرى . تسحبُ الحية والأفعى . فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها . وتشعلها طوراً لخبث نيتها

ورأيت الأجدرَ بنا أن نتركهم على هذه الحال فجذبت بضُبْع الباشا وخرجنا من ذلك المكان وأسرعت به منحدراً الى الطريق فسألني عن تفصيل ماكان وجرى فترجمت لهُ شرح الحال والمآل فاحتدم غيظه واضطرم حنقه فلم يطفئه الا ما نلته له في آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو يتابع زفراته : لعل القدرة تكشف عني هذا المصاب . وتريحني المبارزةُ من الأبناء والأعقاب . فقلت في نفسي ان أبناءكم لم يرثوا منكم اخلاقكم . كما ورثوا عنكم أموالكم . وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والانتساب . ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب . ولا يأبهون لكشف العار . وأخذ الثار . والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتُمحى بالنهار

وتذكر الباشا فى طريقهِ شدة حاجتهِ الى وفاء ماعليه من الاجر للمحامى فالتفت الى البيطار يسألهُ :

(الباشا) ـ هل بقي أحدممن كانوا حولى من الخُلَطاء والأقرانِ أهل النجدة والفتوّة وأصحاب الهمة والمروّة

(البيطار) ـ لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) ـ إبدأ بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم .

قال عيسى بن هشام ـ فسرنا الى حيثُ أشارَ والهمومُ تفترسُنا . والغموم تخرسُنا . والاكدارُ لاتفارقنا . والاقدار لاتوافقنا

﴿ كبراء العصر الماضى ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه . وبقية أخلائه واصدقائه . فانتهى بنا طول المسير . الى بيت ذلك الأمير . وكأنهُ ميدان في اتساعهِ . وحصن فى ارتفاعهِ . ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلم على الخدم وحياهم . ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتجهم والعبوس . انهُ فى قاعة الجلوس . فخطونا فى بحبوحة الميدان . فرأينا فى وسطهِ شجرة كثيفة الاغصان حَنَي قوامَها تقادمُ الازمان كانها الثكلى حلت شعورها

فى مأتم الاحزان. وفى ظلها فرس يحنّ من النشاط والاراح وبجانبه كبشُ ضأنٍ للنطاح . وحولهما ديكةٌ نزالٍ وضراب . ظنَايبُها مسنونة كالحراب :

فَحُمْرٌ وسودٌ حالِكاتٌ كأنَّها سَوامُ بنى السَّيدِ ازدهتهُ القوائمُ(١)

يُزانُ لديها الطعنُ فى حومة الوَغَى إذا زُيِّنتْ للماجزين الهزائمُ

وفيها إذا ماضيَّعَ النِكْسُ غيْرةً تُصانُ بها المستصْحَباتُ الكرائمُ(٢)

ثم وصلنا الى قاعة مشيدة البنيان . فسيحة الاركان . فى أحد جوانبها سلسبيل. يسيل ماؤه من أفواه التماثيل. والارض مفروشة بالبسط الفارسية . وبجلود الضوارى الوحشية. والحيطان مستورة بأنواع السلاح . من خناجر وسيوف ورماح . وفوقها عدة صفوف. من الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأوانى الصينية القديمة. مع عيدانٍ للتدخين . من اغصان الياسمين . فخلعنا نعالنا . وتقدمنا أمامنا. فوجدنا الامير ومن معه جلوساً متربعين منصتين مستمعين. يُضِيء فى وجوههم نور الشيب والوقار . وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار فانقطع الحديث عند دخولنا . بردّ سلامنا . ولكن

(١) السوام الابل الراعية وبنو السيد قبيلة تكثر فيها الابل السود والحمر

(٢) النكس الرجل الضعيف الدنىء

مالبث أن اتصل ما انقطع من الكلام . بعد رجع التحية ورد السلام.

ولما استقر بنا المكان همستُ فى أذُن البيطار أن ينبئني بأسماء الحاضرين فقال لى : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو رفيق مولانا الباشا فى البيت الكريم الخديوى وقد اعتزل الاعمال واعتكف فى آخر عمره يتعبد ويتهجد ويسلك طريق النسك والزهد ويتقرب الى الله بدوام القيام والقعود . وطول القنوت والسجود . وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قَعَدَة المشايخ وقُوّام أهل الطريقة وطوّاف الآفاق من سكان الاماكن المقدّسة رجاءً ان يغفر الله له ما تقدم من الذنوب وأن يُلحِقَه بالصالحين من أوليائه . وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء الكِرام فى مجلس الاحكام . والذى عن جانبه عالم من جلة العلماء الاعلام والمشايخ العظام . وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادى المشهور فى الوقائع والفتوح . والذى بعده هو فلان من كِبار المديرين السابقين . وأما الذى تراه فى أُخرَيات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلى

قال عيسى بن هشام — ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرّفنيه نظرت الى الباشا فأدركت انه لا ينبغى المبادرة الى

كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم فأنصتُ مع المنصتين فاذا الفريق الجهادى يقول فى اتصال حكايته وروايته :

( الفريق ) — وكان « جنتمكان » محمد على باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره فى الدهاء وعلو الهمة وبُعْد النظر وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والامانة لخدمته فكان له من الكُفاة مَنْ خدموه بالصدق وافتدوه بالارواح وأذكرُ منهم المرحوم « محمد بك لاظ أوغلى » فهو الذى دبر له قطع دابر المماليك فى ساعة واحدة . وقد حكَى لى المرحوم أخى وكان حاضراً فى تلك الواقعة الهائلة أن المماليك لما رأوا ان المكيدة فى استئصالهم قد استحكم عقدُها واشتدَّ رِباطُها وأنهم أُحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص من شره فلم يقفوا له على أثر وأعياهم البحث والتنقيب لأن « لاظ أوغلى » أخفاه عنهم شديدَ الاخفاء وقام له فى ذلك الوقت — إنْ جاز التشبيهُ والتمثيل — قيامَ علىّ بن أبي طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة . وقد ورث المرحوم محمد على من ذلك الحين تلك الصيحة المزعجة التى لم تفارقه فيما بعدُ فكان يزأر فى مجلسه بزأرةٍ كزئير الأسود يتقطع من

هو لها نِياط[١] القلوب . وقد مات بسببها رجل افرنجى من المصورين كان يقعد له المرحوم لرسم صورته وكان بعض الحجاب نبّهه إليها لئلا يفزع فلم يستطعها مع ذلك لشدتها وأدركه الهلاك لساعته . فأين مثل « لاظ أوغلى » لمثله من الولاة وأين مثل تلك الصيحة فى مثله من الرجال

( عضو الاحكام ) — نعم وكان المرحوم محمد على فوق ما يقال ومايتصور فى دقة سياسته لتربية الرجال فى خدمته فكانوا كلهم طرازاً واحداً فى حسن الولاء وجميل الاخلاص وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق فى خدمته طول حياته . ومن ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال : « كنت أقرأ بين يدى المغفور له أوراقاً وأنا يومئذٍ كاتب من كتبة معيّته فدخل علينا سامى باشا فى أثناء القراءة ووقف معنا فسأله محمد على عما يريده فتلعثم تلعثمَ المتطالع لخروجى حتى ينفردَ به فيعرضَ عليه ماعنده . فقال له : قُلْ ما عندك فى الحال فانى لا أخفى عن « راغب » سراً من أسرارى ولا فرق عندى فى المنزلة بين نسلى وذريتى وبين كتبة معيّتى »

---

(١) النياط عرق نيط به القلب الى الوتين

فهل تعلمون يا قوم انه يقوم مقام هذه الكلمة فى جلب النفوس وجذب القلوب الى النصح والولاء في الخدمة إنعام بضياع او احسان بأموال أو تقليد لرتبة أو نشان . ولقد كان المرحوم راغب باشا كثيراً ما يقابل بين هذه الكلمة وبين ما كان يراه فى خدمة الولاة من بعده مثل المرحوم اسماعيل باشا مثلاً فانه كان يتركه وهو اذذاك ناظر المالية المصرية والاوراق بين يديه وينتقل الى حجرة أخرى للنجوى مع سمسار أو بدّال ويستمر «راغب» فى الانتظار الساعة بعد الساعة واشغال الحكومة الكبرى فى يده ينتظر بها انتهاء المناجاة فكان اذا قاس هذه بتلك ذهبت هذه بالاحسان والانعام وبقيت بجانب تلك تحز الصدر وتحز فى الفؤاد . فانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة فى تربية رجاله . وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو له الملك ويطيب له الحكم

(الشيخ العالم) ـ أصبت وصدقت وقد اطلعت فى التاريخ القديم على واحدة فى هذا الباب للمنصور العباسى تدل على براعته ودقته فى صناعة الملك وهى انه كان يأكل ذات يوم وبجانبه إبناه مع شيخ من قواد جيوشه ذهبت أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فمه بعض

الفُتات وهو يأكل والأميران يتغامزان عليه فالتفت اليهما الخليفة فرأى ما بينهما فمدّ يده فجمع ما سقط من ذلك الفتات فأكله فقام القائد يقول له : لم يبق الآن دينى أقدّمه لك يا أمير المؤمنين فأمرنى بما تريد »

(المدير السابق) — وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد على تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الاهالى وشفقته على الرعية وهى ان أحد المديرين أراد أن يفوق اخوانه فى الخدمة لينال مكانة عالية من أميره فجدّ فى تحصيل الاموال وتغالى فى طريقته فأخذ ما عند الاهالى من المال جملة واحدة فضج ضجيجهم واشتد صياحهم حتى بلغ مسامع ولىّ النعم فأمر باحضار المدير فلما وقف فى حضرته قال له : ادْنُ منى . فلما دنا منه أخذ بعنقه فى قبضة يده وصار ينتزع من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة حتى جمع فى قبضته خُصلةً من الشعر والمدير لا يجد لذلك من الألم الا أثراً خفيفاً ثم ان الامير انتقل الى لحية الرجل فانتزع منها خصلة دَفْعَةً واحدةً من جهة واحدة بمقدار تلك الخُصلة المتفرقة فنبع من تحتها الدمُ وصرخ المدير من شدة الألم فقال له محمد على « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الاموال اذا أنت اخذت من ههنا

درهماً ومن ههنا درهماً آناً بعد آن خفّ الوقع على الاهالى ولم يدركوا الألم وحصلتَ منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات والكميةُ واحدة والألم بينهما مختلف فإياك ان تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم الى الشكوى ويجرئهم على الاستغاثة »

وأعرف له واحدة أخرى فى حسن الإجمال والإدماج وذلك انه صدر امره الى المرحوم حسن باشا الأنجير هُويلي بتعيينه حاكما على السودان فامتنع الرجل وأظهر عجزه لجهله باللغة العربية وقال : كيف يمكننى ان أتولى أمور قوم لا أعرف حرفاً واحداً من لغتهم . فدعاه محمد على وقال لهُ : ليست معرفة اللغة مما تقتضيه ولاية الاحكام ولا هي أداة لازمة للحكم يختل بفقدها وما عليك فى منصبك هذا الا ان تكتفى بمعرفة كلمتين اثنتين من اللغة العربية يجرى بهما لسانك وهما «فلوس» «كرباج»

ولو تأمل المرحوم حسن باشا هذا فى ان محمد على حكم الامة المصرية الدهر الطويل وفتح البلاد العربية ولم يكن ينطق بكلمة عربية فى حياته ـ فما منعه ذلك من تسديد الحكم وتشييد

الملك ـ لم يعتذر عن قبول المنصب بمثل هذا الاعتذار

ومن النوادر التي يُستشهد بها فى هذا الباب ان محمد على أمر بأن يكون اهل العاصمة رديفاً عسكرياً ثم عين عليهم ضباطاً منهم بالرتب العسكرية فدخل عليه وفدٌ من أولئك الضباط وكان الذى يترجم بينهُ وبينهم المرحوم صبحى باشا فقال لهم محمد على كلاماً يقتضى الاجابة بالشكر عليه فقال لهُ متكلمُهُم : « نأشكْ يا افنـدينا » ـ وهى كلمة عامية منتشرة فى ذلك الزمن بين العامة يقولونها عند الاستحسان والاعجاب ـ فظهر الغضب على وجه محمد على لانهُ فهمها على اللفظ التركى : « نهْ أشكْ » فأسرع صبحى باشا بتفسيرها لهُ فاستلقى الامير على ظهره من شدة الضحك . فأية فائدة حينئذٍ من معرفة اللغة العربية للحكام اذا كان اهلها لايجدون فى مخاطبة اميرهم غير هـذه الالفاظ الساقطة السافلة . والذين تولوا زمام المصريين من الامراء والوزراء ولم يكونوا يعرفون لغتهم عدد ليس بالقليل

(الشيخ العالم) منشداً — :

فلا تُكثروا دكرَ الزمانِ الذى مَضَى　　فذلك عصرٌ قد تَقَضَّى وذا عَصْرُ

ورحم الله الماضى وأعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل وانى

لأراكم أيها الامراء مهما أسهبتم فى محاسن المغفور له وأفضاله . وأطنبتم فى حميد أخلاقه وخصاله . فلستم ببالغى حق الشكر. ولا موفين بجميل الذكر . ويكفيهِ من الحسنات التى يغنى ذكرها عن الاجمال والتفصيل . وتحكم لهُ بالسبق فى باب التمييز والتفضيل . انهُ كان يقرّب العلماء ويعظمهم . ويدنيهم منهُ ويكرمهم. ثم يقضِى حاجاتهم . ويتبرك بدعواتهم . ولقد رأيت لهُ رؤيا صالحة تحكم له فى أخراه . بأن له جانباً مع الله . وأنهُ نال جزاء الاحسان . بسكنى فراديس الجنان

قال عيسى بن هشام ـ وأقبل فى أثناء هذا الحديث رجل من اهل مكة المعروفين بالمطوِّفين أو المزوّرين فتقدم الى رب الدار فقبّل يدهُ والى الشيخ العالم فلثم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزأً من التمر ومشطاً ومكحلة وسبحة وشيئاً من الحناء ثم قرأ الفاتحة وخاطب الامير بقوله :

(المكيّ) ـ قد جئتك ايها الامير بالقطعة التى امرتنى باحضارها من الكسوة الشريفة وأتيتك بجزء من تمر النخلة المباركة التى غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة

(الامير للخدم) ـ علىّ بالمعلم مسيحه الباشكاتب ومعه الكيس

لتعطى هذا المسافر جائزته

( وحضر المعلم مسيحه ودنا من الامير فلما بصر بتلك الهدية المباركة بين يديه انكبّ على وجههِ يقبّلها واحدة بعد واحدة ويقول للامير وهو يتبرك بها ويتيمن ) :

( المعلم مسيحه ) — تالله ما أنقذ ابنى من عماهُ الا هذا الكحل المبارك ولا شفى والدته من داء الرعدة الا هذه الحِنَاء الطاهرة

(الشيخ العالم) — بعد أن ذاق التمر واستطابه — إيه إيه صدقت أيها الرجل ومن كان صائما فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة

قال عيسى بن هشام — فرأيت الباشا يتأفف بجانبي ويزمجر ويتململ ويتضجر ويهمّ بأن يتكلم . فالتفت صاحب الدار عندذلك الى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر . فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه الى الدنيا فنهم من صدّق ومنهم من كذّب فتنحنح الشيخ العالم وأشار فيهم باشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم ) — اعلموا انه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق حصر ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن اليقين . أن تنكر بعث الدفين . والرجوعُ الى الدنيا بعد الفناء .

أمر معلوم بلا امتراء . تخص القدرة بهِ من تشاء . ببركة الاصفياء والأولياء . وأقرب ما أستشهد لكم بهِ على ذلك من كتاب « مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء القطب الرباني والغوث الصمداني السيد عبد القادر الكيلاني » ما أرويه لكم بحرفهِ ونصه :

« ذكر في رسالة حقيقة الحقائق ان امرأة غَرِقَ ولدها في اليمّ وجاءت الى الغوث الأعظم وقالت: ان ولدي غرق في البحر واعتقادي جازم بأنك تقدر على رد ولدي اليّ حيا. فقال لها رضي الله عنهُ : ارجعي إلى بيتك تجدي ولدكِ في بيتكِ . فراحت ولم تجده . فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها الغوث أيضاً: ارجعي الى بيتك تجدي ولدك في بيتك فراحت ولم تجده. فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع فراقب الغوثُ وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعي الى بيتك تجدي ولدك في البيت. فراحت ووجدت ولدها في البيت فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبية: يا ربّ لمَ أخجلتني مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : ان كلامك حين قلت لها كان صدقاً في المرة الأولى جمعَتْ الملائكة أجزاءه المتفرقة وفي المرة الثانية أحييتهُ وفي الثالثة أخرجتهُ من اليمّ وأوصلتهُ إلى دارها . فقال الغوث : يارب خلقتَ الأكوانَ بأمر

« كُنْ » ولم يسبق زمان ولا آن وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لا نهاية لها وتحشرهم فى طرفة عين وجمعُ أجزاء جسدٍ واحد واحياؤه وبعثهُ الى دارها شىء جزئىّ فما الحكمة فى هذا التأخير . فجاء الخطاب من الرب القدير : اطلب ما تطلب فقد أعطيناك عوضاً من انكسار قلبك فتضرع الغوث ووضع وجههُ على التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى الطلب وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء فجاءه الخطاب كل من يراك يوم الجمعة يكون وليا مقرّبا وإذا نظرتَ الى التراب يكون ذهبا . فقال : يارب ليس لى نفع من هذين أعطنى شيئا أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت اسماءك مثل اسمائي فى الثواب والتأثير ومن قرأ اسما من أسمائك فهو كمن قرأ اسما من اسمائي »

ورُوى فيه أيضا عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعي رضى الله عنه قال : توفى أحد خدام الغوث الاعظم وجاءت زوجته الى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الارواح المقبوضة فى ذلك

اليوم فقال ياملك الموت قف وأعطني روح خادمي فلان (وسماه باسمه) فقال ملك الموت : انى اقبض الارواح بامر إلهي وأؤديها الى باب عظمته كيف يمكنني ان أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى. فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فبقوة المحبوبية جر الزنبيل وأخذه من يده فتفرقت الارواح ورجعت الى أبدانها . فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليك عبد القادر فبقوة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الارواح فى هذا اليوم . فخاطبه الحق جل جلاله : يا ملك الموت ان الغوث الاعظم محبوبى ومطلوبى لم لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الارواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت »

قال عيسى بن هشام — وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفض قائما يقول لهم والغضب بادٍ على وجهه والغيظ يتقد فى صدره :

(الباشا) — اعلموا أيها الاخوان ان مغفرة الرحمن وسكنى الجنان لا تنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن

بالأوراد وما تُكتسب الدَرَجة الرفيعة عند الله الا بالعدل والاحسان وفعل الخير واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله . وقد غرني في دنياي ما يغركم الآن فكنت أسمع قبل مماتي من مثل هذا الشيخ العالم ما يهوّن عليّ ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكانا على نهارٍ أصومهُ . وليلٍ أقومهُ . وحرزٍ أحمله . وأثرٍ أقبّله . فنمتُ عن عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف فلما توفاني القدير العليم وسكنت في حفرة القبر علِمتَ ما لم أكن أعلمُ فلم يغنني ذلك وحده من الله شيئا . وما خفّف عليّ أهوالَ القبر وهوّنَ عليّ سؤال الملك الا حسنة واحدة كنت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرتهُ وهو في يد الجلاّد بين السيف والنطع . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى الله في عباده وإفشاء البر والمعروف في خلقه ولا تُطيعوا النفسَ الأمارة بالسوء فتركنوا الى الاغترار بالامل . وتطلبوا المغفرة بلا عمل . بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل . وتذكروا قول الله الأجلّ : « ومَنْ يَعملْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يرَهْ » واعتبروا بقول عليّ رضي الله عنه : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وكم من قائم ليس له من قيامه الا السهر والعناء » .

واسمعوا لقول حكيم الشعراء

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

(الشيخ العالم) — انى لا إخالك أيها الرجل شيطاناً فى زى انسان وزنديقاً يتستر بدعوى النشور من القبور . تعساً لهذا الزمن ما أكثر أضاليله وبؤساً له ما أعظم أباطيله ولم يبق علينا من مدخرات عجائبه الا ان يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع

(صاحب الدار) — للباشا سألتك بالله أن تخبرنى بأية لغة كان سؤال الملكين لك أبالعربية أم التركية أم السريانية فان هناك اختلافاً وأقوالاً بين العلماء .

(الشيخ العالم) — ناشدتكم الله ان تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه فانه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال عيسى بن هشام — فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغلى ويستعيذ ويستعدى فانخرطت وراءه وأنا أذكر قول عمر رضى الله عنه فى مثل هذا الشيخ الغليظ البدين « ان الله يبغض الحبر السمين » وأردد قول أبى تراب كرم الله

وجهه « أشكو الى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً ليس فيهم سلعة أبوَرَ من كتاب الله اذا تُلِيَ حق تلاوته ولا سلعة أنفقَ بيعاً وثمناً من الكتاب اذا حُرِّفَ عن مواضعه ولا عندهم أنكرَ من المعروف ولا أعرَف من المنكر »

ولَحِقَ بنا البيطارُ في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقيماً في المجلس ينادياننا فوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له :

( التاجر ) ـ أشهد الله أيها المولى انني مصدق بأمرك وليس بعد العيان من برهان وما أخطأَ نظري فيك فأنت سيدي الباشا بعينه وأنت صاحب اليد التي أتذكرها طول عمري . وما بي من نعمة فمنك وما أصبحتُ فيه من ثروة فبيُمنك وفضلك ولستُ أنسى أنّ أصل شهرتي واتساع تجارتي هو انك جلست في دكاني مرة عند ما عثرتْ بك رجلُك وأنت تقصد زيارة الحسين فارتفع بتلك الجلسة قدري واشتهر ذكري وأقبل عليّ الناسُ من دون التاجر لتوهمهم فيّ ان لي برحابك صلة وبجنابك نسبة فأصبحت ولله الحمد في غنى متسع ومال كثير وقد بلغني من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة الى الدراهم لأجرة المحامي التي جاءت بك

الى هذا المجلس ولكنك أنفتَ من ذكرها عند ما غضبتَ لله . وأنا أتضرع اليك بخالق الخلق ان تتنازل فتقبل مني ما تسد به حاجتك وتخلص به من مطالبة المحامين

( وأخرج التاجر كيساً مملوأً فقدمه الى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد فأخذه الباشا وقال له ) :

( الباشا ) — انى اشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله لك حسن الجزاء فهلمّ اكتب لك صكاً بالمال لأردّه اليك عند استرداد أوقافى

( التاجر ) — حاشا لله ان أكون من أهل هذا الزمن الذين اصبحوا لا يثق بعضهم ببعض فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا الصاحب صاحبه ولا الجار جاره على درهم واحد الاّ بعقود وصكوك بل أنا لا ازال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان دون احتياج الى تحرير الاوراق وتسطير الصكوك . وما يكون الاستيثاق الا عند توهم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام — فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لى : انصرف بنا الى المحامي نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب

الى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعي يطالب لنا بحقنا . فما نخرج من قبضة محام . الا الى قبضة محام . ونسأل الله السلامة فى الختام

## ﴿ المحامي الشرعي ﴾

قال عيسى بن هشام - وأخذتُ طريقي مع رفيقي أنشدُ صاحباً أسترشده . فى محام شرعيّ أقصده . وبينا نحن نسير . ونسأل الله التيسير . اذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ما خطْبُك قلت قضية . فى المحكمة الشرعية . فاطرَقَ الخبر سمعَهُ . حتى أجرى دمعهُ . وهوَّلَ الامرَ وهَوَّلت . وحَوْقَلَ وحوْقلت . ثم قال لقد وقعتُ قبلك فى هذا البلاء . ولمّا تَتِمّ لى النقاهةُ من الداء . وأنا أنصح لك إن كنت مَدَّعياً أن تترك دعواك . وتصبر على بلواك أما إن كانت الدعوى عليك . فليس الخيار اليك . ولاَ مردَّ لحكم القضاء . بتدبير الآراء . فقلت للضرورة احكام . فأرشدْني لا نتخاب محام . يكون مشهوداً بعدالته . مشهوراً بطهارته . بعيداً عن خُلْف الوعد . بريئاً من خُلُق الوغد (١) . لا يتفق مع الخصم ولا يسرق من «الرسم» .

---

(١) الوغد الرذل الدنيء

قال اطلبْ من انواع المحال. أن يحمل الذّر الجبال. ولا تطلب في محام اجتماع هذه الشروط. فينتهي بك الأمر الى اليأس والقنوط. ولَمحاولةُ الارتقاء فوق متن العنقاء. أيسرُ من ذلك مطلبا. وأوسع مذهبا. والمحامون الشرعيون — حماك الله — يستوون لدي الاختيار. كأسنان المشط وأسنان الحمار. بل هم جميعاً كحمارَى العِبادي قيل له أيّ حماريك شرّ قال هذا ثم هذا. وأُقسم لك بخالص الود. أني لا أثق منهم بأحد. وكيف تكلفني أن أنتقي لك ذئبا من الذئاب. وأحمل على كاهلي عبء اللوم والعتاب. فأعفِني من هذا الاختيار والانتقاء. عافك الله من جميع الأسواء. ثم ما لبث أن خلّفني ومضى وتركني على مثل جمر الغضى. فسرت كئيبا حزينا. أبغي سواه مرشداً ومُعينا. ولمَّا لم أجد من أصحابي مَنْ يتكفل على عهدته. باختيار محام يوثَق بذمته. قصدت أحد العالمين عندي بكثرة الخصومات. وطول المحاكمات. فكاشفتهُ بطَابِيَتِنا. ليكشف من مصيبتنا. فقال اعلمْ ان المحامين الشرعيين أجناس وصنوف. فمنهم المبصر ومنهم المكفوف وفيهم — كتب الله لك السلامة — صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة. وأنا أدلك على أهونهم شرا. وأقلهم ضرّا. وأخفهم رزيةً وبليـة. وأكثرهم علما بالحيـل الشرعية.

فعليك بفلان وبيته معلوم . فى منتهى «حارة الروم» . فقصدنا البيت نشق طرقاً معوّجة . ونخترق ثنيات مزدوجة الى ان انتهينا الى باب دار . كأنها مطلية بالقار[1] . تسوّرت باكوام من الاقذار . وتلفعت بتلال من الأوضار . ورأينا عند مدخل الباب . صبية يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تجمّع على وجهها من الذباب . مثل البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب . ولما تخطيناهم غشيتنا رائحة المرحاض . فاستندنا هناك على هضبة أنقاض . بجانبها مذودٌ أتان . تزاحمها عليه أوزّتان وبطتان . ثم اهتدينا الى حجرة فى جهة اليمين . فرأينا أمامها فرّاناً ينادى : «العجين» «والاجرة» . فسألناه عن رب الدار فأشار الى الحجرة . فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطى بالغبار والحصباء . ومتكئاً تعرّى من الفراش والغطاء . وفى زاوية من زوايا المكان . سراجٌ لا ينفذ نوره من تكاثف الدخان . وفى أعلى رفوف الرواق . أحمالُ كتب وأوراق . قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد . وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد . وفوق الارض زجاجات مطروحة من المداد . وفى بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب الاولاد . وبصرنا برجل :

(١) القار الزفت

تغيَّرُ حِناؤهُ شيْبَهُ فهل غيَّرَ الظهرَ لما انْحنى

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة . وعن يساره امرأة كأنها السِّعلاة (١) . فسمعناه يقولُ لها فى تسبيحه : « أتستكثرينَ ـ أدرَّ اللهُ عليك خيرَه . وأبدَلَكَ زوجاً غيرَه ـ ما أخذته منكِ لاستنباط الحيلة فى التفريق . واستخراج الحكم بالتطليق . فابعدت عنك زوجاً تكرهينَه . لتتبدَّلى منه زوجاً تُحبينه » . ثم انه استحسَّ بدخولنا من ورائه . فارتدَّ الى اتصال تسبيحه ودعائه . وانتفضت المرأةُ فتنقبتْ بخمارها . وتلفعت بإزارها . وخرجتْ وتركتنا مع رجل يخدع الانام بطول صلواته . ويتلو سورة الأنعام فى ركعاته :

اذا رامَ كيداً بالصلاةِ مقيمُها فتاركُها عمداً الى اللهِ أقربُ

وجلسنا مدة ننتظر خلاصهُ من هذا الرياء . وخلاصَ المسكينِ من صحيفته السوداء . وخلاصنا من هذا الكرب والعناء . فاذا هو قد وَصَلَ المغربَ بالعشاء . وكنا نشاهد منه فى خلال ذلك نظراتٍ مختَلَسات نحو الباب . كأنه هو أيضاً فى انتظار وارتقاب . الى أن دخل علينا غلامٌ يصيح به : الى متى هذه العبادة . فقد بَلِيَتِ السجادة . وحاجاتُ الناس موكولة اليك . وقضاء مصالحهم موقوف عليك .

(١) السعلاة الغولِ

وهذا دولة «البرنس» ينتظرك فى القصر . منذ العصر . دعْ مدير الاوقاف . ونقيب الاشراف . » فلم يعبأ المصلّي بهذا الكلام . بل جهر بالآية من سورة الأنعام : « قُلْ إنّ صلاتى ونُسُكى ومَحياىَ ومماتي لله رب العالمين لاشريكَ له وبذلك أمرتُ وأنا أوّلُ المسلمين » . فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق . واشتدّ بنا الضجر والقلق . فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء . ولهذا التسبيح انقضاء . وهممْنا بالقيام . فالتفتَ الشيخُ للغلام . وأشبعه من التأنيب والملام . ثم حيّانا بألطف سلام . وقال بارك الله فيكم وعليكم . وأنا فى الخدمة بين يديكم . فقلنا علمنا أنك رجل عدلٌ عف . فجئناك لقضية فى وقف . فقال الغلام أتطلبون رَيْعَه . أم تريدون بيْعَه . فقلت سبحان الله وهل تباع الاوقاف . قال نعم ويباع جبل قاف . ثم تنحنح الشيخ وسعَل . وبصَقَ وتفَل . وتسمّط . ثم تمخّط . واقترب منا ودَنا . ثم قال لنا :

(المحامى) — دَعُونا من هذا الغلام وقُولا لى ماحقكم فى الوقف وما شرط الواقف وكم يُقدّر ثمن العين لتقدّر « قيمة الاتعاب » بحسبهِ

(عيسى بن هشام) — ان لصاحبى هذا وقفاً عاقته عنه العوائق فوضع سواه عليه يده ونريد رفع الدعوي لرفع تلك اليد

(المحامي) — سألتك ما قيمة العين

(عيسى بن هشام) — لست أدري على التحقيق ولكنها تبلغ الألوف

(المحامي) — لا يمكن ان يقلّ مقدّم الاتعاب حينئذ عن الثلث

(عيسى بن هشام) — لا تشطط أيها الشيخ في قيمة الاتعاب وارفقْ بنا فاننا الآن في حالة عسر تقضي عليك بذلك

(الغلام) — وهل ينفع في رفع الدعاوى اعتذار بإعسار . ألم تعلم ان هذا شغل له « اشتراكات » وللكتبة والمحضرين « تطلمات » وأني لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى و كسب القضية بما يهون معه دفع كل ما يطالبه في قيمة أتعابه . وهل يوجد مثله أبداً في سعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة في استمالة محامي الخصم واستجلاب عناية القضاة

(عيسى بن هشام) — هذا والله كل ما يمكننا دفعه الآن من الدراهم ونكتب بما يبقى صكاً لحين كسب القضية وليس يفوتك شيء من ذلك مادام ربحها مضموناً لديك على كل حال

(المحامي) بعد أن استلم الدراهم يعدّها — أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما ادّخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة المسلمين . وعليك بشاهدين للتوكيل

(عيسى بن هشام) ـ وبأية طريقة يكون التوكيل

المحامى ـ يجب عليك ان تستحضر شاهدَين يشهدانِ أمام المحكمة بأن فلان بنَ فلان بن فلانْ وكّلَ فلان بن فلان بن فلان «فى المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفى المطالبة والدفع والاقرار وفى كل مايصح فيه التوكيل شرعاً وفى أن يوكل عنه فى الدعوى غيره وأن يعزله وان يفعل ذلك مراراً وتكراراً كلما بدالهُ فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة» وأنا أنتظر حضوركما غدا مع الشاهدين ومستند الوقف

(عيسى بن هشام) ـ ليس لدينا الان إلا شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه

(غلام المحامي) ـ هذه أول خطوة فى تكاليف القضية ومشاقها ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهد به بين يدى الحق

(عيسى بن هشام) ـ وليس فى يدنا أيضا مستند للوقف

(المحامى) ـ أما من جهة المستند فينبغي استخراج صورة من السجل «المصان» (كذا) وهذه خطوة ثانيةٌ فى متاعب القضية

قال عيسى بن هشام ـ وعند ذلك قَطَع الشيخُ المحامى كلامه

معنا واستقبل القبلة بوجهه وقام لصلاة العشاء فقمنا للانصراف وسرت مع صاحبى وأناغريق فى الافكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب . يرى القتل واجبا لأدنى هفوة وأقل سبب . فأصبح بفضل وقوعه فى هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتابعة لين العريكة واسع الصدر موطأ الكنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه فى يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذى يجعل دأبه البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم وازددت يقينا بأنه لا شىء أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالاخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأن أسوأ الناس أخلاقا وأنكدهم عيشا هم هؤلاء الأغمار[1] المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان ولم تهذبهم صروف الازمان ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على أن قال :

( الباشا ) ـ قلت لى ان المحامين الشرعيين فيهم صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة فهل تراهم جميعا على هذا النمط الذى

---

( ١ ) الاغمار جمع غمر وهو الجاهل الابله

شاهدناه أم بين الفريقين فرق .

(عيسى بن هشام) ـ اعلم ان الخيرة فى الواقع والحمد لله على كل حال فان فيهم تحت «الطربوش» . من هو أشد فتكاً من ضوارى الوحوش . وأعرفُ طربوشاً منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على انكار كلام نَطَقَ بِهِ فى مجلس كنتُ حاضرَهُ إرضاءً لأحد أرباب القضايا . وإغضاباً لخالق البرايا . واستهانة بحكم الشارع واعتماداً على قول الشاعر :

وإنْ أحلفُونِى بالطلاقِ أتيتُها على خيرِ ما كُنا ولم نتفرَّقِ

وانْ أحلفونى بالعَتاقِ فقد دَرَى عُبَيْدُ غُلامِى أنه غيرُ مُعْتَقِ

قال عيسى بن هشام ـ ومضت علينا الايام ونحن نقصد الشيخ المحامى فى كل يوم فلا نتمكن من لقائه فان ذهبنا اليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحكمة وإن ذهبنا الى المحكمة قيل لنا إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الامراء والكبراء حتى حَفيتَ الأقدام ومللنا الاصطبار فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الاخير من الليل فنصطاده عند خروجه وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانَهُ فتقدمت اليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنبُ فيه لكثرة مشاكل الامراء ودعاويهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة

فذهب بنا الى «كاتب الاشهادات» فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه من حمرة الحذاء فى رجله وزُرقة الجبة على كتفه وصُفرة الحزام فى خصره و بياض العمامة فوق رأسه :

تعدّدتْ ألوانُهُ كأنهُ قوسُ قزَحْ

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة المتوقف وقال إنه شاب صغير السن وانه وانه . . . فدل عليه غلام المحامى وألقى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره الى قاضى الجلسة لسماع الاشهاد بعد ان قال لنا الغلام : وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الاشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف يجب بعد هذا ان نقدّم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها وبِنْ «عملية» مَنْ هي ( يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها ) فخرجنا نبحث على أحمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا الى مطلوبنا فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا فقال انَّ عندى ورقة فيها نمرة الوقفية كنت تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الجهيد والزمن المديد لاثبات حقى فى ريع الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد الينا بالورقة فوجدناها

قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ولم يُذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل «العملية» فقصدنا غلام المحامى وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا العريضة وقدمناها لحضرة القاضى فوضع عليها اشارة لحضرة الباشكاتب ليتحرى عن مسألة «الشأن» وطلبوا مناشهوداً يشترط فيهم ان يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف وأن سواه وضع يده عليه فأدركتنا الحيرة فى الامر فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد أن قال لنا: وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية . ولما نظر الباشكاتب فى العريضة ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب «العملية» قال لنا انه لا يمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك وأنه لا بد لنا من انتظار السنين والاعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام: لا تحزنا فأنا أساعد على سرعة الانجاز وأتوجه معكما الى الدفترخانة ان شاء الله . وهذه هي الخطوة الخامسة فى تكاليف القضية » . وما زال الخبيث يعدّ لنا الخطوات . ونعدّ له فى كل خطوة دُريهمات . ونحن نسأل الله ان ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر . وأن يعجّل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر

## ﴿الدفترخانة الشرعية﴾

قال عيسى بن هشام وعكفنا زمناً نشتدّ في الطلب . والمحامي يشتدّ منا في الهرب . فلما طال علينا الأمد في ارتياده . ويئسنا من لحاقه واصطياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه . فرأينا الخبيث يُصعِّب في الامور والاحوال . لنسترضيه بالعطاء والنوال . وقال لنا أقول لكما الحق والحقّ أقول . إنه ليس من المتصوَّر المعقول . أن نهتدي في هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يحول في الخواطر والاوهام أن يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير وحي أو إلهام . الا بعد كرّ السنين ومرّ الاعوام وان اعتراكما بعض الشك أو الريب . ولم تصدّقا بظهر الغيب . فهلمّا معي أطلعكما على ما يزول معه اللَّبس . وتقتنع به النفسّ . فقيّدناه بقيود الترغيب والتأميل . وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليل . فانطلق أمامنا يَشِبُ ويَحجل . حتى دخلنا بيت السجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتّاب . ألفينا خُشُباً مُسنَّدة . على خُشُب مُوَطّدة . وهياكلَ تفترش الفراء . فوق الاقذار والاقذاء . لا تميز منهم وجه انسان من انسان . لغشوة البَصَر

من ظلمة المكان . فتذكّر الباشا عند ذلك ظلام الرمس . وكرّ راجعاً ينتظرنا فى ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى أذن أحدهم يكلمه . بما لا أعيه ولا أفهمه . فبادر الرجل بالنهوض والقيام . وساو بالغلام وأنا فى عقب الغلام فما خطونا بضع خطوات حتى حِيلَ بيننا وبين ضوء النهار . وتجللنا من حِندِس الليل بحجُبٍ وأستار (١) . فوقفت لا أبصر ولا أهتدى . فأخذ الغلام بيدى . وقد عميت عليّ وجوه المسالك . فى هذه المخاوف والمهالك . وسرتُ فوق أرض تَهَشُّ تحت القدم وتلين . كأنها مفروشة بالهشيم تلبّد فى الطين . وما زلنا نمشى فى أنحاء تلك المطمورة (٢) . على هذه الصورة . حتى تخيلتُ أنى فى قبور قدماء المصريين . أو فى هياكل الاسرار بمعابد الرومانيين . أو فى طريق الامتحان عند أحرار البنائين . فوَجَبَ القلب (٣) . من شدة الرعب . خشية أحبولةٍ نُصبت . أو مكيدةٍ رُتبت . ووَجمت . ثم أحجمت . وقلت للغلام ليس بيننا ما يوجب الاحتيال . أو يدعو للاغتيال . وماذا تريد منى فى هذا الغيهب (٤) . وليس معى من فضة ولا ذهب .

---

(١) الحندس الليل الشديد الظلمة
(٢) المطمورة الحفيرة تحت الارض
(٣) وجب القلب وجيبا رجف وصفق
(٤) الغيهب الظلمة

ولا من شيء يُستلب أو يُنتهب . فقهقه الفاجر ثم أقسم بالله وثنى بالطلاق. أننا نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولفائف الاوراق[1]. وقال كُنْ آمنا مطمئنا على نفسك. وسترى الحقيقة بعينيْ رأسك. وما كاد الشقيّ يتم لى هـذه العبارة . حتى عثرتْ قـدمى فى لفافة فوقعت على غِرارة . واذا بصائح يصيح من تحتها متبرّما متأففا . ويقول لى متغطرسا متعجرفا : ما هذه المشاوة يا عديم الابصار . ونحن لا نزال فى أديم النهار . فقمتُ متثاقلاً متساندا . وقلت فى نفسى منشدا :

دُجًى تتشابهُ الأشياء فيهِ فيَجْهلُ جنسُها حتى يَصبحا

ثم تأملت فاذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته. بذيل مئزره أو جبَّته. فتولانى الخوف والوجل وقلت مَنِ الرجل. فقال الغلام كاتبٌ من كتبة « السجلات » . ينبش عن أوراق فى سجل « الايلولات » فقلت وكيف يهتدى لذلك. وسط الظلام الحالك. فقال أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كالخفاش يبصرون فى سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الورَى هكذا لمَا حسَدَ العُمْيُ مَنْ يُبصرونْ

---

(١) الغرائر جمع غِرارة وهى الجوالق

ثم انعطفنا من ذات اليمين الى شبه قاعة. يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة [١] . واذا هو لُعابُ الشمس يسيل من ثُقْب [٢] في سقف ذلك الجُب. وهو يتموج بأنواع الجراثيم . تموُّج الماء بالهشيم [٣] . فخلتُ أن عجوز الفلك الدوّار . ـ أريدُ بها شمسَ النهار . ـ خَشيتْ أن تضلّ في ظلمة هذه المفازة. فاتخذتْ لها من لعابها عكازة ؛ تتوكأ عليها للاهتداء . وتدبّ بها في هذا العماء . فسحتُ على بصري . وأحدقتُ بنظري فأبصرتُ وماذا أبصرت. ونظرت وماذا نظرت :

ما إنْ سمعتُ ولا أرَاني سامعاً      أبداً بصحراء عليها بابُ

نعم رأيت فضاء متسعاً تَرَاكَمَ فيهِ من الأوراق الرثيثة والدفاتر البالية . مثلُ الربى الشاهقة والأكمات العالية . غير أن هذه تُثمِرُ وتُجنَى. وتلك تَمِثُّ وتَبْلَى. هذه تكون مخضرّة مخصِبة . إن جادها الحَيَا أينعتْ بالغضّ من النبات . وتلك سوداء مجدبة. ان بلّلتْها الرطوبةُ اهتزت باليابس من الحشرات :

---

(١) اليراعة الذبابة

(٢) لعاب الشمس شيء كأنه ينحدر من السماء اذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسيج العنكبوت

(٣) الهشيم نبت يابس متكسر

فالأرضُ تبسطُ في خدّ الثرَى وَرَقاً   كما تُنشَّرُ في حافاتِها البُسُطُ
والريحُ تبعث أنفاساً مُعطَّرَةً   مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ مُختلطُ
وهذه بَسطَتْ فوق الثرى ورقاً   لكنه للبلَى والعُثِّ مُنبَسِطُ
وريحُها تورثُ الاسقامَ ناشقَها   كأنهُ من ترابِ القبرِ يَستعطُ[1]

وما لبثتُ أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا. فى لمحة ذلك السنَا . فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقنَّعٍ بالاصفرار . وعينٍ مكتَحِلة بالاحمرار . وقد طوَى من خلفهِ الجبّة . ورفعها على ظهره كالجعبة . وفى حزامهِ دواة من نحاس أصفر . وبين طيات العمامة أوراق بالتواريخ «والنمر» . فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم . وقلت لذلك الغلام الاثيم :

(عيسى بن هشام) ــ هلمّ بنا أيها المراوغ الى الباب لنعود الي ضياء الحياة فقد يئست من أمرنا . وأنّي لهذا الكاتب أن يهتدىَ للبحث فى هذا الأُجّ القامس[2] . والليل الدامس[3]

(غلام المحامى) ــ لا تنكرنّ على مثله الاهتداء فى دياجي الظلماء ولا يهوِّلنك تشتُّت الدفاتر وتراكم الاوراق فهى مرتبة

---

(١) استعط الدواء أدخله فى أنفه

(٢) القامس البعيد الغور (٣) الدامس الشديد الظلمة

فى حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جده فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء «البوغاز» فى الاسكندرية هداية السفن عند دخولها بما علموه من آبائهم من مواقع الارض فى قاع البحر. ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث ولوصلنا الى الغرض

(الشيخ الكاتب) ـ نعم لا تنكر علينا بارك الله فيك اهتداءنا للبحث فى هذه الأوراق. والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة فى ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب فهي مقسّمة الى عدة سجلات منها «سجل الباب العالى» تسجل فيه الاعيان المبيعة غير الموروثة. ومنها «سجل القسمة العسكرية» تسجل فيه الاعيان المبيعة الموروثة. ومنها «سجل الايلولات» تسجل فيه الاعيان المحصورة من تركة تخصص أو تباع بالمزاد. ومنها «سجل الاعلامات» تسجل فيه المواد التي تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان. ومنها «سجل التقارير» تسجل فيه تقارير النظار وقفاً وغيره. ومنها «سجل الوقفيات» وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق . .

( عيسى بن هشام ) ـ سبحان الفاتح الوهاب . ومن يهديني الى طريق الباب

( الشيخ الكاتب ) ـ . . ومنها « سجل الديوان العالى » تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب . ومنها « سجل القسمة العربية » تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين . .

(عيسى بن هشام) ـ اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلمّ فقد ضاق بنا الوقت

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً ـ .. ومنها «سجل اسقاط القرى» يسجل فيه ما يأخذه الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى وليس يخفى أنه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبل السلطان وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الانواع ( وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) وكانت مراكزها فى جهات «باب الشعرية» و «قناطر السباع» و «جامع طولون» و «جامع قيسون» . .

(عيسى بن هشام) ـ يكفى أيها الشيخ فقد وجب الرحيل . ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) معدِّداً ـ . . وفى جهات «درب سعادة» و «باب الخرق» و «الصالحية» و «النجمية» و «أحمد الزاهد» و «البرشمية» و «مصر القديمة» و «بولاق» و «جامع الصالح» و «جامع الحاكم» . . .

(عيسى بن هشام) ـ تبارك مَنْ له الاسماء الحسنى . ومَنْ يُعيدنى الى الحياة الدنيا

(الشيخ الكاتب) ـ . . ثم «محكمة الباب العالى» وهى المحكمة الكبرى وقاضيها هو المسيطر على الجميع المُوَلّي من القسطنطينية . و «محكمة القسمة العسكرية» وقاضيها يعين كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى ويسمى «القَسام» وشغله المواريث بأنواعها فقط و . . .

(عيسى بن هشام) للغلام ـ لقد ملّ سمعي . وضاق ذرعي . فاخرجْ بنا وأنقذنى من شر هذه الدار . ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار

(الغلام) ـ لا تَضْجَر ولا تَقْنَط وأَنْظِرني قليلاً حتى أستنيرُ برأى الشيخ لعلنا نجد عنده حلاًّ للعقدة . وفرجاً للكربة . (ثم مال على

الشيخ منفرداً به فسمعته يقول له) :

(الغلام) ـ مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً وأصحاب القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرم

(الشيخ الكاتب) ـ مهلاً فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل فان لكتابتها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخِلَع التي خُلعت على كاتبها بقايا الى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان فدونك وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ وجئني بها نافعة تشفع لنا أجمعين والله ينفعنا بنفع المسلمين

(الغلام لعيسى بن هشام) ـ قد تيسرت الحال باذن الله ووصلنا الى معرفة اسم الكاتب الذي تُستخرج به الصورة . والرأى لك في هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام ـ ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجَهِرَتْ [1] عيني وسَدِرَتْ [2] فلم أبصر في الشمس عند الباب الا بعد التردد مراراً

(١) جهرت العين لم تبصر في الشمس (٢) سدرت تحيرت

بينها وبين الظلام . ولما التقيتُ بالباشا في الموضع الذى كان ينتظرني به سألني عن طول هذا الغياب فلم أرد أن أضيف الى مصائبهِ مصيبة اخرى بوصف ما كنت فيه بل كتمته إياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على ان يباشر وضع اسم الكاتب في الورقة ويعود في اليوم الثاني الى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية بعد أن نقدناه ما نقدناه

ثم دارت بعد ذلك علينا الايام ومضت الشهور ونحن نتردد على الدفترخانة تارة في صحبة الغلام وتارة بدونه الى أن حل الاجل وآن الاوان فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح الغواص بدُرّة التاج تحت تلاطم الامواج . ونهضنا معهُ الى الدفترخانة فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجدّ فحمدناه على همته العالية وصنعهِ الجميل فأخرج من تحت إبطهِ أوراقاً بالية متخرقة متآكلة لا تستوى بها ورقة مع أختها فيها سطور متقطعة وخطوط متوزعة لا يستطيع أن يحلها الآ من كان عريقاً في كشف الرموز وفك الطلاسم . فقلت له ان الاهتداء الى نقل صورة مفهومة من هذه الاوراق لأعظم مشقةً وأدهى

بلية من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة فقال لى ان كثرة التمود تيسر المسير وتهوّن الصعب وقد ورثتُ عن المرحوم والدي أيضاً قراءة هذه الخطوط وتلفيق مارث من أواخر السطور . والعبارة واحدة لاتتغير تقريباً فى كل باب من أبواب السجلات . ورأيته يستعد ليسترسلَ فى أبواب الشرح والوصف وخفتُ أن تشتد به نوبة الهذر والاكثار فودعناه وانصرفنا وكلفنا غلامَ المحامى أن يأتى لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها فطلب منا ان ندفع «رسمها» وأن نأتى بشاهدين يشهدان علينا باستلامها ووعدَنا بأنه ينوب عنا فى اجتلابهما بعد أن طالبَنا بالمكافأة الواسعة . على هذه الخطوة السابعة

﴿ المحكمة الشرعية ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ولما صارت فى يدنا الصورة . بعد تلك المواقف المذكورة . خطا غلامُنا الثامنةَ من خطواته . فى بعض روحاته الى المحكمة وغدَواته . فذهب الى كاتب « الطلبات » . لتحديد إحدى الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس . على أن تكون الجلسة فى يوم الخميس . وأنه حرر «طلباً»

لحضور الخصوم . فى الوقت المعلوم . فأقمنا أياماً نعالل النفس بالامل. حتى حلّ هذا الأجل . وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ المحامى ولقائه. بعد طول احتجابه عنا واختفائه. ورضى ان يتوجه معنا الى المحكمة. ليكشف عنا بيمنه كل مظلمة . فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعىّ . والحكم المرضىّ . والعدل المقضىّ . بوحي الاله وسنة النبيّ . حيث تقام منابر الهدى . وتشاد منائر التقى . وينبلج نور الحقيقة والعدالة . وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة . ويؤخذ من الظالم للمظلوم . ويُنتصف من الحاكم للمحكوم . ويُسار على الصراط السوىّ . فى الحكم بين الضعيف والقوىّ . — حيث تحد المواقف والاقدام . وتستقيم الاوامر والاحكام . وتغدو فيه الثكلى ربة الأيتام . أعزّ من الفارس رب الرمح والحسام . ويصبح الأعزل الشاكى . أقوى من المدجّج الشاكى[1] . ويتساوى لديه رب الشُوَيهة والبعير . برب التاج والسرير . — نعم حيث يكون المقعد الموروث . عن النبيّ المبعوث . وحيث يُعمل بالسنّة وآى الكتاب . فيُنتصر للذليل على العزيز . ويُقتدَى فيه تارة بسيرة عمر بن الخطاب . وأُخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقر المهابة والجلال .

---

(١) المدجج اللابس لسلاحه وكأنه تغطي به . والشاكي التام السلاح

ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والامانة . ومنبع العفة والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع

ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات . تجرها الجياد الصاهلات . وبجانبها الراقصات من البغال والحمير . عليها سُرُجُ الفضة والحرير . فحسبناها مراكب للعظماء والامراء . فى بعض مواكب الزينة والبهاء . وسألنا لِمَنْ هذي الركاب . فقيل لنا إنها لجماعة الكتّاب . فقلنا سبحان الملك الوهاب . ومَنْ يرزق بغير حساب . ونَحَوْنا نحو الباب . فى تلك الرحاب . فوجدنا عليه شيخاً حَنَتْ ظهرَه السنون . فتخطّته رُسُلُ المنون . قد اجتمع عليه العَمَشُ والصمّم . ولجّ به الخَرَفُ والسقم . وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من نوازل القضاء . ثم صعدنا فى السلم فوجدناه مزدحما بجملة أناس . مختلفى الاشكال والاجناس . يتسابّون ويتشاتمون . ويتلاكمون ويتلاطمون . ويبرقون ويرعدون . ويتهددون ويتوعدون . وأكثرهم آخذٌ بعضهم بتلابيب بعض . يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الارض . ومازلنا نزاحم على الصعود فى الدّرَج . والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج . حتى منّ الله علينا بالفرج . ويسّر لنا المخرج . فى وسط هذا الجمع المتلاصق . والمأزق المتضايق . ووصلنا الى القاعة السفلى . فوجدناه

عندها امرأة حبلى . تتقلب على الارض كالثعبان وتستشهد بالأهل والجيران . أنّ بعلها أنكر حملها . وحاولنا أن نخطو خطوة الى الأمام . فلم نستطع من شدة الزحام . وكيف بالتقدم فى عُباب موج ملتطم . ومنحدر سيل مرتطم . من نساء صائحات مُوَلولات . ونائحات مُعولات . ونادبات باكيات . وصارخات شاكيات . كأنهن قائمات فى مأتم على مدافن الاموات . تقرّحت فيه العيونُ وبُحّت الاصوات . وفيهن المُسْفرة والمتقنعة . والمضطجعة والمتربعة . والحاسرة عن الذراع والرأس . وأختها تُقليها فى وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن ثديَيْها . ترضع طفلاً على يديها . وغيرُها ترضع طفلين فى حذاء . وزوجُها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى آخذة بضفيرة ضَرّتها . ورضيعُها يتلهف على ضَرّتها . ومن بينهن مَن يتقدّمها طليقُها . ويتبعها عشيقُها . تُشيّع الاولَ باللعن والسباب . وتغمز الثانى بكف مزدانة بالخِضاب . ورأينا العقيلة المخدّرة مع « الأغا » . لا يستطيع أن يحميها فى حومة هذا الوغى . وشاهدنا فى الجمع جماعةً من فُجّار الخلعاء وتُبّاع النساء يغازلون كل غانية هيفاء . ويغامزون كل غادة غَيْداء.[1] ويتعرضون لفضّ النزاع . بين ذوات القناع . وفصل العناد والشقاق . بين الطاعنات بالاحداق .

---

(١) الغيداء المرأة المتثنية لينا

فتختلط غمزَاتُ الطرْف . بهمزَات الكف . فيزول ماهنالك من الجدال والخصام . ويصيرون جميعاً الى الحسنى والرقيق من الكلام . ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة . وعجائب الشناعة . رجلاً وامرأة يتسابقان فى ألفاظ الفُحش والهُجْر.(١) ويتباذآن فى أقوال البذاءة والنكر . وهما يتجاذبان فى أيديهما غلاماً . كأنما يحاولان له اقتساماً . ليأخذ كلٌّ منهما من أعضائه بنصيب . والغلامُ يبكى من شدة الالم والتعذيب . فاستعذنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم . وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأةً تنتحب وتقول . ونِقابُها بماء العين مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء . لما وصلنا الى هذه الحالة التعساء . فان الرجال يميلون لجنس الرجال . ويتناصرون لبعضهم على ذوات الحِجَال » . فاستعذنا برب المثانِى.(٢) وصعدنا فى السلم الثانى . فاذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل . أو خلايا النحل . وانتهينا منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة : هذا يصيح « الخبزَ والجُبن » . وذاك ينادى « الدخانَ والبُنّ » . وآخر يقول « الزبدةَ والعسل » . وبعضهم يردد « الفولَ والبصل » . وبائعُ الضأن يفتته

---

(١) الهجر القبيح من الكلام
(٢) المثانى آيات القرآن

بسكّينه جماجم الرؤوس. والثلاجُ يصفق با كوازه العرقسوس».
وهناك قهوة يدب فيها الشهود بالمشرات . كدبيب الحشرات .
فيعرضون أنفسهم على الخصوم . للشهادة أو التزكية بأجر معلوم :
وغلمانُ المحامين يروحون بين الجموع ويغدون . فيمكرون بهم
ويكيدون. ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون. فيخدعون ويغتالون.
ودخلنا حجرة صغيرة من حُجُرات الكتّاب . فثار فى وجهنا ماعلى
أطباق الباعة من جيش الذباب . فرجعنا على الأعقاب. ونجونا من
الأوصاب . ثم انحدرنا مع غلام المحامي الى حجرة كبيرة الساحة.
فقال اجلسوا هنا للاستراحة . فأجلسنا فى صدر المكان . بين
الكتبة والغلمان . ولا بد لكل كاتب هناك من غلام . يقوم
مقامه فى تنسيق الاحكام . فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين.
يقسم على أقواله بكل يمين . بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء
وضيق الميدان . لما تأخر حمارهُ عن حمار فلان . وسمعت صاحبه
بجانبه . يحلف بجدِّه وأعزّ أقاربه . أنه لولا حبسه للعنان. لسبق
كل الحمير فى يوم الرهان . ويقول له وهو يتافف فى العباء : « قد
بلغنا عن الأجداد والآباء. أنه اذا صحّت الشجرة الخضراء. لم يتعلق
بذيل الحمار الهواء » . ثم التفت ذات الشمال فوجدت كاتباً منهم

غض الشباب . عظيم التأنق فى لبس الثياب. فهو يتلألأ ويتألق. فى سندس وإستبرق. كأنما خاطوا له قباءً من أزهار بستان مختلفة الاشكال والالوان . يفعم الأنوفَ بعطره . ويعبق الجو بنشره. وأمامه رجل فى يده صرة ثياب ينشرها ويطويها. فيأخذها «السيد» منه ويرميها . ويقول له فى حدّته . وشدة سَوْرته :

(السيد) ـ هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها . وبئس المفصِّل مفصلها

(الخياط) ـ كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد . أنها أوسع من ثياب السيدينِ عبد العزيز وعبد الحميد

( السيد ) ـ كذبت ورب الكعبة فان استدارة الكم ضيقة والرقبة لا تنطبق على الزيّ الحاضر

( الخياط ) ـ وماذا أصنع وذلك كل ما فى عرض الحرير ولو كنا على الزيّ القديم لدخل مع السيد فى طيّ ثيابه . اثنان أو ثلاثة من أصحابه

(أحد أصحاب القضايا) ـ صبّح الله السيد بالخير والإنعام

(أحد الكتبة الظرفاء) منكّتا ـ لا بل بالخيل والأنعام

(صاحب القضية) ـ أرجو سيدى أن يعطيني «الاعلام»

(السيد) ـ اذهب حتى يأتى الغلام

(الكاتب الظريف) مورّيا ـ عليك بهِ فى شارع أمّ الغلام . تجده جالساً نصاً تحت الاعلام

قال عيسى بن هشام ـ وعافت نفسى هذه النكت الباردة والمعانى الساقطة فأعرضت عن الاصغاء. وسرّحت طرفى فى بقية الانحاء. فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون . هذا يَلُتُّ فى يده أفيونه . وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه . والغلمانُ يشتغلون تارة بأوراقهم . وطوراً يتباحثون فى أذواقهم . وأربابُ الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد . ومطل الوعد . وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية . بألفاظ بذية . ويقول له : كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد . أتظنه كان لك من العبيد . أتريد أن يكتب لك ويتعب . (وهو لا أجرة لهُ فى المحكمة ولا مرتب.) بغير ربح ولا مكسب. ان هذا لَمِنْ أعجب العجب» .وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده راقداً كالنُفَسَاء . فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته . وقال بعضهم لا بل اتركوه فى رقدته . أنسيتم حكم عادته . بأنه لا يفيق من غفوته . قبل ان يسيل الافيون مع الدم فى دورته. ثم اتفق معهم الرسول .على ان يرجع فيقول

انني لم أجد الشيخ مكانه . وعلمت انه نزل الى الدفترخانة » . ثم استيقظ الراقد بعد مدة فتثاءب وتمطّى . ثم تدثر وتغطّي . ثم عاد الى ما كان فيه من السبات . وهو ينشد للمعري من أبيات :

وفضيلةُ النومِ الخروجُ بأهلهِ عن عالَمٍ هو بالأذى مجبولُ

ثم جاءهُ بائع كتبٍ وأوراق . فصاح به حتى أفاق . وقام بعون الله وحوله . يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب) — هل أحضرتَ ما طلبته من الكتب

(البائع) — نعم جئتك بكتب قديمة . لا تقدّر لها قيمة . منها كتاب « حل الرموز . لفتح الكنوز » . ومنها « أصول المراسم . فى فك الطلاسم » . ومنها « حسن ارشاد الناس . فى استخراج الذهب من النحاس » ومنها « القول المأثور . فى تأثير البخور » ومنها . . . .

(الكاتب) — ألم تعثر لى على كتاب فى « الاستحضار »

(البائع) — نعم معى كتابان أحدهما « قلائد اللؤلؤ والمرجان . فى استحضار الجان » . والآخر « خير المواقيت . لرؤية العفاريت »

(الكاتب) — بارك الله فيك وجزاك خيراً فان عندى نسخة محرّفة من هذا الكتاب الاخير فاصحبنى الى البيت انقابلها ونصححها

قال عيسى بن هشام ـ وقام هـذا الكاتب مع البائع . وأقمت أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبينا انا كذلك اذ أشار علينا غلام المحامى بالقيام فقد قرب أوان الجلسة لقضيتنا فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التي تنعقد فيها الجلسة فرأينا الزحام خارجها وداخلها على أشد حالاته وسمعنا الحاجب ينادي تارة بصوت عال وتارة بصوت منخفض فسألت الغلام عن ذلك فقال انهُ يخفض الصوت حتى لا يسمع أرباب الدعاوي النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه وفوق ذلك فان للحجّاب ان يُدخلوا الجلسة من أرادوا ويحجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئيسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر . وقد تعسر عليّ ان أفهم كلام الباشا وهو بجانبي يخاطبني لشدة الضوضاء وعلو الاصوات . ثم دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته . وكأنهُ الطاووس فى هيئته . فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه يضعه فى الدواة تارة ويضعه فى أذنه أخرى ثم يلهو بتفقد ثيابه ويشتغل بلمس الابر التى تتشبك بها العمامة ثم ابتدأوا فى سماع القضية وتقدّم الباشا

مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم لكثرة الجلبة والصياح وانما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط – وكأنما يكتب من عنده – ما أنقله بحرفه وهو :

« استحضر أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود فتقدم المدعى وعرّف انه فلان بن فلان بن فلان وسمي شاهدىْ معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ثم قال المدعى المذكور ان لى قِبَل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعي عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة »

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر في المستند فوقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر ثم نودى علينا بعد برهة فقالوا لنا ان المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى – على ما أخبرنا به المحامي – بالاعذار الى المدعي عليه وقال لابد ان نطلب ذلك من المحكمة لانه لايسوغ لها ان تُعذر الآن بناء على طلب المحامى فقدمنا الطلب. فتقرر اصدار الاعذار والله يكفيك شر

ما في هذه الدار . من الأقضية والاقدار . وكثرة الهموم والاكدار

## ﴿ قصر حفيد الباشا ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ودخلنا ـ لا أدخل الله عليك طوارق النقم . ولا أخرجك من طرائق النعم . ـ في دَوْر الإنذار يتبعه الإنذار . والإعذار يتلوه الإعذار . ومندوبُ المحكمة يعود الينا بالخيبة . في كل أوْبة . زاعماً ان خدم الخصم لا يقابلونه الا بالازدراء . كغيرهم من خوَلَ أبناء الأمراء . حتى وصلنا الى حد الإعذار الأخير . ورَمَينا المندوبَ بالإهمال والتقصير . فرأينا ان نَخبر خبره . ونقتفي أثره . ونحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع . للاستخفاف برسول الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان . يشهدان بأنه أعذر فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم بكتف الآخر . على هيئة تستفز كل هازىء وساخر . وكلٌ منهم يخدّ الارض بحذائه . ثم يعفي الأثر بفضل ردائه . وهم ينتقلون في المشي من الذّميل الى الرسيم الى الوخيد.[1] كأنهم مسرعون الى جفنة ثريد : ونحن من خلفهم نخبّ ونُهرول . ونُحسبلُ ونُحوقل . الى ان كادوا يغيبون

(١) الذميل والرسيم والوخيد ضروب من السير

عن البصر . وكدنا نفقد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان الكهرباء . فطاحت العمامـة وانفلت الحذاء . فانفتل يلتمسها ويلتمسه . فلم يَرُعْهُ الاّ السائق وجرسه . فما تحرك ولا انتقل . حتى أدركته العجَل . وكاد يداس ويقضَى عليه . لولا ان جذبه رفيقهُ اليه لاخيلَ بين الرجل وبين عمامته ونعله . ووقف مخبولاً . برأسه ولا برجله . وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث . حتى مرت عليهما المركبات الثلاث . فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل . فبشرناهُ بسلامتهما فاغتمّ بهما وانتعل . وحمد الله على هذا اللطف فى القضاء . وحمدناه على ما أتيح من التعويق والابطاء اذ تمكنا من اللحاق بهم . وقدرنا على استئناف السير فى عَقِبهم .

وقد انتهى السير بنا الى قصر فى سُرّة بستان . يزرى فى الحسن بقصور بغداد وغُمدان . وقد ترصع البستان بأنواع الازاهر . كأنه مُحلّي بصنوف اليواقيت والجواهر . والقصر فى وسطها كأنه الدرة البيضاء . أو البدر بين نجوم السماء :

كأنه جيـــدٌ وبستانهُ من حوله عِقدٌ بديعُ النظامْ

وما عساى أقول فى وصف روض . قد نسجته يد الارض . لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها . ونمنمتهُ رداءً لها تختال به فى

حسن ونقها وبهجتها :

مؤزرة من صنعةِ الوَبْلِ والنَّدَى

بِوَشْيٍ ولا وشيٌ وعَصْبٍ ولا عَصْبُ(١)

قد أغنى الغوانى نسيمهُ العليل . عن المسك الأذفر . وكفاها ريحُهُ البليل . تعطُّرها بالطيب والعنبر :

بغرسٍ كأبكار الجوارى وتربةٍ كأن ثراها ماءُ وردٍ على مسكِ

ومُنَى العرائسِ أن لو اتخذت من نوّار الازهار . فصوصاً للخواتم ومن اكمام الاشجار . معاقدَ للتمائم . وودُّها ان لو تأزرت من سندس أرضه بأبهى إزارٍ ومرْط(٢) . وتحلّت من جوهر نباته بأزهى شَنْفٍ وقُرْط

اذا ما النَّدى وافاه صبحاً تمايلت أعاليه من درٍّ نثيرٍ وجوهرِ

اذا قابلتهُ الشمس رَدَّ ضياءَها عليها صِقَالُ الأقحوانِ المنوّرِ

وقامت فيه مثمرات الاغصان قيام الكواعب الأتراب . ساقياتٍ بالأباريق والأكواب . ساكباتٍ سؤرَ الطل من تلك الاقداح مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح :

---

(١) العصب ضرب من البرود

(٢) المرط كساء من خز يؤتزر به

شقائق يحملن النّدَى فكأنهُ        دموعُ التّصابى فى خدود الخرائدِ

فما تخيلنا فى هذا الروض مذ رأيناه الا اننا فى حفلة عُرس . جمعت أسباب اللهو وأطراف الأُنس . قد نَصَبَ الدّجْنُ عليها سُرادقه ومدَّ ملتفُّ النبات فيها نَمارقه (١) . وأشرقتْ فى الاغصان الأنوار . إشراق المصابيح بالانوار . وقامت الاطيار على الأعواد . تتسابق فى الترنم والانشاد . فهى تغرّد بألحانٍ يقطع السامع لها حبلَ النَفَس . ويأنس اليها مستنفرُ الوحش المفترس :

وأتتْ زَهَراً غضّاً فهاجتْ بمِزْهَرٍ (٢) مثانيهِ أحشاءُ لطُفْنَ وأوْصَالُ

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والحفيف . من ثقيل فى الضرب أو خفيف . تصفق لها أكفُّ الاوراق . وتقوم الأفنانُ للرقص على ساق . مترنحةَ الأعطاف من خمر الندَى . مهتزة القدود بغمز الصَبَا . تبسم عن أقاحٍ نضيد . يزرى بثنايا الغيد . ثم تميل برشيق القوام . فتلتقط ما ينقطها به الغمام . والجدولُ يجرى تحت أذيالها ويتعثر . وينساب الماء فى ظلالها ويتكسر . كأن حصباءه اللؤلؤ والمرجان . فى نحور الحسان . أو قلائد العقبان . فى أجياد القيان :

---

(١) النمرق الوساده

(٢) المزهر العود

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ العذَارَى    فَتَلْمَس جانبَ العِقْدِ النَّظِيمِ

ولمّا مَلِئنا من هذه الجنة طربا . وقضينا عجبا . قلنا ما شاء الله لا قوّة الا بالله . ما أعجز الخلق عن شكر نَعماه . واذا بقوم عند باب القصر . كأنهم أفراخ فى مخلب صقر . تعلو وجوهَهُم قَتَرَة . تَرْهقها غَبَرَة . وهم بين باكٍ ومنتحب . وصارخٍ ومصطخب . فتفرستُ فى هيئاتهم . وهم يذكرون حاجاتهم . فاذا هم جميعا فى يأس وقنوط . وخيبة وحبوط . واذا الصيرفىُّ يقول . بصوت المقهور المخذول :

(الصيرفىّ) ـ تعسا لى لقد ضاع مالى . وذهبت آمالى

(التاجر) ـ وبؤسا لى لو كنت أعلم بهذا المآل . لم أنم فى تلك الحبال

(البائع) ـ يا ويح نفسى اغتررت بالمقام العالى . فخسرت رزق عيالى

(الجوهرىّ) ـ ويلٌ لمن خدعَتْهُ الظواهر . فضاعت عليه الجواهر

(الصيدلانىّ) ـ أقسمتُ لا يضيع عنده ثمن الدواء . ولو تعلق بأطراف السماء

(الحمّار) ـ تبّاً له من محتال مال على دَنِيّ . ثم اختفى عن عيني
(القصاب) ـ انا لا يضيع عنده حقي . ولو وضعوا السكين على حاقي
(الخياط) ـ وأنا لا أترك هذا الباب . حتى أمزق ما عليه من الثياب
(الاسكاف) ـ ورأسِ أبيهِ وجدِّه . لآخذنّ ثمن الأحذية من جلده
(الحلاق) ـ أنا ابن جلاَ وطلاع الثنايا . وكم لصنعتي من منافع ومزايا . وليتني كنت شوّهت خلقته . ومسخت سحنته . فنتفتُ شاربه . وحلقت حاجبه . تالله لآخذنّ بناصيتهِ هذا الثقيل البارد . ولأسدّنّ عليه المصادر والموارد . ولألزمنّه صباح مساء . ولو حاق في الهواء

كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار . ويقسمون انهُ لم يبق لديه درهمٌ ولا دينار . واذا همّ احدُ الغُرَماء بالدخول منَعُوه . أو دافعَهُم أحدُهم دفعوه . وبينما نحن نتأمل ونتعجب . ونتقلى على الجمر ونتقلب . ونقابل بين سعد المكان . ونحس السكان . اذا برجلٍ افرنجيّ قد خرج من بيت الحرم . وهو يلتهب غيظاً

ويضطرم. ويقول للبواب برطانته. وسوء عبارته : لقد طالبتُهُ فأبان الافلاسَ والعجز . فلم يبق الا توقيع الحجز . واليك قائمة البيان وحذار من التلف والنقصان . وما كاد « مُحضر المختلطة » ينتهى ويذهب . حتى حضر « مُحضر الاهلية » يلهث من التعب . فسلم للبواب ورقة إنذار . فأخذها وهو يدعو بالثبور والدّمار . وبعقب ذلك انصرف المحضر . وتبعه جميعُ مَنْ حضر . لاشتداد حرّ الظهيرة وأُوراها[1] . ولفْحِ الشمس للوجوه بنارها . فانتهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبنا وتقدم . وخاطب البواب وهو يتلعثم . فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه البلية . ثم دفعه فى صدره فردّهُ الينا بظهره . بعد أن أخرجَنا من الجنان . وأغلق باب البستان . فأخذ المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر . ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرّر :

« يافلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر يأمرك بأن تحضر الى المحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وان لم تحضر فى اليوم المذكور يَنصبْ عنك وكيلا ويسمع الدعوى فى

(١) الأوار حر الشمس والنار و[illegible]

وجهه ويحكم عليك غيابياً »

ثم وَدَّعنا المندوبَ والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت أنا والباشا فى دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا . ثم استند الباشا الى سور البستان وشرع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره:

(الباشا) ـ مازالت بواطن الامور وحقائق الاشياء تتجلى لى على وجهها منذ عمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا انما تجرى كلها على التضليل والبهتان وتدور على التمويه والبُطلان وتنطوى على الغش والتدليس . فبالله عليك من ذا الذى يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه الحسد لساكنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع الى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوء قسمته فى العالم

(عيسى بن هشام) ـ لازلتَ ترى الحق وتقول الصدق بما يتسع لك من سبل الهداية والحكمة . نعم ان جُلَّ من نراهم من المنعَّمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفتَ عن باطن أمرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لوقفتَ على مايوجب الأسى والأسف ويدعو الى الرحمة والشفقة لاما يدفع الى الحسد

والغبطة ولأيقنت ان الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالاً . والغالب انه كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً كان باطنه مُقتِماً مظلماً . وأشدّ مايكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون اوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع فيكون الواحد منهم غريقا فى بحور الهموم والاكدار وتراه يقسر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح ، واكثر ما يكون فى الضيق والافلاس تراه يتعرض للتبذير والانفاق فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس . وان كان عظيم الثروة كثير الغنى فانه لاغنى مع ازدياد الحاجات ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات

(الباشا) — قد كانت الحال فى أيامنا على العكس . ان كان لا يسرك من الرجل ظاهر حاله فانه يرضيك باطن أمره وربما كان يجتهد فى التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد الغنى ويبدى الشكوى اذا أسرّ الرضى .

قال عيسى بن هشام — وقضينا برهة فى مثل هذا الحديث وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية والتعمق فى معرفة الاخلاق النفسانية حتى صار من

دَيْدَنِهِ أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقي بهِ الى عالم الفضيلة والحكمة وازددتُ يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزاله غرًّا بالامور غافلاً عن حقائق الأشياء فاذا وقع فى أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت قريحتهُ وعلِمَ بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل اليه

ثم حانت منا التفاتة الى ماوراء السور فرأينا خدم البيت وحشمه قد اجتمعوا حَلْقةً وهم يتحاورون و يتجادلون فسمعنا البواب يبتدئ فيقول :

(البواب) ـ ليت أمي لم تلدني وليت أبي لم يعلمني رسم الخط فقد كَلَّتْ يدي وحَفِيَ قلمي من طول التوقيع بالاستلام على الانذارات والمحاضر فقلما يمضي يوم الا ولي فيهِ من التوقيعات ما ليس لرئيس قلم فى ديوان . فبئست المعيشة معيشتي و بئس الحظ حظي وليتني كنت قادرا على الانضمام الى صف هؤلاء المطالبين والغرماء فأخلص بجزء من أجرة الشهور المتراكمة . ومَنْ لي بالتباعد عن هذا البيت الذى انتشر فيهِ جراد الحجز وأزعجتْ مَنْ فيهِ أصواتُ الغرماء وأزعجني ترددُ المحضرين على صندوق ثيابي

(الكاتب) ـ لست أدرى والله ما يصنع صاحب البيت وماذا

محتال لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل . وإنْ صَدَق ظني كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب . فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الايام انه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختم أمره بأقبح الخواتم . ويعلم الله انه لولا ما ألتقطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور . وقد دعاني هذا الامير أمس وأعطاني خاتماً من الياقوت لأبيعه فذهبت به الى الجوهري الذي كنا اشتريناه منهُ بأكثر من مائة جنيه فلم يدفع لي فيه الا خمسة وعشرين فبعتُهُ إياه وعدت للامير بالدراهم فكأنما فككتُ الأسيرَ من القيد وأنقذت الغريق من اللجّ

(الوصيف) — الآن انحلّ ما كان مشكلاً وانكشف لي ما كان غامضاً فاني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهتدِ الى مورده أعطاني منه عشرة جنيهات وأمرني أن ابتاع من أخيه هذا الكلب الذي ترونه مُولَعاً بملاعبته منذ الصباح .

(الفرّاش) — وأنا اشتريت له من صهره تلك الببغاء بخمسة جنيهات وأخذتُ له غرفة في «تياترو الاوبره» بثلاثة وزجاجةَ عطر باثنين

(الكاتب) ـ فعلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهات ولا بد أن أبادر فى الحال لمطالبته بانجاز الوعد الذى وعدته لصاحب الجريدة الملومة حتى يسكت عنه ويكفّ عن التعرض له

(السائق) ـ وأنا أذهب اليه أيضا لآخذ منه ثمن الريش والاسفنج الذي وعدنى به مادام معه من الدراهم بقية

(الخصىّ) ـ انكم لفى نعمة وغبطة بما تنالونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ولكن غيركم من الخدم فى الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الاكل والشرب من غير أجر وصَبرنا على هذه الحال وفاءً بالعهد لأهل البيت. وياليت هذه النعمة تدوم فقد سمعتم اليوم وعيد حضرة البك الجزار كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز

(السقاء) ـ ما أظن أن لنا حيلة نلجأ اليها فى آخر الامر الا أن نطلب منه احالة أرزاقنا على ريع الوقف الذى سِلمَ وحده من الحجز

(البواب) ـ لقد خاب ظنك وضاع أملك فان هذا الوقف الذى كنا نرتكن عليه قد دخل فى دور القضايا والدعاوى وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الاخير ومَنْ يعلم ماذا يكون من أمره

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشتت الجمع نحو المطبخ

لحلول وقت الغداء فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا

قال عيسى بن هشام - وحلّ اليوم الموعود لجلستنا فى المحكمة الشرعية فتوجهنا اليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته ولما فُتحت الجلسة تقدمنا اليها وشهد أمامها شهود المعرفة ثم اطلع الاعضاء على الاعذارات الثلاثة فوجدوها جامعة للشروط المقررة فأمروا بأن يُنصب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقاً بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعي عليه ثم أخذ محامينا ينظر فى صورة الوقفية التى استخرجناها من الدفترخانه ليعدد الاعيان فلم يجد فيها جميع ما عددناه له بل وجد منها جزأً قليلا لا يقوم بالتعب فى اقامة القضية وخشِيَ أن المحكمة لاتحكم لنا بغير المبين فى «الصورة» من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الاعيان الموقوفة فوافقهُ الوكيل المنصوب للغائب فتأجلت القضية الى ما بعد الفسحة القضائية من العام

وخرجنا من الجلسة مع المحامي وقد فُتح له ولغلاته باب احتيال جديد. ولما سألناه عن المظانّ التى تنبئنا عن بقية أعيان الوقف تلكأ فى الجواب ثم أحالنا على الغلام وتركنا معهُ وانصرف . فقال لنا

الغلام لا مظنة عندنا غير ديوان الاوقاف لانه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الاعيان وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسعي وراء هذا الغرض . فوافقناه على هذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد

## ﴿ الطب والاطباء ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ولما حال أمرنا من المحكمة الى الاوقاف . وأيقن الباشا بما هنالك من قلة الانصاف . وأنه لا بدّ لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغدوّ والرواح . في كل مساء وصباح . فنبلي في هذا الديوان جدّة الزمن . ونقف عليه وقوف العاشق على الدِّمَن . لما هو مستفيض من اختلال أعماله . واعتلال عماله . وفساد إدارته . وسوء نظارته ـ نزَلَ به من الهمّ والغم . ما أورثه الضني والسقَم . وحلّ به من الحزن والكمد . ما أخلّ بنظام الجسد . فغدا هزيلاً نحيلا . ووقع مريضاً عليلا . فأشرتُ عليه بالطبيب . قال يخطىءُ ولا يصيب . وماذا يجدى العلاج وما يفيد . وللآجال توقيتٌ وتحديد . فأقنعتهُ بأن الاعتقاد بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العلل . وسبحان من أرشدنا

الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء . فقبل إشارتى بعد طول الإباء . فجئت له بأحد الاطباء . من ذوى الشهرة بالبراعة . فى ممارسة الصناعة . فجلس بجانبه يجس نبضهُ ويقرع صدره . ثم استلم قلمه وولاه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيدٍ دائمة الاختلاج . ثم قال دونكم هذا الدواء . جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإنهُ صادق مؤتمن . لا يغشُّ فى التركيب ولا يُغلي فى الثمن . ثم وقف عند المرآة يُسوّى مفرق شعره . ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب . بنظرٍ مستراب . كأنه يريد أن يستشفّ ما وراء الحجاب . من آنسةٍ فى الخدر أو كعاب . ولما أعوزهُ ما تفقّده . طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى بعيادته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . ويتلطف من حدته

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجة الحرارة لا تفتأ فى صعود . والمريض يهذى فى شدة حُماه . وأنا أتضرع وارحماه . حتى كدت أيأس من الشفاء . وأسلم لحكم القضاء . ولكن زارنى أحد الاصدقاء . ممن يولعون بالطب والاطباء . فقال لى وهو يبصر حالته : مَن الطبيبُ الذى يعالج علته . فقلت هو الشهير فلان . قال علمت

السبب الآن. وأنا أنصحك أن لا تعتمد في الطب. الا على أطباء الغرب أولئك قوم قد برعوا في معرفة الامراض. وتشخيص الأعراض. وأحاطوا بكل جليل وحقير. من البسائط والعقاقير. فالأدواء لا تستعصي في أيديهم. وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم. وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلما. وأشهر صيتاً وإسما. وقام فعاد بأجنبي يهدّ الارض بخطواته. ويكثر من إشاراته ولفتاته. فتقدم نحو المريض فجسّ ولمس. ثم قطب وعبس. ووضع طرف منديله على أنفه. وقال لنا في صلفه وعنفه ان هواء الغرفة فاسدٌ قتال. وداء المريض داء عضال. ولا رجاء الا باتباع اشارته. في تواتر زيارته. ثم هزأ بما رآه من دواء الطبيب الأول. بعد أن كتب علاجه بوصف مطوّل. وقال لا يُحسن تركيب هذه الاجزاء. الا صاحب «صيدلية الشفاء». ومازال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضُر. والعلاجُ يتجدد ويتكرر. والمريضُ يتألم ويتضجر. والمرضُ باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر. حتى جاء في خاطري أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة. فنخلص من هذه المراوغة والمطاولة. فلما اجتمعوا وقعوا في الحِجاج واللجاج. ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج. وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه. لا يهتدي الا بهديه. وسمعت بينهم منْ يقول لرفيقه.

لا ينبغي ان نوافق فلانا في تحقيقه . كما أنه لم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية . وانكر علينا جميع أدويتنا الشافية

ثم خلفوني ونزلوا على الخلاف . وان كانوا اتفقوا في تناول الاجرة عند الانصراف . وكنت شاهدت بينهم طبيباً يظهر نفوره من طريقتهم . ويجرى معهم على غير حالتهم . فأرسلتُ في أثره مَنْ دعاه . وكاشفتهُ بأنني اخترته على سواه . فقال لى ان علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلها ناشئة عن انفعالاتٍ نفسانية . من هموم فجائية . فقلت له نعم أصبتَ في النظر . ثم أخبرتهُ بجملة الخبر . فقال الآن تبين ان معالجة الاطباء . كانت بغير اهتداء . ولا يلزم لعلاجه الا الامتناع عن هذه المركّبات . والاكتفاء ببعض البسائط من النبات . مع جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقنا حينئذٍ بمهارته . وسلمنا لإشارته . فلم يمض الا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَور السقم والاعتلال . الى دَور النقاهة والابلال . وجلس الباشا ذات يوم الى الطبيبَ يشكره على حذقه وبراعته . ويحاورنا في الحديث على حسب عادته :

(الباشا) — كيف اهتديتَ أيها الطبيب الى مالم يهتدِ اليه سواك

من الاطباء فأدركتَ سبب علتي وأحسنتَ تشخيص مرضي وأصبتَ في اختيار العلاج فكان الشفاء. لاشك عندي أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك

(الطبيب) — لافضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء والسبب في خطأ الاطباء أن العدد الأعظم منهم يسيرون في ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم فهم لايتخطونها ولا يتعدونها فترى كل واحد منهم يحصر في ذهنه عدة أمراض معلومة وعللٍ معروفة فيطبق عليها كل مايراه من الأعراض التي تظهر له في عامة المرضى - والأعراض تختلف وتشتبه — فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض المعين بقطع النظر عن الفحص والتأمل في حال المريض أو البحث والتدقيق في معرفة الاسباب المادية والادبية التي يرجع منشأ المرض اليها ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الاحوال فيعيش في أسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحث في اختلاف الامزجة وتباين الغرائز وتفاوت المعايش وتغاير القُوى في البِنَى فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب

(عيسى بن هشام) — كأنك تريد أنهم يكونون على مثل

حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكرة فتنطلق أيديهم على وجهٍ واحد وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن فى وجوه شتى

(الطبيب) - نعم لقد أصبت فى التشبيه . وغير ذلك فان بين هؤلاء الاطباء مَنْ لا يرى فى صناعته الا آلة لاجتلاب الرزق واصطياد الربح واستدرار الدرهم والدينار حتى يصلوا الى اكتناز الاموال ويصبحوا فى مصاف أهل الغنى والثراء لا يبالى أحدهم أى باب طرق ولا أىّ سبيل قصد للتوصل الى هذا الغرض المطلوب فكل الوسائط لديه مقبولة وكل الطرق عنده مسلوكة فهو يدخل على المريض طامعاً فى ماله لا طامعاً فى شفائه فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته فى المرض فيتسع نصيبه فى الاجرة فيعطيه من أصناف الادوية ما لا ينفع ولا يضر أستغفر الله بل ما يضر ولا ينفع ليبقى المريض فى حاجة دائمة الى تجدد العيادة والزيارة وفى كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفاً جديداً من المركّبات التى يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعها وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده له الصيدلىّ فى دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الاثمان الفادحة لتلك الادوية المتكررة . فيضرب الطبيب فى

صناعته بقدْحين . ويصيب فى الكسب بسهمين . بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار . ويُخلى كيسه من كل فضة ونُضار

ومن اولئك الاطباء من يجعل همه منصرفا الى الإبداع والتفنن. فى وجوه التزيى والتزين . ويسلك سبيل التصنع والتكلف . فى أبواب التظرف والتلطف . ثم يتفنن ما استطاع فى حسن المحاضرة . ويتعمد رقة الحديث والمسامرة . ويتقلب فى أساليب المؤانسة والمجاملة . وأفانين المغامزة والمغازلة . ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة . وسوقاً رابحة . فيحل من أهل الحرم محل الجليس المحبوب والانيس المطلوب . وينزل من ربات الخدور منزلة المحب المكرم ويكون بين مقصورات القصور اكرم زائر فى أرحب منزل . والنساءُ لا يعدمْنَ العلات . على العلات . ولا تُعوزهنَّ العلل . فى اختراع العلل . لاسيما إن كانت دعوى المرض . تدنى من نيل الغرض . فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات . وروحات وغدوات . والطبيب كما يعلم الناس مُؤتمَنُ الجانب . يؤتمن فوق الاهل والأقارب . تتفتح أمامه الابواب . ويُكشف مِن دونهِ الحجاب . فترى له زيارة بين كل صباح ومساء . تُكتب له بوافرِ الأجر وسوء الجزاء . بوافر الأجر فى دفتر حسابه . وبسوء الجزاء يوم عرضهِ وحسابه .

ومنهم من يتطاع الى ما فوق ذلك فيطمع فى ثروة البيت با كلها وفى حيازة الاموال بأجمعها فيديم الترددو تُوالى العشرة ويحكم الصلة ويلحم الخلطة حتى اذا تأرّبت عقدة الحبل تم الاتفاق بينهُ وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على الأهل بها لا التفات هناك الى تفاوت الاقدار ولا عناية بوجوه الكفاءة فتصبح لهُ حليلة . بعد ان كانت خليلة . وينتهي ما كان من أمر الداء والعلاج . بما تمّ من أمر العقد والزواج

(عيسى بن هشام) ـ الآن تبيّنَ لى ما كان علىّ غامضاً واتّضح ما كان مبهماً من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا فى كثرة الزيارة وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق فى تعيين الصيدلية وطول استراق النظر لما وراء الحجاب

(الطبيب) ـ أجلْ . هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلاَّء وأشباه الأعلاَّء . فاما حالهم مع الاصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب . وما يغرب عنك أن كثيراً من المولعين بسوء التقليد للغربيين والمتهالكين على حب التظاهر بمظاهر الرفه والترف يتغالون فى الاحتياط لأبدانهم ويبالغون فى التوقى لاجسامهم فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة

شرا . ويتوقعون من كل شربة ضرا . ويتخيلون ان فى كل لقمة تخمة . وفى كل جرعة غصة . فلا يتناولون قدحا من الماء . أو يستنشقون نفسا من الهواء : الا وفى اعتقادهم انه لايخلو من كل هامة سامة . أو جرثومة ضارة . ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب ويعمدوا ما ما استطاعوا من طرق الحمية من غير علة ولا داء فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنى ويهجروا الاغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن الى الاطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ويصبح كل واحد منهم جازما بأن به داء دفينا ومابه من داء وعلة كامنة ومابه من علة فيشكو أمره الى الطبيب فيكون الطبيب حينئذ أسرع من وهمه وخياله فى اختلاق علة له واختراع مرض دون ان يفحص أمره أو يبلو خبره فينزل به ماينزل من بوائق الخوف والفزع ويوالى عليه الطبيب ما يوالى من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة والمركبات الحادة فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء . ويتقيد المسكين بمعيشة لاتناسب غريزة البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الاقليم ولا

توافق الاّ مَنْ جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندره لا مَنْ ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة . فلا يلبث ان يأتى على ما بقى فى الجسم من قوة وما فى البدن من صحة ويعيش ان عاش فى يد الطبيب حيا كميت . ويكون بين الاموات والاحياء . لا من هؤلاء ولا من هؤلاء . الى ان يُلْحَدَ فى لحده . شهيدَ طبيبه وقتيلَ يده . وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد . ما كُتب على قبر عظيم من قدماء القواد : « لم تُمتنى قوة الاعداء . وانما أهلكتنى قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لا نرى فى جمهور مَنْ نراهم من المترفين المقلدين الا شاكيا من ألم أو متألما من مرض فراجت سوق الطب وعظم عدد الاطباء وغدت حوانيت الصيادلة فى الاسواق اكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين . وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديقُ الدواء وآنية العلاج وقلّ ان تجد اليوم بيتاً خالياً من مريض ولا مجلساً ليس فيه من سقيم

(عيسى بن هشام) ـ كأنك تحاول أيها الطبيب الآسِي أن تقنعنا بقوة البرهان وجليّ البيان ان لا فائدة من الطب ولا منفعة فى الاطباء

(الاطباء) ـ حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد أو أن يذهب بقولى

خلاف مذهبه وماقصدت بكلامى هذا كله الا أن أظهر عيب بعض الاطباء فى ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها . على انه يمكننى ان أضيف الى ماقلته ماقد قيل من قبل وهو أن العلم علمان علم تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الاثر . محمود الورد والصدر . وعلم تصدأ منه الافهام . وتضل به الاحلام . فهو وبئ المرعى . سيء العقبى . وكذلك الطب طبان طب يصحح الاجسام . ويشفى الأسقام . فهو عظيم النفع جليل القدر . وطب يورث الامراض ويولد الادواء فهو شديد الوطء عظيم الضر . ومدار الامر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطيب والخبيث . ولا تتوهمن أيضا انى أتناول بكلامى جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكننى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها أويتعمدون الحيل وينصبون الاشراك حتى يعتل جسم الصحيح ويزمن مرض المريض ليكون لهم من وراء ذلك ما يسد بعض شرههم فى الغنى واليسار . وما أولى سائر الناس بأن يثبتوا بينهم عادة أهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء الاطباء . وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ماداموا أصحاء فاذا

نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب حتى يعود المريض الى سلامته فيكون من مصلحة الاطباء على الدوام ان تطول مدة السلامة وتقصر مدة العلة على خلاف الحال بيننا

وما ينبغي ان ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من ذوى الحذق والامانة الذين يوفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه والذين يراعون فى ممارستها ما يكون من تفاوت الاحوال فى الملل والامراض وما تقضي به أحكام البلاد والعادات واختلاف الامزجة والطبائع والذين يحملون لانفسهم من حسن تبصرتهم وكثرة تجربتهم عدةً حاضرة لمقاومة الامراض وصحة تشخيص الأدواء ولطفِ تناسب العلاج وحسنِ الارشاد لرفع الوسواس ودفعِ الخيال وما يجرى هذا المجرى من استعمال ما يليق بأهل الاقليم الحار مما لا يليق الا بأهل الاقليم البارد واجتنابِ مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهزة لطبائع أهل البلاد الغربية . ولقد طالما سمعت من أشياخي فى الصناعة أنهُ يجب على الطبيب فى مصر ان يختار ما يكون من الادوية وغيرها ألين قوةً حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفةٌ ولا يلحق أبدانَهُم منها مضرةٌ وأن لا يقدم على كل الادوية المسطرة فى

كتب أهل الغرب فان أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الاخلاط على خلاف المعهود في أهل مصر فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من مقدار تركيبها ويبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه وأن لا يهمل الاعتماد على الادوية الطبيعية وهي البسائط واللبن والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء وأن يكون على الجملة مولعا بلذة الصناعة في ذاتها لا يعادلها لديه سواها من سائر اللذات ممتلىء النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون فتعظم عنده نفسه ويشرف في عينه قدره فيترفع عن سفالة الطمع وحطة الشره ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة . وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مال وجاه أو زخرف ومتاع في جانب لذة الاتقان في الصنعة والاحسان في العمل . وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل وهو القيّم على قوام الأبدان والكفيلُ بصحة الاجسام والرقيب على اعتدال الامزجة والمشرفُ على سلامة الجوارح . لا بل أية صناعة في الوجود تفضُل صناعته وهي أمس الصناعات بخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر واذا كان قد بلغ عُجْبُ الصناعة

بأحد النحاتين المصورين في الزمن السابق لما ازدهاه جمال الاتقان والاحكام في صورة إنسان نحتها من المرمر أن استخفه الطرب واستفزته لذة الصنعة فعمي عليه فأنحى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان بعد أن أحكمت فيه خلقة الانسان ويكلف الجماد وقد أتقنت فيه الصنعة أن يخرج من الجمود الى الحركة حتى أطار عنه بعض أجزائه وبقي التمثال قائماً الى اليوم يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال في جمال الاتقان ومقدار لذة الاحسان في عمل الانسان — فما بالك بلذة الطبيب ومقدار طربه في صناعته اذا هو شاهد أجسام الاحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الامراض واستنقذها من آفات العاهات وردها الى سواء التكوين وأعاد نظام الخلقة الى أصله وانتساق التركيب الى شكله . فهل يجوز في العقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الاطباء أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة الى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته الى مصاف أهل التجارة والسلع لا يفقه فيها من معنى سوى اصطياد الدرهم ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الاموال لاجرم أن الطبيب المدرك يفضل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة ويساو عندها أعظم مزية في العالم وأعلى رتبة . وفصلُ الخطاب في هذا

الباب . ان يكون مبلغ همته . ومجمع لذته . أن يرى المريض بعد شفائه . بوجهٍ لامعٍ كالدينار . لاأن يراه في طول شقائه . بنظر طامعٍ في درهم أو دينار

قال عيسى بن هشام ـ فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته . وحسن نظره في صناعته . وسألت الله لجماعة الأطباء . ان يهتدوا مثل هذا الاهتداء . ثم اني ودعتهُ بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء . وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء . الى ان يتدرج من النقاهة الى تمام الشفاء

---

## ﴿ الطاعون ﴾

(قال عيسى بن هشام) ـ فطاوعنا القدر . وعزمنا السفر . إلتماساً لبرء الداء . بتبديل الهواء . ونزلنا من ضواحي الاسكندرية قصراً ذا روضة غناء : في بقعة فيحاء . لاتسمع فيها الاّ هديل الورقاء . إيقاعاً على هدير الماء . فاذا بلّل الموجُ جناحَ النسيم . فرفرف على ذلك الروض البسيم . نثرَ الماء درّا على تيجان الزّهَر . ورقرقهُ دموعاً في أحدق العَبْهَر.(١) هناك يتمنى العاشق لو استمار

---

(١) العبهر: النرجس

هذى الدموع لمحاجره . فيستلين بها قاب شاجيه وهاجره . وتودّ الغانية لو نَظَمَتْ من ذلك الدرّ عقداً لنحرها . أو نطاقاً لخصرها :

إنّ هذا المكانَ شيءٌ عجيبٌ   تضحكُ الارضُ من بكاء السماء
ذهبٌ حيثما ذهبنا ودرٌ   حيث دُرنا وفضةٌ فى الفضاء

أوقُلْ إنه المجرّة قامت فيه زواهرُ الزّهر . مقام الكواكب الزُّهر . وعناقيدُ الكروم . مقام ثريا النجوم . وأنوارُ الاثمار . مقام الشموس والاقمار . فأقمنا فى ذلك الظل الوريف . مدة من أيام الخريف . ومكثنا نقطف القطوف الدانية . بين تلك الاعين الجارية : فى عيشة راضية . لا يُسمع فيها لاغية . آخذين بُستنّ النحيزة . (١) ومُجتنّ الغريزة . فى ما يوافق صحة البدن من طعام شهيّ . وغذاء مَرِيّ . ورياضةٍ للاعضاء . دون تعب أو شقاء . وتطهيرٍ للنفس من أدران الكدر . بلطف البحث وحسن النظر . وتجريدٍ للصدر من عوامل الهواجس . وغوائل الوساوس . بالتبصر فى حقائق الوجود . والتمعن فى صنعة الخالق المعبود . وأفضَتْ بصاحبي طِيبُ هذه الاقامة . الى المقصود من تمام العافية والسلامة . لولا أن راعنا شيطانٌ من الانس بخبر الطاعون . فقلنا إنا لله وإنا اليه راجعون . وسبحان

(١) النحيزة الطبيعة

الله والحمد لله مازلنا نعلل النفس . بزوال النحس والنكس . ومازالت تُداوِ بنا النوائبُ والأحزان . وتُراوحنا النوازل في كل منزل ومكان. وانبرى الباشا يسألني عن هذا الطاعون وأخباره . وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره . فأجبتهُ بأنه لا يلبث أن يصبح أثراً بعد عين . وما أصاب إلى اليوم الاعدد أصابع اليدين . وقريباً يفرُّ من أمامنا هذا العدوُّ المناجز . ونردّد في أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رماحَ الجنِّ     وأذهبَ التعذيبَ والتجنّي

(الباشا) ــ كيف تدعي ذلك وتزعمه وما عهدت منك إخفاء للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها المآقي والاحداق وتتفطر منها القلوب والاكباد وهو عندنا من أمراض مصر الوضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة « الفصل » فيقولون جاء « الفصل » عند ظهور الطاعون فترتاع النفوس وتخلع القلوب وتَخُور القُوَي وتذهل العقول ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف سيلهُ عند حاجز ولا يمنع اندفاعهُ مانع ولا تغيض فوارتهُ حتى يخرب القصور . ويعمر القبور . فتصبح الاطفال يتامى . والنساء أيامى . ويمسي الخلق بين ثاكل ومثكول وحامل ومحمول : هذا يبكي

أباه . وذاك يندب أخاه . وهذه تولول على أهلها . وتلك تنوح على بعلها وقد سمعتُ عنه فى زمانى من أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥

« ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ وداخَلَ الناسَ منه وَهْم عظيم واشتد بطشه وقوِىَ بأسه فى رجب وشعبان ومات به من لا يحصى من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد والكُشّاف والامراء ومات من الصناجق أمراء الالوف اثنا عشر صنجقا منهم اسماعيل بك الكبير . وقد أفْنَى عسكر القليونجية والارنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزه وكانوا لكثرة الموتى يحفرون حفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة و يلقونهم فيها . وكان يخرج من بيت الامير فى الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم و يطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم و يقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك . ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازةٍ أو دفنٍ او مشغولاً بتجهيز ميت أو باكيا على نفسه موهوماً . ولا تنقطع صلاة الجنازة

من المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الا على أربعة أو خمسة ونَدَرَ من يصاب ولا يموت وقلّ ظهور الطعن على الجسم فيكون الانسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر فلا يفيق الا مخلطاً أو يموت فى غدهِ ان لم يمت في نهاره . واستمر فتكه الى أوائل رمضان فمات الأغا والوالى فى أثناء ذلك فولّوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافهما فماتا أيضا . واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى سبعة أيام . وأغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفسا فماتوا جميعا »

(عيسى بن هشام) ـ انى لأظنك تصف لى موقفاً شاهدتَهُ من مواقف الآخرة وأهوال القيامة

(الباشا) ـ وما كان الامر ليقتصر فى الطاعون بعد ذلك على فتكه بل كان يزيد عليه من البلاء مادسّه الافرنج للولاة من وجوب ازعاج الناس بأمور تشقّ على نفوسهم يزعمون انها تدفع الطاعون فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض ويفرقون بين الأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون ان هذه الاعمال التي تؤذى النفوس وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن

وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس ويلاً على ويل وحزناً على حزن وخراباً فوق خراب وقد شاهدت بعيني ما تشيب له النواصي فى سنة ١٢٦٠ وقص علىّ أخى مارآه منه فى سنة ١٢٢٨ وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير . قال

« أمر جنتمكان محمد على بعمل « كورنتيله » بالجيزه فى اليوم العاشر من ربيع الثانى وعزم على الاقامة بها اذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليل من الاصابات بمصر . ومات به الطبيب الفرنسوى وبعض من نصارى الاروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيله وأنها تمنع الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير على مذهبهم وكان أفندينا لشدة شغفه بالحياة وحرصه على الدنيا يصدق هذا الزعم ويغرسه فى نفوس حاشيته واهل دائرته واتفق ان مات بالطاعون شخص بالمحكمة من أتباع القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخيره بالابخرة المتنوعة وكذلك الأوانى التى كان يمسها وأمروا أصحاب الشرطة انهم يأمرون الناس وأصحاب الاسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشر الثياب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا

على كورنتيله الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الاقامة فليمكث بالبلدة والا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد وأعطوا مهلة أربع ساعات فانزعج سكان الجيزة وخرج مَنْ خرج وأقام منهم من أقام وكان ذلك فى وقت الحصاد وللناس مزارعُ ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى ولا يخفى احتياج الانسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدّوا خروق السور والابواب ومنعوا مراكب المعادى من السير. وأقام الباشا ببيت الازبكية لايجتمع بأحد من الناس الا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد الى قصره وأوقف مركبين الأولى ببر الجيزة والاخرى فى مقابلتها ببر مصر القديمة فاذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسلُ للمقيّد بذلك فى طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزراق آخر على بعدٍ منهما ويعود راجعاً فاذا قرب من البر تناولها المنتظرُ له أيضا بمزراق وغمسها فى الخل وبخرها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه بكيفية أخرى واقام الباشا على ذلك أياما وسافر الى الفيوم ثم عاد

وأرسل مماليكه ومن يخف عليه من الموت الى أسيوط .»

(عيسى بن هشام) - اعلمْ ان ما كان يعترض عليه عامة الناس في الازمان الغابرة - ولا يزال بيننا الى اليوم بقية منهم - من الأخذ بأسباب التوقي والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بحقيقته وأسبابِ انتشاره هو الذي يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التي قصصتَ عليّ طرفاً منها وقد كان جمهور الناس في أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها

(الباشا) - قل لي بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التي تأتي بالأجل وأيّ ارتباط بين هذا البخور وحُمّى الطاعون اللهم الا ان يراد به تلطيف أمزجة الجن

(عيسى بن هشام) - لا يفوتنّك ان كثيراً من الحقائق كانت مكنونة في خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد بالعلم ولبعد تناولهِ على بقية الطبقات فلما انتشر العلمُ وأضاء برهانه كَشَفَ للناس ما كان مكنونا عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما كانت تقف دونه الافكار حيْرَى. فان كان الناس في زمانكم يعتقدون ان الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لا شيء يَقوَى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين

بأن للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الأسنة وعوالي المرّان (١) ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسّم الاشياء الدقيقة وتعظمها وتبرزها مرئية للعين فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها

(الباشا) — وماذا تجدى الوقاية والحذر . من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) — حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء لان الوقاية من السنة الشريفة واحكام الدين المبين فقد ظاهر عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين . وقال الله تعالى «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ». ولطرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفىّ الذى يسمونه «المكروب» وهو دويبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد فى أيسر برهةٍ من الزمن. وهم يتخذون البخور في الوقاية لينحلّ تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواه

(الباشا) — لقد كشفت لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى وهل لك في أن

---

(١) المران شجر يتخذ منه الرماح

تطلعني على تلك الآلة العجيبة المجسّمة للاشياء الدقيقة لأزداد تبصرةً وهدًى بالنظر في عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام ـ فذهبت الى معمل كيماويّ وأريته نقطة من الماء تحت «المكرسكوب» فلما رآها كأنها غديرٌ ورأى ألوف الالوف من الهوامّ سابحةً فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق والتمجيد لعظمة الصانع وتلا قوله عزّ مَنْ قائل : «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبّكَ الاّ هُوَ» فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل مافعله ذلك الهنديُّ مع العالم الالمانيّ حيث أراه مثل هذه النقطة ومافيها من الحيوانات ليقنعهُ بأن ماء الشرب مشحون بما يحرّم أهلُ الهند قتلَهُ وأَكلَهُ من الحيوانات فسَخر الهندِيُّ منه وكسر النظارة إصراراً على الباطل وعناداً للحق . ولما أيقن الباشا بصدق ما قلتهُ وما رآه وأنّ العلم هزم جنودَ الطاعون وحطم رماحه ولولاه لمات به اليوم مئات الالوف مكان العشرات سألني يقول:

(الباشا) . ومَن المخترع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطةٍ على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين . وفي أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنردّد الثناء عليه ونذكر اسمهُ بالحمد

( عيسى بن هشام ) ـ أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن اكثر مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالعهد بهم فى منزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة وما نشطلرؤيتها أحدٌ منهم وهم الى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران البنادق فى معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها الا ما نَخَرَ كتبَهم من الأَرَضَة وما سبَح فى حلقات دروسهم من القمل والنمل وما دار فى أمثلتهم مِنْ « أكلونى البراغيث »

( الباشا ) ـ ومع هذا كلهِ فلا مُقام لنا اليوم فى هذه البلدة التى أصيبت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قدر الله الى قدر الله فَعُدْ بنا الى مصر ان شاء الله آمنين

قال عيسى بن هشام ـ فأجبته الى سؤله وقَفَلْنَا الى القاهرة . بعد أن ودعنا تلك المناظر الباهرة

---

## ﴿ الوباء ﴾

( قال عيسى بن هشام ) ـ وأقمنا فى مصر مدة وقد أَبَلَّ الباشا من علتهِ وسقمه . وتمت لهُ العافية والسلامة فى جسمه . فأخذت أهنئهُ ذات

يوم بالشفاء والإبلال . من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة الأبدان . هي مِلاكُ السعادة للانسان . وأنك او جمعت نِعَمَ العالم للمريض . من مال ٍواسع وجاه ٍعريض . لانصرفتْ نفسهُ عنها انصراف الضب عن الماء والأرمدِ عن الضياء . والممعودِ [1] عن شهيّ الغذاء . وأنّ خاتم الياقوت فى الإصبع التى أصيبت بدُمل . لا يساوى عند صاحبهِ حبةً من خردل . وأن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس . ليُهونُ عند مفقور الظهر او مصدوع الرأس :

وَمَنْ يكُ ذَا فمٍ مُرّ مَريضٍ يجدْ مُرًّا به الماء الزُّلالاَ

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة . أراه قد زاد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة . فتحققتُ أن المرء انما يذكر النعيم فى البؤس ولا يذكر البؤس في النعيم . وينسى المرض فى الصحة ولا يذكر الصحة الا وهو سقيم . وقلّ من يحمد النعماء فى لبسها . ويدرك سعادة الحياة الا فى نحسها . فهذا معنى من معانى الآية الشريفة « وإذا مسّ الانسانَ الضرُّ دعانا لجَنْبِهِ أوقاعداً أو قائماً فلما كَشَفْنا عنهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنا الى ضُرٍّ مَسَّه » .

---

(١) الممعود الذى بمعدته وجع من مرض

فسألته عما دهاه . وأذهله عن شكر الله . فأجابني يقول . وهو في حال الخبل والذهول :

( الباشا ) — فِيمَ الهناء بكشف البلاء والضرر . وما انتقلت من خطرٍ الآ الى خطر :

فإنْ أسلمْ فما أبقَى ولكن سلمتُ من الحمام الى الحِمام

ألم تسمع مني بخبر انتشار الوباء في مصر بعد أن خلّفنا الطاعون في الاسكندرية . فما هذه الرزايا المتساقطة وما هذه البلايا المتلاحقة أوَكلما انتهينا من بلاء دخلنا في بلاء وانصرفنا من شقاء الى شقاء

(عيسى بن هشام). أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس — يغلب عليك الفزعُ والوسواس. وإن كنتَ جرَّبتَ في هذه الحياة شدة الألم . وذقتَ في القبر راحةَ العدم . وأنّ ما كنت تتمناه على دهرك . من الرجوع الى قبرك . عند اشتداد الكروب . مِن وقعِ الخطوب . لم يكن لشجاعةٍ في النفس . تستهين بسكْنَي الرمس . بل كان لضعفك عن احتمال الآلام . من نوازل الأيام . وأراك لا تزال مع صحة الدين . وقوة اليقين . ترهبُ الموت وتخشاه . وتَعتَوِرُك الأهوال من ذكراه . وهذا داء في الناس قديم . عزّ شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوفُ الرَّدَى آوَى الى الكهفِ أهلَهُ    وَعَلَّمَ نُوحًا وابنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ

وما استعذبتهُ رُوحُ مُوسى وآدمٍ    وقد وُعِدا من بعدهِ جنَّتَيْ عدْنِ

ولكنني لا أزيدك فى الموعظة ولا أخفف عنك من وَيلات الهواجس والوساوس بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة نافعة اطلعت عليها اليوم في بيان احوال الناس وتقسيم طبقاتهم فى اهوال هذا الوباء فان اردتَ تلوتُها عليك ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت

(الباشا) ـ هاتِ أسمعني لازلتَ للحق راويا . وللهدي داعيا

(عيسى بن هشام) قارئاً ـ « انما النوازل العظيمة والخطوب الجسيمة محك الطباع ومسبار الاخلاق فهى لشدّتها وَهوْلِها تكشف عن الناس مايخفونه عن الناس وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات فلا تتمالك النفوس ان تبقى علي التظاهر بما ليس فيها ولا التطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلى للناظر بما اشتملتْ عليه ضمائرها واحتوته سرائرها من قوة أو ضعف ومن فضيلة أونقيصة ومن علم اوجهل . وهنا يتمكن الباحث فى الاخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقق وهى مجردة أمامه من كل غشاء عاريةٌ من كل غطاء

« وليس فى باب النوازل والخطوب مايَهُولُ النفوسَ ويروع

القلوب أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء . فلذلك لانرى بأساً من الكلام بشيء مما يجده المستقرىء لأحوال الناس من طبقات المصريين وهم بين أيدى هذه النازلة العظمي والمحنة الكبرى

« فطبقة العامة اناس جبلوا فى مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء وتفويض الامر لأقدار السماء وهم لايعلمون من أمر الوباء ماجراثيم الداء ولا علة المرض والشفاء ولا سبب الهلاك والنجاء وليس فى قدرة قادر من البشر ان يزحزحهم عن اعتقادهم أويحولهم عن يقينهم ولا فى استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء ان يضع فى رؤوسهم ان الوقايه تمنع من المقدور وأن الحذر ينجى من المكتوب وأن طب الاطباء يؤجل في الاجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع فى رد القضاء المحتوم . وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية واسباب الحيطة اموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد فى عمرهم ساعة ولا تكف عنهم غرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الارواح . فهم بمعزل عن الخوف والهلع وفي امانٍ من الذعر والفزع وفي ضمانٍ من الوسواس والهواجس وإن كانوا مقيمين فى غفلة عما يجب عليهم

لانفسهم من المحافظة على صحة الابدان وتعهد الاجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع فى مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام « اعقلها وتوكل » لكنهم لايزالون على كل حال فى صحة من الارواح وان اعوزتهم صحة الابدان

« وطبقة الخاصه ونعنى بهم اهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون ايضا على التسليم لاحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والايمان بأنه لن ينالهم الاماقدره الله لهم ولاتفتأ تجرى ألسنتهم فى مثل هذه الاهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله : « ولكل أجل كتاب » : « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » : « قل إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم » . تعالى الله أحكم القائلين وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لامرد منه وأن الانسان عرضة له فى كل وقت ولحظة وأن طعمه واحد سواء كان بمرض الوباء أو صواعق السماء أو زلازل الارض أو كان بغصة شراب أو عثرة قدم أو لسعة حشرة وأن نفس المرء خطاه الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته فى كل حركة وسكون وعند كل قيام وقعود :

وما نفسٌ إلاّ يُباعدُ مَوْلداً ويُدني المنايا للنفوس فتقربُ

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحيّ حيٌ للفناء . وأنه مقيم من دنياه أبداً في أرضِ وباءٍ وإن لم يكن ثَمّ وباء :

ماخصّ مصراً وباءٌ وحدَها بل كائنٌ فى كلِّ مصرٍ وبَا

وأنّ مَنْ فرّ من المقدور فعلَي المقدور نَزَل . ومَنْ هرب من القضاء فإلى القضاء رَحَل :

مهلاً أمِنْ وباٍ فَررتَ وهل ترَى فى الدهرِ الاّ منزلاً مَوْبُواً

وأنّ مَنْ حانت منيته . لم تنفعه تقيته . ومَنْ حلّ أجلُه . لم يحمِه وَجَلُه :

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا ينلْنَهُ ولو رَامَ أسبابَ السماء بِسُلّمِ

إلاّ أنهم مع ذلك كلهِ لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقية والحذر ولا فى العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها فى حفظ صحة الأبدان وما يقرره أهلُ صناعة الطب من سبل التوقى والتحرس إتقاء لِمَا نُهُوا عنه من الإلقاء بالأيدى الى التهلكة واحتذاء لما ترسمه ظروف الاحوال وتقضى به احكام الازمان ولا يجدون الطاعة لاشارة الاطباء فى مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً وإن لم يكن من ورائها فائدة فليس فى عقباها مضرة .

فتراهم لذلك فى أجَلّ مقامٍ من شجاعة القلب وقوةِ النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين وعلى أحسن حال من سلامة الجسم وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام بما يرشد اليه من وسائط الوقاية . لاسلطة للوساوس والهَوَاجس عليهم ولا محل للرعب والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحدمنهم بالروح السليمة فى الجسم السليم

«وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء لم يرسخ الايمان فى قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ولم يتأدبوا بأدب الدين ولم يرتاحوا الحسن اليقين بل اقتصرت بضاعتهم على ماتلقوه فى المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية وخلَتْ صدورهم من آيات الله والحكمة قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع ومعرفة الحقائق ورياضة القلوب على التجلد والثبات عند وقوع المكروه ونزول الملمات فتجدهم قدظهروا للناس فى هذه النازلة الوبائية وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلقِ الله نفوساً وأجبَنَهُم قلوباً وأكثرَهم هوَساً ووسواساً وأشدّهم

قلقا واضطرابا وأعظمهم خوفا ورعبا وأكبرهم بلاء وكربا يتمثل لهم الموت فى أعينهم على أفظع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم ويهابون دنوه وهو آخذ بتلابيبهم . حل الخوف مفاصلهم واستل الرعب نخاعهم فهم يرون فى كل عود نعشا لهم ويحسبون كل صيحة عليهم أولئك لا إيمان لهم يثبت أقدامهم ولا علم لديهم يرجح أحلامهم بل هم على مثل حال المغشى عليه من الموت أو الممسوس من الشيطان يتوهمون طعم الموت ومذاق الوباء فى تنفس الهواء وتناول الغذاء وشرب الماء وملامسة الأيدى ومخاطبة الناس فاذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدباء تحمل أحد المصابين بالوباء جمد دمه وسال عرقه وخمدت أنفاسه والتوت اعصابه وأمسك من بجانبه يستنجده ويستغيث ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم فى حالهم هذه من الخور والهلع والفزع والجزع الا بمثل أناس قضى عليهم بالاعدام لوقتهم فهم وقوف بين يدى الجلاد والسياف اذا قدم احدهم للسيف والنطع مات الذى يليه من الخوف قبل القتل . ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليله ونهاره عساها تجهله كيف اطمأنت به الحال . ومنهم من يبالغ ويغالى فى تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه

الاطباء لقتل الجراثيم فهو يشربها ويستعطها ويدهن بها جسده ويغمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويغسل بها آنية طعامه وشرابه وكلما سمع بزيادة المدد فى المصابين زاد فى مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم حتى أصبحت أجسامهم مسمومة وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم مغبرة وأناملهم مصفرة ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » اذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل لولا ان هؤلاء يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والفناء . ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة ومن أعظم الاسباب فى رأى الاطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم وهم اصحاب الارواح السقيمة فى الاجسام السقيمة لهم النكد فى هذه الدنيا ولهم الخزى فى الآخرة »

ـ فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات

( الباشا ) ـ ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتني وأرشدتني الا فى طبقة أهل الخاصة الذين يسلّمون للقضاء والقدر ويعملون بالحيطة والحذر لكنني مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء وأرغب فى التخلص من النظر إليهم وهم فى مثل أهوال القيامة

من الفزع والهلع وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارنا وهمومنا وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام - وخشيتُ على الباشا إن أنا تركتُهُ في هذه الحال غريقَ أفكاره. وأسيرَ همومه وأكداره. ان يَنتوِيَهُ الانتكاس. ويعترِيَهُ الارتكاس.[١] والنكسةُ بعد البِلّة. شرّ أطوار العلة. فبادرتُ الى طاعته. وامتثال اشارته. فاخترت له من ضواحي المدينة مكانا قصيا. ومسكنا مَرْضيا

---

## ﴿ العزلة في العلم والادب ﴾

قال عيسى بن هشام - واعتزلتُ بالباشا مدة من الدهر. نستملح العزلة ونستعذب عليها الصبر. ونعيش فيها عيش الحكماء. من حسن الرضاء بحسن الاكتفاء. ونستروح راحة البعد عن هذا العالَم وأذاه. وإغماضِ الجفون على قذاه. مؤتنسين كل الائتناس. بالوحشة من الناس. بعد الذى شهِدْنا من أعمالهم ورَأَيْنا. وسمعنا من أقوالهم ووَعَيْنا. وقاسَيْنا من عشرتهم ما قاسينا:

---

(١) الارتكاس كالانتكاس

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئب إذْ عوَى
وصوَّت إنسان فكدتُ أطيرُ

إن سالمتهم حاربوك. وإنْ وادعتهم ناصبوك. وإنْ صادقتهم عادوك. وإنْ واثقتهم كادوك. واذا خالطتهم لا تأمن الاعتداء. واذا مازجتهم لا تعدم الافتراء. واذا طالبتهم بحقٍ فانك لا تُسمع الصُمَّ الدعاء:

فلو خبرتهمُ الجوزاء خُبْري لَمَا طلعت مخافة ان تكادا

ولو أنك لم تخالطهم الا في مجالس أنسهم وصفوهم. ومعاهد لعبهم ولهوهم. لم تجنِ منها الا كلَّ ما يبعد وينفر. وينغّص ويكدّر. تدخلها اذا دخلتَها مُسترِوِحاً مستبشرا. وتخرج عنها مستقبحاً مستنكرا. فميشتهم في كلتا الحالتين قرارةُ معائب. ومجتمع نقائص ومثالب. ومنابت اكدار. وينابيع اضرار. ولا راحة في الدنيا الا لمن تنسك وتزهد. ولا سلامة من الخلق الا لمن اعتزل وتوحد. وأبعدُ الناس عن معاشرة البرايا. أقربهم الى كرم السجايا:

بُعدِي عن الناسِ بُرْءٌ من سقامهمُ وقربُهمْ للحجَي والدِّين أدواء
كالبيتِ أُفردَ لا إيطاء يدركهُ ولا سِنادَ ولا في اللفظِ إقواء[1]

وعكفتُ مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب. وأنتقل به من

(١) الايطاء والسناد والاقواء من عيوب القافية

مطلب الى مطلب. فى مطالعة الاسفار والكتب. من تاريخ وأدب. ومن حِكَم متينةٍ قويمة. وشتى علوم حديثةٍ وقديمة. أهديه من كل طرف بطُرفة. وأتحفه من كل باب بتحفة. وأجتنب معه مايدعو الى الضجر والملل. ويُدنى من الكد والكلل. فتارةً أخوض معه عُباب البحار. وطوراً أجتاز به سراب القفار. فنرى مَنْ يحرق فى البحر مراكبه. ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه. ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته. ويشبّبُ بمعشوقته. ثم لا يقعد به ذلُّ الغرام. عن التفاخر بعزِّ الكرام. ولا ينسيه ذكرُ الهوى. مواقفَ الحتفِ والردى. فيخلط بالغزل الفخر. ويخاطب صاحبته من جوف القفر:

إنّا مُحيّوكِ ياسَلْمَى فحيّينَا ... وإنْ سقَيتِ كرامَ النّاسِ فاسقْينَا
وإن دعوتِ الى جُلّى ومكرمةٍ ... يوماً سَراةَ كرامِ الناسِ فادعينا
إن تَبْتَدِرْ غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ ... تَلْقَ السوابقَ منّا والمُصَلّينا[1]
وليس يَهلكُ منّا سيدٌ أبداً ... الاّ افتلَينا[2] غلاماً سيداً فينا
إنا لَنُرخصُ يومَ الروعِ أنفسَنَا ... ولو نُسامُ بها فى الأمن أُغلينا
بِيضٌ مفارقُنا تغلى مراجلُنا ... نأسُو بأموالنا آثارَ أيدينا
إنى لَمِنْ معشرٍ أفنَى أوائلَهُم ... قِيلُ الكُماةِ ألاَ أيْنَ الحامونا

(١) المصلى السابق (٢) افتلى استخرج



اذا الكُماةُ تَنَحَّوْا أن يصيبهمُ حدُّ الظُّبَاتِ وصلناها بأيدينا

ونرى الناقةَ تَطرب تحته الى مواطنها . وتشتاق الى معاطنها . فتحنّ حنينه . وتئنّ أنينه . وكلما رآها تشكو مثل شكواه . وتُصغي بأذنها الى نجواه . وتُردّد برُغائها صَداه (١) . وتُسعده بترجيعها في هواه . تأوّه وتنهّد . وترنّم فأنشد :

لقد زارني طيفُ الخيالِ فهاجني فهل زارهذي الإبلَ طيفُ خيالِ

لعل كَرَاها قد أراها جِذَابَها ذوائبَ طَلْحٍ بالعقيق وضَالِ

وَمَسْرَحَهَا في ظلِّ أحوَى كأنها اذا ظهرتْ فيه ذواتُ حجالِ

تَلَوْنَ زَبُوراً في الحنين مُنزّلاً عليهنّ فيه الصبرُ غيرُ حلالِ

وأنشدْنَ من شعر المطايا قصيدةً وأوْدَعْنَهَا في الشوق كلّ مقالِ

ثم ننتقل الى مشاهدة المعامع المشهورة . والوقائع المذكورة . فنرى الدماء تجرى أنهاراً في الوديان . والمُهَجَ تسيل انحداراً من من مسايل الأبدان . والموتَ واقفاً يحصد الرؤوس . ويجني نفائس النفوس . والفارسَ يمشى في الصفوف مِشية الخُيَلاء . ويطعن برمحه كلّ طعنةٍ نجلاء . ثم ينشد في وصف أثَرِها . وبُعدِ غورْها :

طعنتُ أبن عبدِ القيس طعنةَ ثائرٍ لها نفَذٌ لولا الشعاعُ أضاءها

---

(١) الرغاء صوت الناقة

ملكتُ بها كفي فأنهرتُ فتقها  يرى قائم من دونها ما وراءها

يهون على أن تردّ جراحها  عيون الأواسي اذ حمدت بلاءها

أو يقول فيها :

أضربُ الضربة القريغ[1] كفي البا  زل[2] أحيا له المرارُ مريرا[3]

برسوب[4] يهوى الى ثبرة[5] الما  ء ولو أنه أصاب ثبيرا

هدرُها يُسكت البليغ ولو زا  د على المُصعب[6] الأغرّ هديرا

كالقليب[7] النزوع فى القلب لا تُنْ  بط الا الدم الغريض[8] الزّبيرا

أسهرتهُ وأهلهُ وهى كالمغْ  مور نوما تحسّ منها شخيرا

أو يقول فى وصفها أيضاً :

غارتْ وفارتْ وألقى من يمارسها  فيها العمائمَ أبدالاً من القُلل

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفىء نارُها . ولا يخمد أوارها . الا وقد غادرت النساء أيامى . والاطفالَ يتامى . والاموالَ نهباً منهوبا . والأعلاقَ سلَباً مسلوبا . والمدائنَ خالية خاوية . والقصورَ بائدة بالية . والحربُ ينخذل فيها القوى لأوهى سبب . وينتصر

(١) القريغ الواسع (٢) البازل البعير فى السنة التاسعة (٣) المرار شجر يقلص مشافر الابل والمرير الشدة (٤) الرسوب السيف يغيب فى الضريبة (٥) الثبرة مقر الماء من الارض (٦) المصعب الفحل الصعب (القريض الطرى (٨) الزبير الطين

الضعيف من حيث لا يحتسب. فكم دالت بها الدول ودارت الدوائر وانثلت العروش وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود. وبساط المجد الممدود. وبعد ذلك التناهي في العظَمُوت. والتمادي في الجبرُوت. وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطُها. ويخطر في الخيال هبوطُها. كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر. اذا نزل القضاءُ وحُمَّ القدر. وكل مُلْك مهما امتدّ ظلهُ زائل. وعند التناهي يَقْصُر المتطاول

ثم أدخَلُ به في مطالعتنا الى حَلْقة حكيم واعظ يسلب الالباب بقوة بيانه. ويجلب العقول بضوء برهانه. ويسترقّ النفوس بطلاقة لسانه. ويقول في حقارة الغنى وهوَانه:

«أيها الناس والله لَدُنياكم هذه أهوَن عندي من عُرقٍ (١) كلبٍ في يد مجذوم»

« والمخيَّرُ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا كالمخيَّر بين أن يكون مالكا أو مملوكا

من سرّه أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتخذْ شيئاً يخاف له فقدا

« والحياة الطيبة هى حياة الغنيَ والغنيَ هو القنوع لانه اذا كان الغنى عدم الحاجة الى الناس فأغنى الناسِ أقلُّهم حاجة الى

---

(١) العراق العظم أكل لحمه

الناس ولذلك كان الله تعالى أغنى الاغنياء

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة
فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

ويقول في محاسن الاخلاق : « الجودُ حارس الأعراض والحلمُ فِدامُ [1] السفيه . والعفوُ زكاة الظفر . والاستشارة عين الهداية . وأشرفُ الغنى تركُ المُنَى . وكم من عقلٍ أسير عند هوى أمير . ومِنَ التوفيق حفظ التجربة ومَنْ لانَ عودُهُ كثفت أغصانهُ . ومن لانت كلمته وجبت محبته »

ويقول في مساوىء الصفات : « الكاذبُ في نهاية البعد من الفضل والمُرائي أسوأ حالاً من الكاذب لانهُ يكذب فعلاً وذلك يكذب قولاً والفعلُ آكدُ من القول . فأما المعجب بنفسهِ فأسوأ حالاً منهما لانهما يَريانِ نقص أنفسهما ويُريدانِ إخفاءهُ والمعجبُ بنفسه قد عَمِيَ عن عيوب نفسه فيراها محاسنَ ويُبديها . واني لأعجب للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب ويفوته الذى إياه طَلَب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسَب في الآخرة حساب الاغنياء . وأعجبُ للمتكبر الذى

(١) الفدام الخرقة على فم الابريق

كان بالأمس نطفـة وفى الغد جيفـة . وأعجب لمن يغفل صبرَه ويشكو الى الناس دهره فان كان عدوًّا سرَّه وان كان صديقاً أساءه وليس مسرّةُ العدو ولامَسَاءةُ الصديق بمحمودة .

ولاتَشَكَّ الى خلق فتُشْمِتَهُ    شكوَى الجريح الى العقبان والرَّخَم

« والعجز عجزان أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثانى الجدُّ فى طلبه وقدفات

ويقول فى ذكر الحياة والموت : « انما المرؤ فى الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب ومع كلّ جرعة شَرَق وفى كل أكلة غَصَص ولاينال العبدُ نعمةً الاّ بفراق أخرى ولايستقبل يوماً من عمره الاَّ بفراق آخرمن أجَلِه فنحن أعوان المنون وأنفسنُا نُصبَ الحُتوف فمِنْ أين نرجو البقاءَ وهـذا الليل والنهارَ لم يَرفعا من شىء شرفاً الا أسرعاَ الـكرة فى هدم مابَنَيا وتفريق ما جَمَعَا . وعجبتُ لمن نسى الموت وهو يرى مَن يموت »

ويقول فى وصف العلماء : «الخيرّ من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ويعذره بنقصه فى مافرط منه ولايعذر نفسه فى التأخر عن هدايته

ثم يختم وعظه بقوله :

الدّينُ إنصافُكَ الاقوامَ كلَّهمُ ... وأيُّ دِينٍ لآبي الحقّ إنْ وَجَبَا
والمرءُ يُعييه قَوْدُ النفس مصحبةً ... للخير وهو يقود العسكرَ اللجبا[1]

اللهم اكفني بوائق الثقات ومكائد الاصدقاء »

ثم أنتهي بصاحبي الى مجالس محاضرات بين الادباء. ومفاكهات بين الندماء. فنقرأ من لطيف بوادرهم. ورقيق نوادرهم. ما ينير ظلمة الفهوم. ويجلو صَدأَ الهموم :

لفظٌ كأنّ معاني السكر تسكنهُ ... فَمَن تحفّظَ شيئاً منهُ لم يفقِ
جزْلٌ يُشجّعُ مَنْ وَافى لهُ أذُناً ... فهو الدواء لداء الجبن والقلق
اذا ترنّمَ شادٍ للجبانِ بهِ ... لاقى المنايا بلاخوف ولا فرَقِ
وإنْ تمثّلَ صادٍ للصخور بهِ ... جادتْ عليه بعذْب غير ذي رَنَقِ

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائس الأعلاق. من بطون الاوراق. وأقتطف معه زهر الأدب العاطر. من حدائق الكتب والدفاتر. الى أن قال لي ذات يوم. بين ندم ولوم :

(الباشا) — إنّ أعظم ما آسفُ عليه اليومَ تلك الايام التي أضعتُها من سالف عمري في ما لا يُجدِي ولا يفيد. من مشاغل الدهر وملاهي

---

(١) اللجب الجيش ذو الجلبة

العيش ويا ليتني كنت قصرت همي منذ صباي على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً أتنقل من مطالعة الكتب الى مذاكرة العلماء ومن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء الى مطارحة الادباء . ويعلم الله أن أسفي ليزيد شدة وأن ندمي ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثونني به في أيام دولتي عن مجالس العلم والادب فما كنت آبه لها ولا أنتبه اليها وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والردن (١) والحمد لله الذي أرشدني الى الهدى آخر الدهر فعلمت مقدار هذه النعمة التي حببت الي الحياة ثانية وهونت علي احتمال متاعبها وما إخالك تبخل علي بعد الآن وقد علمت نفع ذلك لي بمداومة السير معي في هذا الطريق الحميد. وما أرى من بأس في أن نترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس في مجالس الادب ومجامع الفضل وأندية العلم لنتذاكر معهم ما نطالعه ونأخذ عنهم ما يحفظونه . وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين والحمد لله رب العالمين

---

(١) الردن مثل الغزل

( عيسى بن هشام ) ـ لا تطمعنّ أيها الامير ـ دَفَعَ اللهُ عنك المكاره ـ فى مثل هذه المجالس فقد طرتها الايام ورمتها الليالى ولم يبق اليوم مَنْ يأنس اليها وينافس فيها

(الباشا) ـ كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعدّدِ الطالبين وسهولةِ الحصول على الكتب ووفرةِ المطابع وإطلاق الافكار من القيود . وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الاول من تعسّر الوصول الى الكتب وتعذّرِ استنساخها لضنّ أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئاً هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الانتفاع بها ان لم يكن ذا ثروة واسعة تمكّنه من استنساخها أو ابتياعها فلا بدع اليوم أن يكون فى يد كل مصرىّ كتابٌ يطالعه وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح فى العلوم والفنون أليفَ محاضرة وحليفَ مذاكرة تُزدَهى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب وكيف لا يكون ذلك وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنسانى حلاوة كل لذة فى العالم

(عيسى بن هشام) - نعم شاعت العلوم فى هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ولكن قلّ بيننا عدد الراغبين فيها والطالعين لها فكسد سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الامور الباطلة والاشياء التافهة ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل . والناس اليوم فى حركة لا شرقية ولا غربية قد اشتغل بعضهم ببعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتعطلت بينهم مجالس العلم واندرست مجامع الادب واقتصروا على مطالعة اخبارهم فى الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب . وأنَّى يكون لهم الاستقرار فى المجالس وهم لا يستقرون فى مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون عن نقلة وسفر وا كثر ما يكون جلوسهم في المركبات مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء وأهل اليسار منهم يقضون جزأ من شهور العام مترحلين فى بلاد الاجانب متنقلين فى ديار الغربة للنزهة والتفكّه . وقصارَي العلمِ عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتا منه فى المدرسة وأطرافا وهو بالسنّ التى لم يصل فيها بعدُ الى تمام التعقل وكمال الادراك فيحفظها ويؤديها كالببغاء فان اسعده الحظ

فى آخر الدراسة ونجح عند الامتحان تأبط صك الشهادة ونفض يده من تلك العلوم وطرحها عنه طرح الثوب الخلق ونبذها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماء[1] وماجف من زاد انتقاما لنفسه مما عاناه من مشقة وقاساه من تعب فى درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية فى ذاتها أو يذوق لها حلاوة فى طعمها فاذا هو بلغ إربته ودخل فى خدمة الحكومة أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء وقل فيهم بعد ذلك من يصبو الى العلم وأهله أو يحن الى الادب وكتبه ولئن مال بعضهم للمطالعة فانها لا تجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك فى الاشغال المتجددة فلا يقوى احدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الا وقد بلده الأرق ودهمه الكلال والملال ونزل به الضجر والسأم وانك لترى مثل هذا بيننا فى حديثهم فهم لا ينصتون الى قصة متصلة ولا يتبعون فى الكلام قضية مرتبة ولا يعجبهم منه الا ما كان متقطعا مبتورا أو مقتضبا مجذوما

(الباشا) ـ ما اكاد أخليك أيها الصديق من غلو فى وصف هذه

(١) اسن الماء تغير ولم يشرب

الحال . وهل خلا أو يخلو زمان فى البداوة كان أو فى الحضارة من مجالس للعلم ومجامع للفضل وأسواق للادب وما كان زماننا الذى كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والامراء ممن لا نصيب لهم من العلم والادب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد أو فاضل أريب أو نديم أديب أو محدّث ظريف تتفكه به النفوس وتستريح له القلوب هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلم بعيد التناول فما بالكم اليوم على هذه الحال التى تصف والصحف منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة

(عيسى بن هشام) — قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والادب وقصروا هممهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة والادوات المصنعة من عمل الغربيين فترى الكبير أو العظيم يقلّب فى يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً أو الساعة التى ترنّ بعدد الثوانى وهو يعتقد أنها أجلّ قيمة فى العين وأجمل أثراً فى النفس من جميع العلوم التى تستضىء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التى تصفو ساعات الحياة بمطالعتها . ولا تتوهمنّ أننى أجزم لك بخلوّ هذا الزمن عن مجالس للعلم ومحافل للادب وما كان كلامى الاّ على الوجه الأعم . وقد آن أن أجيبك الى ما طلبت فأزور بك بعض المجالس

والمحافل لينقطع ريبك. وليطمئن قلبك

---

## ﴿ علماء الدين ﴾

قال عيسى بن هشام ـ فتخيرتُ من مُنتدَيات اليوم . ومجتمعات القوم . ما يقوم بوفاء العهد . وإنجاز الوعد . ليقف الباشا بنفسه على ما يجرى فيها من ظواهرها وخوافيها . ورأيت أن أبدأ منها بزيارة السادة الأعلام . من علماء الإسلام . مصابيح الدين . ونباريس (١) اليقين . ونجوم الإرشاد . ورجوم الإلحاد . ونُصَرَاء الحق . وخُلَفَاء الصدق . وهُدَاةِ كل ضالٍ ومارق . ودُعَاة الخلق الى معرفة الخالق . تيمناً بشرف مكانهم . وتبركاً بنور إيمانهم . فقصدنا مجلساً لهم جمعَ كلَّ أغرَّ منهم محجَّل . وكلَّ معظَّم فيهم مبجَّل . فوجدناهم قد تبوَّؤا المقاعد . بين المقالم والمحابر . وتوسدوا الوسائد . بين المساعط والمجامر . فسلمنا وجلسنا . وتكلمنا واستأنسنا . ثم أطرقنا نستجمع قُوى الادراك والعقل . لنلتقط ما ينتثر عن أفواههم من درر العلم والفضل . واذا بِهم يخوضون منذ البداية الى النهاية . فى حديث غريب الرواية . لطيف الحكاية . فسمعنا أحدهم يقول لصاحبه فيما يبسطه ويقرره .

---

(١) النبراس المصباح

ويعيده ويكرره :

(احد المشايخ) ـ لقد وهمتَ يا مولانا في زعمك ان امتلاك الاطيان والجسور . خير من اقتناء الابنية والدُّور . فقد جرَّبتُ كلا الموردَيْن، واستقيتُ من المصدرَيْن فوجدت دخل البناء أعظم ربحا وأقل خطراً وأثبت حالاً في تعاقب الصعود والهبوط خصوصاً اذا كان الصقع جيداً والموقع عامراً وكان الساكن فيه من جماعة الافرنجة الذين هم أقلُّ من المسلمين عيالاً وأخفُّ على البناء وطأة وأهون على الدار ثقلاً فلا يدقون ولا يطحنون ولا يعجنون ولا يخبزون ولا يغسلون ولا يستحمّون ولا يقبلون عندهم اقارب او ضيوفاً ولا يملأون البيت خدماً وغلماناً وبهذا ينتفي ما ذهبتَ الى تقريره آنفاً من أن البناء سريع العطب متطلب لدوام النفقة

(شيخ ثانٍ) ـ ولكنك أيها الاستاذ حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء وتسرَّعتَ بالحكم على المسألة والقطع في القضية فأين أنت من بقية الطوارئ والنوازل في البناء وأين انت من الحريق والزلازل اللهم الا ان يكون هناك خروجٌ عن رأي الجماعة ودخولٌ في مذهب الذين يقولون بتحليل التأمين على البناء عند شركات الإفرنجة وادّخارِ العوض فيها لسد الخسارة عند وقوع الخطب

(جميع المشايخ) ـ نعوذ بالله من شر البدع ونبرأ اليه من تحليل المحارم

(شيخ ثالث) ـ وأين أنت فى الاطيان أيضاً من النداوة والدودة ومن الشرق والغرق

(الشيخ الثانى) ـ من المسلّم أن يصيب الاطيانَ بعضُ ما ذكّرتنا إياه ولكنها لاتزال عينها باقيةً ويُرَجى فيها أن تعوّض سنة خسارة أختها أما البناء فانه يزول من اساسه بنكبة من تلك النكبات التى تأتيك بغتةً وتنزل عليك فجأة وتذهب بالجدار هباءً ولا سبيل الى الانتفاع بأرضه الا بانشاء البناء وتجديده

(الشيخ الأول) ـ لكم دينكم ولى دين . فلست أتحوّل عن فكرى ولا انزل عن رأيى فى فضل البناء على الاطيان وقد عوّلتُ على بيع المنزل الذى بحارة النصارى لأشترى بثمنه بعض الاطيان المجاورة لاطيانى بناحيتنا لتخلص لى اطيان الناحية كلها

(شيخ رابع) ـ أيعزب عنكم بارك الله فيكم ان ربح التجارة خير من هذا وذاك وهو الربح المستتر عن النظر المحتجب عن اصابة العين المحفوف بالبركة والنمو على الدوام . ومَنْ منكم بلغ من الثروة بأطيانه أو أبنيته ما بلغهُ مثل الشيخ فلان رحمة الله على الجميع من

التجارة والبيع

(الشيخ الثانى) ـ نعم ان التجارة لكمَا ذكرتَ لولا ما فيها من المشاغل والمتاعب ولولا ما تحدثهُ من التلهِّي عن العلم والدرس

(الشيخ الثالث) ـ لقد كان شيخنا المرحوم الذى نحن بصدده يُعَدُّ من اكابر التجار وأعاظم اهل البيع والشراء فلم تلهه تجارته عن التقدم فى مراتب العلم والتعلق بالمناصب العالية ولم تشغله عن افادة الطلبة بدروسه وتقاريره وبشروحه وحواشيه : وهؤلاء تلاميذه ممن تزدانُ بهم اليوم حلقات الدروس وتفتخر بهم مجالس العلم يشهدون على ما أقول

(الشيخ الرابع) ـ متأسفاً متحسراً :

وإذا السعادةُ لاحظتك عيونُها ... نَمْ فالمخاوفُ كلهنَّ أمانُ

(شيخ خامس) ـ لكنما الأضمنُ عندى والأوثق فى هذا الشأن أن يضع المرءُ ماليديهِ من فضة ونضار عند مَنْ يثق به ويعتمد عليه من خيرة التجار فيشتغل لهُ فى التجارة ويضاعف له الربح والكسب فيأتيه من ذلك رزقهُ عفواً صفواً بدون اشتغال فكر أو تعب جسم أو إضاعة وقت

(شيخ سادس) ـ لقد فاتنى ان أخبركم بما سمعته من فلان باشا وهو ان الربح كل الربح أصبح اليوم فى مشترى اسهم الشركات وأنه

قصر سعيه فى نمو الثروة عليه . ولـكن ماقولكم دام فضلكم فى هذه الاسهم أيحلّ التعامل بها أم يحرم

(الجميع) ـ وهذه أيضاً بدعة البدع

(شيخ سابع) ـ نعم وإنْ كانت المسألة «خلافية» . وليس عندى أوثق ولا أضمن من ادّخار ذهبى فى صندوق تحت يدى وأمام عينى يصبح لى سالماً وأبيت عليهِ آمناً . وعلى ذكر فلان باشا هل عندكم من خبر عن تزويج ابنته من فلان بك

(الشيخ السادس) ـ نعم بلغني ان الخطبة تمت بينهما

(الشيخ السابع) ـ ومتى يكون العقد

(الشيخ السادس) ـ لا تطمعنّ أيها الاستاذ فى الدعوة لعقد الزواج وتناولِ الهدية ولا يطمعنّ فيها أحد منا بعد أن علمتم أن جماعة الكبراء والعلماء قد حكروا عقد العقود على اثنين من أرباب المناصبِ العالية بيننا حباً فى السمعة والفخفخة فهم يتباهون يوم العقد مثلاً بوجود الشيخ محمد كما يتباهون ليلة الزفاف بوجود الشيخ يوسف

(الشيخ الخامس) ـ الشىء بالشىء يُذكر فهل بلغتكم الدعوة الى عرس فلان

(الجميع) ـ نشهد أن الدعوة بلغتنا جميعاً

(الشيخ السابع) ـ نعم ولقد أجّلتُ سفرى الى الريف حتى أجيبها معكم

(الجميع) ـ أحسنتَ وأصبتَ فان المجاملة تقضى بذلك

(الشيخ الثالث) ـ والله لولا أن سعادة فلان باشا دعانى الى العشاء معه فى هذه الليلة الموعودة وأن فى نفسى قضاء حاجة عنده لكنت معكم أيضاً ولكنى اخاف ضياع الفرصة فقد روى لى سائق مركبتى ان عنده حصاناً عتيقاً هو فى غنى عنه وأنه مشابه لحصانى فى الطول والشعرة ولى أمل أن أبتاعه من سعادته بعد العشاء بعاطفٍ من القيمة وخفٍ من الثمن

(الشيخ الخامس) ـ ولكن عسى الله ان يكون مجلسه خاليا فى هذه المرة من وجود مثل ذلك السفيه الذي كدّر علينا مجلسنا حين كنتُ معك بسوء المجادلة فانه خيّبه الله كان يحتج علينا فى تحليل التحلى بمصوغات الذهب بأن فلاناً من العلماء يحمل ساعةً من ذهب غير ملتفت الى اختلاف المذاهب فى هذا الباب ولو كان الشيخ الذى سمّاه ممن يهتدى بنور العلم لمَا جعل لمثل هذا السفيه سبيلاً فى الاحتجاج علينا

(الشيخ الرابع) ـ قلْ ماشئتَ فى هذه الايام التى اجترأ فيها أرباب

الطرابيش على أرباب العمائم بمباحثتهم ومجادلتهم ومناقشتهم ومزاحمتهم لهم فى علومهم وأين نحن من تلك الايام الماضية وما كان عليه العلم والعلماء من العز ورفعة القدر ووقوف الناس عند حدهم والتزامهم الصمت وحسن الاذعان والتسليم فى مجالس العلماء مع التوقير والتعظيم والاجلال والاكرام لكل من اتسم بسمة العلم حتى كأنه قد كتب على صدر كل واحد منهم نص الحديثين الشريفين: «العلماء ورثة الانبياء» و«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل». وكيف لا يكون الخطب جليلاً والمصاب عظيماً أم كيف لا تنهل العين بالدم دون الدمع وهؤلاء المتشدقون لم يكتفوا بالاقدام على مجادلة العلماء بل أقدموا على تجهيلهم فى العلم وسعوا فى إدخال بعض العلوم المحدثة المبتدعة فى حلقات دروس العلم الطاهرة ليجعلوا كبار علماء الدين الذين لا يكترثون بهذه العلوم الباطلة كالتلامذة لهم. فانظروا الى أين وصلت بهم الجراءة والوقاحة. على أن علومهم هذه ليست بنافعة فى الواقع ونفس الامر وما هي والعياذ بالله الاّ مدرجة للزيغ ومزلقة عن الصراط يستدرجهم الشيطانُ بها من حيث لا يشعرون وأنتم تعلمون أن فى معرفة قواعد الحساب الأربع مثلاً ما يغنى عن التبحر والتعمق كما يفعلون فى علم الحساب ليتدرجوا بالطالب الى علوم

الفلسفة المقوتة ويبثوه على الزندقة والإلحاد وقانا الله كيد الخائنين ومكر الماكرين

(الشيخ الثالث) ـ وعندك من هذه العلوم أيضا علم التاريخ فانه عبارة عن الاشتغال بالاقاصيص والاساطير ولا بد أن يجر صاحبه الى الخوض فى سيرة الصحابة رضى الله عنهم وما وقع بينهم من الحروب مما نهى الشرع عنه بنص الحديث : « اذا أفضيتم الى ذكر أصحابى فأمسكوا » ويكفى من هذا العلم كله أن يحيط المرء بما جاء فى «السيرة الحلبية» وحدها

(الشيخ الثانى) ـ خبرونى ناشدتكم الله ماهذا العلم من علومهم الذى يسمونه « الجغرافيا »

(الشيخ الثالث) ـ هذا هو الذى يقال له عندنا علم تخطيط البلدان ولو كان قاصرا عندهم على ذلك لما كان ضارا ولا نافعا ولكن ضرره عظيم ومغبته وخيمة بما امتزج فيه من نسبة الدوران للارض والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التى يكذبها العيان ولا يقوم عليها البرهان مثل زعمهم أن مطر السماء من جوف البحر وأن السحاب أبخرة متكاثفة وأن الرعد والبرق من احتكاك السحب بضغط الهواء مما ينافى العلل المعروفة المعقولة

بيننا ويناقض ما رواه كعب الاحبار من أن السحاب من ورق الجنة وأن الرعد صوت مَلَكٍ يسوق السحاب وأن البرق لمعانُ حربةٍ بيده . وأين هم حَسْبُهُم الله مما رُوى عن ثبات الارض وأنها محمولة على قرن ثور والثورُ محمول على صخرة والصخرةُ على ظهر حوتٍ سابحٍ في الماء وأن أول ما يأكل أهلُ الجنة من كبد ذلك الحوت

على أننا لو طالعنا كتبهم التي يرون أنهم فاقوا بها الأوائل والأواخر بزعمهم ووصلوا بها في علم تخطيط البلدان الى مالم يصل اليه سواهم بدعواهم لوجدناها عاجزة في الاحاطة والافادة عما بلغته « خريدة العجائب » وحدها للامام ابن الوردي فاننا لم نسمع أنهُ ذُكِرَ في كتبهم من عجائب المخلوقات مثل ما ذُكِرَ منها في الخريدة كبلاد « واق الواق » التي يثمر شجرها بالكواعب الأتراب معلقة من شعورها في ذوائب الاغصان وكلما أشرقت عليها الشمس صاحت: واق واق . سبحان الملك الخلاق . ومِنْ مثل ما ذكر في « بدائع الزهور ووقائع الدهور » عن الشيخ حامد أنه بلغ في رحلته منبع النيل بعد أن عَبَرَ اليه البحر الاسود على ظهر دابةٍ تعبد الشمس فاذا أشرقت الشمس على أحد شاطئيه أتَتْ الى ذلك الشاطئ ولا تزال دائرة مع الشمس حتى تصل الى الشاطئ الآخر . وقد رأى

الشيخ حامد النيل يجرى فى ذلك البحر كالخيط الأبيض فى الثوب الاسود ووجده يخرج من قبة من ياقوتة حمراء وراء جبل قاف وأن ماءه هناك أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وهذه القبة يخرج منها أيضاً ثلاثة أنهر وهي سيحون وجيحون والفرات . فهل وصل القوم الى معرفة مثل هذه الحقائق فى بدائع المخلوقات الى اليوم وهل عندهم من أثر لذلك فى كتبهم المحدثة وعلومهم المبتدعة

(الشيخ الرابع) — تالله إنا انى زمن أصبح القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر فى جانب هذه البدع الافرنجية « ومن يضلل الله فما له من هاد »

(الشيخ الاول) — اذكروا لى بالله عليكم ماذا حصل طلاب هذه العلوم الجديدة منها وماذا أفادوه وهل سمعتم يوماً أن أحدهم نفع الناس فوضع لهم متناً أو شرحاً على متن أو حاشية على شرح أو تقريراً على حاشية أو اختصر مطولاً أو طول مختصراً

(الشيخ الثانى) — ما أعجزهم عن مثل ذلك وأقصرهم وجل ما فى طاقتهم أنهم يكتبون المقالات فى تعييرنا باضاعة العمر فى هذه الاعمال النافعة ويسعون جهدهم فى إبطال ما ندرسه منها . وهل سمعتم لعمر أبيكم بدين قام أو يقين رسخ أوشرع نفذ الا بهذه الشروح

والحواشي ولكنهم لما قصرت أفهامهم وضاقت قرائحهم عن استيعابها وحفظها حسدونا عليها فأرادوا أن يحطوا من هذه المزية الكبرى حتى لا نمتاز عليهم بفضل ولله در القائل :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيهُ ... فالكل أعداء له وخصومُ

(الشيخ الثالث) — صدقتَ صدقتَ وما أحكم قول الآخر :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتهُ من الفهم السقيمِ

(الشيخ السادس) — اطووا عنا هذا الحديث ولا تشغلوا أوقاتكم بالكلام في أولئك الثرثارين المتفيقهين فلهم كتبهم ومدارسهم ولنا علومنا ودروسنا والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة

(الشيخ الخامس) — كان يجوز لنا السكوت عن منكرهم لو لم يتعرضوا لنا ويُعرِّضوا بنا في ما يسمونه بالجرائد فيملؤها بانتقادنا والقدحِ فينا ويتطفلوا على موائد اللغة الشريفة ويفخروا بأنهم برعوا في فصاحة الوعظ والارشاد ونبغوا في جميع العلوم وسبقونا اليها . وانما الجرائد أيضا بدعة من البدع وفتنةٌ من الفتن ولو شئنا لكتبنا وأملَيْنا

(الشيخ الرابع) — ومع ذلك ففي كثيرٍ ممن طلَب علينا العلم وسوَّلتْ له نفسهُ الكتابة في الجرائد منْ قد فاقَهم في طريقتهم

وبذّهم فى ميدان فصاحتهم وهذا الشيخ فلان ذلك النابغة الازهرىّ قدّم الىّ بالأمس مقالة مطبوعة له فى الجريدة من أبلغ ما كتب الكاتبون وأفصح ما نثر الناثرون وليس لأحد من أهل التحرير أن يتعلق بغبارها أو يجرى فى أثرها . والجريدة فى محفظتى فان أردتم أن أتلوها عليكم فعلت لتعلموا ان ليس لأولئك المغترّين من فضل علينا ولا مزية دوننا

(الجميع) أسمعنا أسمعنا

(الشيخ الرابع) - يقرأ :

«عوامل الفتح الالهيّ طراءة التأثير بحكم باعث اعتدال راع فى رعيته ومرعيّ مع راعيه ولما كانت القوانين الطبيعية تدعو الى حفظ مزاج الجامعة من طوارىء الكوارث الدهرية التي اذا دعاها داعى التفرق والانقسام لبّته حيث هى النتيجة من مقدمات الاعتساف الذى هو مهد التخالف وبساط عدم التآلف وكان الانسان بحكم نشأته ميالا الى أقرب العوامل تأثيراً فقد وجب أن كل أمة لابدّ لها من أمرين

« فالامة هى منزل الكمال . ومحتد الجمال . ومربع الامارة . ومطمح الاشارة . ومقصد المبارة . ومورد المحافظة . ومسند

المحاضرة . وسجل المناظرة . وكمال الناقص . ومرتغب الشاخص .
وهي الرباط الأقوم . والحفاظ الانظم . فيها كل خير . ولها كل
نفع وعليها كل ضير . ذات الحق . وحليفة الصدق

« واني ليدهشني وقعاً ويذهلني صدعاً أصلٌ جامع وأثر نافع ما
نطقت به ألسن الحكمة من سوالف العقلاء المفكرين وذوى الدراية
المتوغلين وهو : « ان مبادىء تلاشي الأمم تخاذل عقلائها » أجلْ
أجلْ إن هذا الامر أدعي الى لمح السوانح الفكرية والمسابقة في
مضمارها حتى يتبين طريق التلافي لاضرار التلاشي وذلك أن تخاذل
العقلاء يفضي الى انقسام الوجهة وبانقسام وجهتهم تنقسم امة البساطة
فيسود الايغار وتحف مراكز العمران بالاخطار ويتنفس فيها
مصدور الاكدار . بزفرات هي مبدأ كل دمار . وتتولد الضغائن بين
الحميم والخليل . والوكيل والاصيل . فيمسى الحال . بخيبة الآمال . إن لم
تتوفر شرائط الاعتدال . ثم والعقلاء في كل أمة هم اركان مجدها
وأعمدة قوامها وسراج سبجها ومفتاح أقفالها ومعيار أقدارها
ومصفاة أدرانها ومشكاة أفراحها فالاتحاد بينهم اقرب منه فيما بين
غيرهم على بصيرة من صيرورة التساهل فيه الى حد التخاذل الذي
هو أس المبادىء العقيمة . والمواجيد السقيمة . والعوامل الكليمة

والضرورات الاليمة والبسطاء تباع فيما يسنونه لهم من قوانين التزلف والاذلال والخرف إن كانوا متخاذلين وقوانين الحكمة والمدنية إن كانوا متماقدين متحدين وللناس قلوب يعملون بها سوانح الفكر . في سُبُحات الذكر . وشطط النظر . ونوال الوطر . ولهم آذان يسمعون بها منادى الحق . فى نادى الخلق . بنشر الرق . الذى هو لوح الإعتبار . ونظرة النظار . وصفوة الأخبار . ومرتعب السباق . ومصطبر الأشواق . وبرنامج الماجريات . وممثل الاحقاب للاعقاب وحافظ ما مضى لما هو آت

«بني وطني من الاسف والاستغراب ان الاجانب اصبحت وامست تدعي انها متأسية بهيع السلف من مراعاة الشريعة في جميع الاطوار وان بيننا و بين التأسي بها بوناً بعيداً وامداً مديداً. نعم هذا الادعاء وان كان ليس بواقعي الا انه اجدى ثمرة وامراً يجب علينا ان ننتحي عنه وان كان ليس مقصوداً للأجنبي وحقاً له ان يدعى لاننا معاشر الوطنيين لو لم نتصف بهذا الوصف حقيقة لما تفرقت كلمتنا وضعفت قوانا وساءت حالتنا وأصبحنا في حالة يرثيها الراثون فلا حول ولا قوة الا بالله . اين المتمسكون بالشريعة اين الغائرون أين الوطنيون المحبون لبلادهم الذين تربوا من خيرها وجعلوها

مرتعاً ومحطاً لرجال الاجنبيين . اى فرق بيننا والحالة هذه وبين العجم اذا لم نتأثر من هذه الاحوال والدواعي التي تصادمنا كل حين وأى داع يدعونا للانتقاد على الاجنبيين فى أعمالهم التى يحدثونها لغرض سياسيّ من الاغراض

وكلاّ . ثم كلاّ إننا مذ تناءينا عن الجرى على النمط الشرعيّ ألمت بنا الشوائب اللأواء من كل صوب وفج وصرنا كمن بسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه أو كرجل أعمي ألقى به فى الفلوات فأمّته الأسود . فهذه حالتنا المأثورة التى بها تقاعدنا وتقدم الاجنبي

وإنني بهذا الصدد أقول إن الاتحاد هو حفظ الامة من أيدى الغير عند ما يريد المساس بها والدخول فى أحوالها الشخصية التى لا تعلق له بها بأى حال من الاحوال والبكم البيان ـ المسألتان اللتان مَضَتَا ودُفِتَ بسببهما أستاذنا الفضال حين ما قام يساعد صاحب السماحة لخدمة الوطن الحقة فاتحدا ولو لا ذلك لحل ما حل بأهل الاندلس وزاد الطنبور نغمة فسبحان مدبر الاحوال » انتهى والله أعلم

( الشيخ الاول ) ـ ما شاء الله لا قوة الا بالله لقـد أحسن

وأجاد . وأدمَي عيون الحساد

( الشيخ الثاني ) ـ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« ان من البيان لسحرا »

(الشيخ الثالث) ـ نعم ان هذا لهو السحر الحلال والعذب الزلال

(الشيخ السابع ) ـ تبارك الله ما أبلغ وأفصح . وأبين وأوضح

( الشيخ الخامس ) ـ بارك الله فيه . فلقد نثر الدرّ مِنْ فيه

(الشيخ الرابع ) ـ ألم أقل لكم إننا لو أردنا لكتبنا ولو عمدنا الى الكشف عما تكنه الصدور من أنوار العلوم لأخرسنا كل ناطق وأزرينا بكل كاتب وناثر ولكن ليس من الحكمة أن نبذل الجوهر لمن لا يعرف قيمته ولا الوعظ لمن لا يراعي حرمته

قال عيسى بن هشام ـ وما وصلنا من المجالس الى هذا الحد . حتى قام الباشا يزمجر كالأسد الوَرْد.[1] وجذبني بيده للقيام . من غير إذن او سلام فخرجت معه وهو يتوالى الحسرات . ويتابع الزفرات. وينشد معي فى اهل هذا المجلس الأول . قولَ الأول :

مافيهمُ بَرٌّ ولا ناسِكٌ الاّ الى نفعٍ له يَجْذِبُ
أفضلُ من أفضلِهِم صخرةٌ لا تَظلِمُ الناسَ ولا تكذِبُ

(١) الورد من صفات الاسد ، الجرىء

﴿ الاعيان والتجار ﴾

قال عيسى بن هشام — واستنهضت الباشا أزور به مجلسا من تلك المجالس المدودة : والاندية المعقودة . مجلس الوجهاء والتجار . بعد مجلس العلماء والأحبار . فشهدت منه ازورارا وانقباضا . ووجدت فيه انحرافا وإعراضا . ثم التفت الى يعاتبني عتابا شديدا . ويوسعني عذلاً وتفنيدا . ويقول لى ماعهدت منك منذ صاحبتك الا الخير لى تريده . والنفع تبدؤه وتعيده . ومازلت اشكر لك تلك اليد البيضاء . فى العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء . دفعا لما كنت تحذر وتخشى . من شر الخاتمة وسوء العقبى . بتزاحم الاحزان . وتراكم الاشجان . وما تعقبه من السقم والاعتلال . وسوء النكسة بعد النقه والابلال (١) . فما بالك تستنهضنى الى مثل هذه المجامع والمجالس . بعد الذى رأيناه فى مجالس أصحاب القلانس (٢) والطيالس (٣) . ذوى العلم والتقى . وأهل الرشد والنهى . مما تذوب

---

(١) الابلال الشفاء

(٢) القلنسوة نوع من ملابس الرأس

(٣) جمع طيلسان وهوق لباس مشايخ العلماء

له العيون الجوامد . وتنفجر عنده صُمُّ الجلامد . ويغضب له أهلُ الاسلام من الشرق الى المغرب . ولا يَرضَى به صاحبُ العرش فى السماء ولاصاحبُ المقام بيثرب . وقد شاهدتَنِي يكاد يضيبنى التلف . من شدة الحزن والاسف . فقلت أُشهدالله َ ما أبغِي لك الا الخير والتوفيق . فى كل مذهب وطريق . وقد رأيت التجارب أوسعتك كرماً وحلما . وصروفَ الدهرا كسبتك معرفةً وعلما . بعد قلةالاختبار . وكثرة الاغترار . وسوء الابتدار . فى الايراد والاصدار . وما كان فيك من خشونة الملمس وشموخ الأُنف وضيقِ العطَن وصلَفِ الرأى . وما أُحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس الا مَشهداً يُسلى عن الكَرْب . ومَلعباً يفرّج عن القلب . فلا يكن نظرك الى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم . وفى أفراحهم وأتراحهم . ونعيمهم وبؤسهم . ورجائهم ويأسهم . مثل نظر الحكيم «هيراقليط» . بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» . كان الاول يشاهد أمور الناس فيبكي ويتحسر . وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر . فاذا أنشد أحدُهما فى نصرة مذهبه :

النامسُ من دنياهمُ فى مأتمٍ فالسُّحْبُ تَبكِى والرواعدُ تندبُ

أنشد الثانى فى تأييد مشربه :

هذِي الحياةُ روايةٌ لمشخّصٍ فالليلُ سِترٌ والنهارُ المَلْعبُ

ومن صواب الرأي أن لا تذهب نفسك عليهم حسرات . ولا تذرف عينك من أجلهم العبرات . وهلمّ معي أمتعك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك . ويكشف من غمتك . فأسلسَ مطاوعاً في القياد . ووافقني على ما تبين له من الرشد والسداد . فيممتُ به داراً عاليـة الجُدران . واسعةَ الأركان . شـائقةَ البنيان . لأحد التجار الاعيان . فزاحمنا عند الباب سائسٌ يسحب فرساً مُصحباً مطيعا . ويحمل على كتفه طفلاً رضيعا . يقول وقد أظهر الغيظُ بواطنَهُ الكامنة : لستُ أدري والله أسائسٌ أنا أم حاضنة .» ومِنْ ورائه آخر يحمل صفحةً متدفقة بالمخالل . يقول وقد تلوّثَ بمائها وتبلّل : علامَ أتعبُ في هذه الدار وأشقى . وإلامَ يدوم هذا الشقاء ويبقى . ولست أدري والله أسائقٌ أنا أم سقا .» ولما وَلَجْنا الباب اذا بالبواب . يقول وفي يده صُرّةُ ثياب : لا مَرَدَّ للمقدور والمقضيّ . ولا رجاء في العيش الرخيّ . ووالله ما أدري أبوّاب أنا أم خصِيّ . ولما جاوَزْنا دهليز المكان . الى باب الإيوان . وجدنا عندهُ غلاماً فتيّ السنّ . يتنهدو يَئنّ . وبين يديه دخان وورق . وبجانبه كتاب مطبـق . وهو يقول : عجبا واللهِ للوالد يشغل ابنَهُ بسجاراتٍ

يحشوها. فيلهيه بها عن دروس له يتلوها. لا غرو إن فاضت العيون بسواكبها. واحترقت القلوبُ بلواهبها. فما أدرى والله أفرّاشُ الدار أنا أم ابنُ صاحبها . » فما أحسّ بنا حتى انتفض قائماً . وتقدم مسلّماً . ثم ذهب أمامنا . ليذكر قدومنا . واذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ فى مشيته . ويتعثر فى جُبّته . فسهّلَ بنا ورحّب . وبالغ فى التحية وأسهب . ودخل بنا على اهل مجلس مختلفى الازياء والهيئات . متباينى الأشكال والسِّمات . فمِنْ صاحب عمامةٍ يتعهد بيده رَصْفَهَا . وآخر يجدّد لَفّها . ويحبك بالإبَرِ طرفها . ومِنْ صاحب طربوش قد أمالَهُ على جبينه . فاذا تحرك أسنده بيمينه . فترى يدَه أبداً لا تسكن ولا تستقر . كأنما هو فى تأدية سلامٍ مستمر . ووجدناهم جميعاً قد كثُر بينهم اللغو واللغط . وسمعناهم يتحاورون على هذا النحو والنمط :

(أحدهم) — نعم لا بدّ من ذلك اذا يسّر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان فان إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح لا يمكن أن تأتى بها الاشغال التجارية وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانبا فقد اصبحت الآن ولا نفع يُرجى منها وتوكلْ على الله فى الاشتغال معنا بالأبنية فهى

أنجح وأربح

(الثانى) ـ ومِنْ أين لى زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدنى على هذا التوسع والحالُ على ما تعلم ضعيفة والحمد لله على نعمة الستر فهي الغنى الكامل

(الاول) ـ لا تقلْ هـذا أيها السيد . « وأمّا بنعمة ربك فحدّثْ » . ودعواك ضعف الحال إنْ هيَ إلاّ تواضع منك واللهُ يزيدك فضلاً على فضل

(الثانى) ـ أستغفر الله يا سعادة البك هذا حسن ظن منك والا فالحقيقـة غير ما ظننت وقد قلت لك إن الستر هو الغنى الكامل وعلى كل حال فالبركة فى التجـارة فمنها كان رزق الآباء والاجداد وربحٌ مستور أبرك من ربح مشهور

(ثالث) ـ تالله إنكم لفى ضلالكم القديم وهل بقى فى التجارة التى زاحمكم عليها الاجانب ربح يُذكر أو رزق يُطلب فاتركوا هذا الخمول وعليكم بأشغال الأقطان فى البورصة فهى الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلا كدّ ولا تعب وكم رأينا من فقير ولَجَ البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودى وفيكم من ادرك والدتهُ تبيع الخبز بالحارة

قد مارس تلك الاشغال فأصبح أكثر الناس مالاً وأرفههم حالا ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والاعمام رحمة الله عليهم

(رابع) — ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه لم يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم . وهل تريدون ان ينزل احدٌ منا بنفسه الى هذه الاشغال بعد ان عشنا مثل هذا العمر

(الثالث) — حاشا لله أيها السيد وليس هذا من قصدى وانما أردت ان أبين لكم ان هذا اليهودى دخل البورصة سمساراً لا يمتلك مالاً فأصبح من كبار الاغنياء فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة . لا شك انهُ يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه

(خامس) — ماوراء الربح الكثير الا الخسرانُ الكبير وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجتهُ اشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العماد الرفيع وأرى ان الاقدام على هذه المهالك من الجنون المحض «فاللهُ خيرٌ حافظاً»

(سادس) — أما أنا ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين فقد كفاني تأديباً ما تكبدتهُ من الخسائر فى تلك المضاربات على

الاقطان ولو لا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب

(الثالث) - لا حول ولا قوة الا بالله «إنك لا تهدي من أحببت» كيف تخشون الخسارة فى أشغال الأقطان وتتوقعونها والربح فيها مضمون مع بعض الانتباه لمجرى الاخبار وحسن التخمين فى الاحصاء وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ومع القليل من الممارسة والجراءة فى العمل

(سابع) - كيف تدعي ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معداته فما زال يهوى في بحر البورصة حتى وصل فى الخسارة الى القرار وإن كان لا يزال ظاهراً فى أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجمّ

(ثامن) - سبحان الله الا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة ثم لا نلبث ان تنكشف الحال عن القلة والضعف فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تُقدّر بألوف الألوف ثم يظهر الخفيّ ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) - نعم صدقت ألم تروا الى المرحوم فلان كيف

كان يفاخرني فى كل مجلس عند ما اخذتُ الرتبة بأنه اكثر منى
مالاً وأعظم ثروة وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية ولما توفاه
الله انكشفت الحال ولم يَرثْ عنه اولادُهُ ما يكفى لبقاء بيته
مفتوحاً وبقاء اسمه مذكوراً . وقِسْ على ذلك امثاله من هذا القبيل
فسبحان الغنيّ الدائم

(الرابع) ـ دَعُونا بالله من ذكر الاولاد والمواريث فانى كلما
تذكرتُ اخلاق ابنائنا فى هذا الزمن ورأيت ما وصلت اليه ثروة
فلان وما انتهي اليه حال اولاده من الفقر والضنك بعد ان بدّدوا
تلك الاموال الطائلة واصبح ذكر ابيهم بينهم نسياً منسياً فلا
يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة ـ هان عليَّ ان انفق ما فى حوزتى
فى حياتى وان اتمتع بأموالى فى مدة عمرى

(الخامس) ـ مَعَاذَ اللهِ ان نفعل ذلك بأبنائنا وما فائدتنا
فى هذه الدنيا اذا لم نجمع الاموال وندّخر الثروة لأعقابنا ونترك
لهم ما يغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا . ولا تجعل الذنب كله على
الاولاد فى تبديد المواريث بل الذنب كل الذنب على الآباء
الذين يتركون اموالهم هملاً بعد موتهم ويَغفُلون عن تقييدها
بالوقف فينتفعَ الأولاد بالريع وتبقي العين قائمة والبيت مفتوحا

والاسم مذكوراً ولا يحتاج أحد من الذريّة وذرية الذرية مع وجودها الى . . . .

(السادس) — لامؤاخذة ياسعادة البك فى مقاطعة الحديث ألم تسمع بما حصل فى وقف فلان وفلان وغيرهما وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود واندثرت البيوت وعفت الآثار وذهبت أسماء اصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) — نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط ان يكون بمثل الشروط التى وقف بها المرحوم فلان فانهُ خصص جانباً من الريع لذريته واشترط أن يُحفظ الباقي ويدخر وكلما تكوّن منه نقد عظيم يُشترَى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الاصلى ليكون فى نموّ متواصل على توالى الايام وصروف الحدثان وبذلك يصير البيت فى درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه فى أيام حياته فأنعِمْ بها من طريقة وأحسِنْ بها من وسيلة

(الثالث) — ليس ذلك من الحزم فى شيء ولكنه التغالى فى البخل والشح ومحبة الادّخار بعد مفارقة الحياة ولقد حرَم المرحومُ نفسهُ من التمتع بماله فى حياته وحرم أولاده منه بعد موته بابتداع هذه

الطريقة الغريبة فى شروط الوقف

(الاول) ـ أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة فمن يقول ان المرحوم كان شحيحاً مقتراً قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها . وما كانت مائدته لتخلو من الضأن او الحمام أو الدجاج وحق جدك وانما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله الا فى الوجوه النافعة

(الثانى) ـ لا اعتماد عندى فى هذا الباب على الوقف أو الملك وخير ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم فى المدارس وان لا يعودهم فى حياته الانفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار

(الاول) ـ وهل جاءتنا المصائب فى أولادنا الا من هذه المدارس وتعليمها وهل زادهم ذلك التهذيب الا ما شئت من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ولقد أدهشنى فلان بالامس وأضحكنى فى شكواه مر الشكوى من حال ابنه المهذب المتعلم فى المدارس والمجالس إذ قال لى فى حديثه : ما زال هذا الولد يزيد فى تعذيبى وتكديرى منذ خروجه من المدرسة فأصبح لا يكلم أهله الا بالرطانة ولا يعرب عن غرضه الا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شىء فى البيت . فاذا

جاؤا له بالماء قال فيه المكروب . واذا أتوه بالخبز والجبن قال على بالمكر سكوب . ثم ترى الشقيّ يقسّم الأطعمة أقساماً فيقول البيض واللبن غذاء كامل والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمرى وأن الأرز وما شابهه من « المواد النشائية » لافائدة منها سوى انها تحترق كالوقيد فى الجسم وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الاعضاء وأن الفواكه لابد أن تؤكل من ساعتها اذا تشققت خصوصاً البطيخ لأنه أسرعها فسوداً لتولد الحيوانات السامة وهلم جرّا حتى حيّر الخبيثُ أهلَ البيت فى طعامه وشرابه فوق ما حيّرني فى اختلاف ملابسه وتعدّدِ أزيائه وكلما عارضتُهُ فى شيء شمخ بأنفه استكباراً ولوَى عنقَهُ استحقاراً وسخر بى لجهلي وفخر علىّ بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس يتطاولون على آبائهم ويعيّرونهم بجهلهم بعد أن كان الولد كالبنت البكر فى الزمن الماضى لا يرفع طرفه فى وجه والده حياء ووجلاً وكان لا يجرؤ على مكالمته الا مجيباً عن سؤالٍ مِنْ صغره الى كبره

(الثانى) — ولكن فاتك ان تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يغتفر لها كل ذنب وهي دخولهم فى سلك الموظفين فى

الحكومة وارتقاؤهم المراتب والمناصب وياليت آباءنا كانوا التفتوا في أيامهم الى تعليمنا في المدارس فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر نقداً عيناً وذهباً خالصاً دفعةً واحدةً سالمةً لأيديهم بلا مطل ولا تسويف في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الأعظم منها في المسامرات والمفاكهات ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما في قدرتهم من مساعدة الاصحاب ونكاية الأعداء . ورأس المال في ذلك كله الاحاطة ببضعة كتب في المدرسة . فاخبرني حينئذٍ أيّ ربح في التجارة وأيّ شأن لها يوازى هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة وسبحان من قسم الحظوظَ فلا عتابَ ولا ملامة

( الرابع ) ـ كل هذا معلوم ومسلَّم به ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم فقد خرج اكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها ومَنْ صادفتْهُ العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني فانه لم يزل يتردد على ابواب الحكومة في تطلّب الخدمة والوظائف مشحونة

ونظار الحكومة على ما تعهدهم من ضعف الهمة

(السادس) ـ عسى الله أن يبدّل الاحوال وتسقط هذه الوزارة ويعزّ علينا برجوع اؤلئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن فترى حينئذٍ كيف يكون تقدّم أبنائنا فى المناصب

(الخامس) ـ حقاً اذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك الى الوزارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الاوقات وانا أرجو أن لا تنسى ابني عند السعي لأنجالك فقد كان معهم فى مدرسة واحدة وهو دائما يطالع الجرائد ويترقب الحوادث التى يكون من ورائها سقوط هذه الوزارة

(الثامن) ـ أراكم تخبطون فى أمر أولادكم على غير هدًى . والأصوب عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً لا لأجل التوظف فى الحكومة والخروج عن طبقاتهم . وأما من جهة حفظ المواريث فى أيديهم بعد مماتنا فأحسنُ الطرق أن لا نقتر عليهم فى النفقة أثناء حياتنا وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدتهم تحت أعيننا ليتمرنوا على العمل ويدركوا لذة المكسب

بأنفسهم فتربى لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم فى اتساع تجارتهم والتفنن فى أبواب المرابحة ، وقد جربتُ ذلك فى اولادى وانا ارجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) ـ هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) مناديا لابنه ـ إئتنا بالجريدة واقرأها علينا

(يحضر الغلام وفى يده الجريدة ناشراً لها)

(الاول) ـ اقرأ لنا من الاول

(الغلام) قارئا ـ «الحرب»

(السادس) ـ هل وقعت الحرب

(الغلام) ـ ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) ـ اقرأها من آخرها

(الخامس) ـ اتركها من أولها الى آخرها واقرأ فى «المحليات» فلا فائدة لنا فى وقوع الحرب أو اجتنابها

(الغلام) قارئا ـ «تأليف الشركات»

(الرابع) للسادس ـ لا يذهبْ عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التى كنا تكلمنا فى تأليفها منا لمشترى الأطيان المعلومة من الحكومة

( الخامس ) ـ ان شاء الله يكون لنا نصيب معكم فى هذه الشركة

( الثالث ) ـ مَنْ اعضاؤها ومَن الرئيس

( السادس ) ـ أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

( الثالث ) ـ معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان فى شركة وهل نسينا ما وقع منه

( الثانى ) ـ وأنا لا أقبل الدخول فى شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعي ما لم اكن أنا الواسطة فى مقابلة الحكام والمداولة معهم

( السابع ) ـ وأنا لاأقبل الدخول فيها الاّ اذا كانت أسهمى فى التأسيس أكثر من فلان

( الاول ) ـ وانا لا أقبل ان يكون فلان رئيساً علىّ فى شركة أبداً

قال عيسى بن هشام ـ واشتدّ بينهم الجدال والخصام فحملقَت العيونُ وعبست الوجوهُ وتحركت الضغائن وثارت الاحقاد . ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشر والأذى مالا يضمره القرن لِقرنه فى ساحة الوغى . فانصرفنا عنهم وتركناهم يموج

بعضهم فى بعض . كأنهم في موقف الحشر ويوم العرض

## ﴿ الحكام والرؤساء ﴾

قال عيسى بن هشام — وسرنا الى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية . وذوى السياسة والدراية . ممن بيدهم حل الامور وعقدها . وعلى كيهم شقاء الامة وسعدها . الناشئين فى مهد المعارف والعلوم . والنابغين فى اشتات المنطوق والمفهوم . والموصوفين بدقة النظر وبعد الهمم . والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الامم . الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهب الخطوب الداجية . وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية . فوصلنا الى دار يزهر بياضها . ويبهر إيماضها . قد ضربت عليها المحاسن أطنابها . وخلعت عليها الزخارف جلبابها . فسار بنا الخدم الى حجرة فى جانب الساحة . أعدت للانتظار والاستراحة . واذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان . فرأسه كرة والكرسي صولجان . فلما أحس بقدومنا ودخولنا عليه . انتبه يزيح النعاس باصبعه عن عينيه . فسلمنا فسلم . وهو يتثاءب ويتلعثم . فتخيلناه من ظاهر جلته . وبذاذة هيئته . أنه صانع من الصناع . أو تبع من الأتباع . ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام . أنه ذو رحم

فى البيت وذو مقام .ثم التفت الينا يخاطبنا ويقول. بعد أن ذهب الخادم مستأذنا فى الدخول : «قبّحَ الله الخدم. فهم نقمة من النقم. شرهم حاضر. وخيرهم نادر والعناء بهم ليس له آخر. فكم أغضبوا حليما . وآذوا كريما . وكم كسروا الصحيح . وخلطوا الصريح . وكم ارتكبوا جرما و إثما. وجاؤا إفكاً وظلما وكم فتحوا الأغلاق. واختلسوا الأعلاق . وكم أحدثوا الشقاق . وأذهبوا الوفاق . وكم فرّقوا بين المرء واهله. وحالوا بين الفرع وأصله. ولعنة الله عليهم فى الدارين . فقد ذقتُ منهم الأمَرّين . وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة . الى مالا يُحمد من الجفاء والقطيعة. وابني حرسه الله ينظر ويُغضى. ويتحمل منهم مالا يُرْضِى وهم يتجنّون علينا وينتصرون. واذا أمرتهم بأمر لا يأتمرون. ويشهد الله انى كلما رأيت مال ابنى فى أيديهم يتبعثر ويتبدد . وثقتهُ بهم تتضاعف وتتجدد . ذاب الفؤاد فسال من العيون . مشوبا بماء الشؤون (١) وأما وكيل البيت وما أدراك ما الوكيل . فحسبنا الله ونعم الوكيل. فتىً لا تخطيء فى النفاق مَخيلته . ولا تطيش فى البيت حيلته. دأبهُ المكر والخداع . وديدنهُ الشقاق والنزاع . يُرضِى طفلا . ليسخط كهلا . ويتملق للجارية فى الحرم.

---

(١) الشؤون عروق الدمع من العين

وللوصيف من بين الخدم . . . . »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر . ويتأفف ويتحسر . فلم ينقذنا من هذه الشكوى التى تصم الاذان . الا رجوع الغلام بجواب الاستئذان . فانتهينا من شقشقة لسانه . وحمدنا الله على كرمه واحسانه . ثم اقتفينا اثر الغلام الى حجرة بادية الرواء . مضيئة بالكهرباء . مفروشة بأثمن فراش . وأبدع رياش . على اختلاف فى الاجناس والانواع . وتباين فى الاشكال والاوضاع . فالتحفة الشرقية . تقابلها الطرفة الغربية . وآنية الذهب . يضارعها آنية الخشب . فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء . من الرؤساء والوكلاء . فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر . ونجني من ادبهم ما يحلو من الثمر . وذونك بعض ما اقتطفنا وجنينا . وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) — نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الاحزاب في فرنسا فان فى ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا

(ثانيهم) — ما أبعدَ ما ترمى وما أسرعَ ما تحكم مهلاً هيأتنا لله ابوك كيف ترتيبك لهذه القضية واستقراؤك لهذه

النتيجة . وما نحن وخذلان الاحزاب الفرنسوية ونصرة حزب الجيش عليها !

(الاول) ـ أراك لست بعويص الرأى فى السياسة ولا ببعيد الغور فى استخراج النتائج ألاَ تعلم لازلتَ مسدّداً ان فى انتصار حزب الجيش قلباً للهيئة الجمهورية ورجوعاً بفرنسا الى الملكية والامبراطورية أو القنصلية فتأتينا بمثل اؤلئك الملوك والقوّاد الذين دوّخوا الشرق والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول وأصبحت لهم الكلمة العليا على اهل البسيطة فلا يمانعهم فى أغراضهم ممانع ولا يعارضهم فى مطالبهم معارض . وانى لأعلم علمَ اليقين ممن عاشرتُ من كبار الفرنسويين وصاحبتُ أنه لولا هذه الجمهورية لما وصلنا نحن الى هذه الحال وما نحتمله فيها من الهوان والصغار واستئثار اؤلئك القابضين على زمام حكومتنا بالامر والنهى دوننا مع المرتبات الجسيمة والسلطة الواسعة ولمَا أُغلقت أمامنا أبواب الترقى وانقطعت بنا اسباب التقدم فلو عادت فرنسا الى مجدها السابق وعزها القديم لزحزحتهم باشارة وأزاحتهم عنا بكلمة ولأصبحنا نتصرف فى حكومتنا بأيدينا

(ثالثهم) ـ دعنا بالله من هذه الخيالات واتركنا من هذا اللغو

ومثلك لايحق له الشكوي من هذه الحال فانك متين العلاقة بالمستشار وما بينك وبين الوصول الى المنصب الذى تتطلع اليه الا قيد شبر وأنت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بما لكَ من الغنى واليسر ولكن ماذا تقول فى مَنْ هو فى حاجة داعة الى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة مع سخط الناظر وغضب المستشار وشعور المرؤوسين بذلك فلا توقير عندهم ولا احترام ولا أدب فيهم ولا حياء ولولا الاحتياج الى المرتب والاضطرار الى الرزق لمَا أقمتُ فى الخدمة يوماً واحداً

(رابعهم) — وأنا والله لاانتظر الاان يتم لى نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة وأنجو بنفسي من أسر الرق وذل العبودية ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهى أهنأ عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان

(خامسهم) — ما أسخف الرأى وأضعف الفكر . ومَن ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأناً من بقية الحِرَف والصِناعات . وكل اسباب المعايش لاتخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والاكدار ولكن خدمة الحكومة أهونها حالا وأقلها عناء ولا يُفضِّل عليها الاشتغالَ بالتجارة الا من كان قليلَ التبصر فى

الامور ويكفيك برهاناً على ما أقول انك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك فى يدك ولكن التاجر فى حاجة ابداً الى أصغر موظف في الحكومة وإن كان من أغنى الاغنياء ولو تراهم اذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضى ومخاطبة المدير لعلمت ان خدمة الحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغا عظيما من الشرف والرفعة بحيث لو خيرت أحدهم بين الخروج من ماله وعقاره وتجارته واطيانه وبين الدخول فى صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده ولحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تعده انت شقاءً وبلاء وتعتبره ذلا وهوانا

(سادسهم) — على رسلك أيها القاضى لا تعكس القضية ولا تقلب الحقيقة ولا تحمل ما تراه فى أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم والاستعظام لأهل الحكومة على ان حرفتهم خسيسة فى ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم والا فلو تخلى احدهم عن طبقته ودخل فى طبقتنا يوما لأدرك فى الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال فى العمل والحرية فى الرأى ولعلم ان الموظف قد باع للحكومة حريته

ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه مقابل مقدار من المال يَمدّ لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فى يوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله ويا ليت آباءنا كانوا انتبهوا الى تعليمنا الصنعة وتمرينا على التجارة ولكن بئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له ولو أنهم كانوا ادركوا ما انتهت اليه حال الخدمة فى الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام فى الازمان السالفة من الصولْ والطولْ والقوة والحول واكتساب المال من الجاه — ولو علموا أنه سيأتى زمان على هذه الحكومة التى كانوا فى ايديها كالايتام فى يد الوصىّ يكون أرباب المناصب فيه كالاطفال فى حجر المرضع — لَعضُّوا الأنامل ندماً ولأرسلوا بدل الدمع دماً على ما فرطوا في أمرنا وأهملوا فى شأننا

(الخامس) — انك لتتكلم بكلام العجائز اللائى يقنعن من دهرهنّ بالخسيس من الملبس والمطعم . وأين انت هداك الله من طلب المعالى وابتناء المفاخر وتشييدِ المجد وخدمةِ الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضر . وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أنّ ما أسعَي لأدنَى معيشةٍ ... كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ
ولكنّما أسعَى لمجدٍ مُؤثّلٍ ... وقد يُدرك المجدَ المؤثّلَ أمثالى

والى الله المشتكَى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم وماتت العزائم ورضى الناس فيه بالخمول والسكون وبالعيش الدون

(السادس) — اني لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب الى هذا الحد فترى ان فى خدمة الحكومة سؤدداً وعلاءً ومجداً وسناء وما هي الا الذل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء . وأنا أُفصّل لك الحال تفصيلاً لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على التنحى عنها عجزٌ وضعف وجهلٌ براحة الحياة وأىّ جهل فأقول :

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة الى اربعة اقسام . القسم الاول الرغبةُ فيها للمال أعنِي لسدّ العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكمَ عليه الدهرُ باحتمال الهوان لضرورة الرزق فهو فى رق العبد وذل الأجير لا مناص له من الصبر على المضض حتى يجد له مخلصاً منه ومنصرفاً عنه وهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة الى صف اهل الصناعات الحرة

والقسم الثانى الرغبةُ فيها للجاه أعنى عزة المنصب ونفوذ الكلمة ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأوٌ واسع الاطراف ليس

لشروطه نهاية . ولا لحدوده غاية . ولا بدّ فيه للجواد من كَبْوَة وللسيف من نَبْوَة وطالما كان اعتلاء المناصب، وارتقاء المراتب داعية للرزايا والمصائب .و مَجلبة للبلايا والنوائب :

والشرُّ يَجلبهُ العَلاء وكم شكا نَبأً عليَّ ما شكاهُ قنبَرُ (١)

ولو سلمنا ان صاحب المنصب سَلِمَ من المعاطب ونجا من الخطوب فهو لا يزال طول حياته في همّ ونَصَب كلما ارتقى في المنصب درجة وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتليها ولا يفتأ مستعظماً لِمَا فوقه طامعاً فيه مستصغراً لِمَا في يده راغباً عنه فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها غير راضٍ عن نفسه ولا عن الناس ولا الناسُ عنه راضون . وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء وملتقي الكمد والكدر :

ذلك الخائبُ الشقيُّ وإن كا نَ يُرَى أنهُ من السُّعَدَاء

يحسبُ الحظَّ كلَّهُ في يديهِ وهو منهُ على مَدَى الجَوزاء

وأخلقْ بمن كان همُّهُ أبداً التطلع الى غير ما في يده ان يكون أتعس البرية حالا وأمَضَّهم عيشاً ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اقتراب غاربها وحذّروا

---

(١) قنبر هو مولى علي بن ابي طالب رضي الله عنه

العقلاء من السعي وراءها وشغلِ النفس بها . هذا كلُّهُ اذا كان المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول اليه من طريق الفضيلة والشرف والحصولُ عليه من باب الجدارة والاستحقاق . فأمّا والطريقُ الى المناصب كما نراه اليوم قاصرٌ على التوسل والتوسط وإهراقِ ماء الحياء والمنصبُ على ماتعلم وضيع الكلمة ساقط القدر خسيس المنزلة لا أمر فيه ولا نهي ولا حل ولا عقد فالفرارُ منه أجدرُ بطالب الجاه وأحرَى . والتباعدُ عنه أشرف بذي الفضل وَأسنَى . والنزولُ عنه نِعم المنصب العالى . لطُلّاب المعالى

والقسم الثالث الرغبةُ في المنصب لشغل النفس دون سواه دفعاً للسأم والملل وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر في الاشتغال بحاجات الناس والتلهي بها عن تهذيب النفس . ولا يدخل في هذا القسم الاَّ مَنْ كان فارغ الفؤاد خاويَ الصدر خالياً من كل أدب وفضل مشغولَ الضمير بالوساوس والهواجس فأكرهُ شيء لديه نفسهُ وأثقلُ حمل عليه حياتهُ ولا بدّ له من مشاغل متجددة ومسائل متعددة تشغلهُ عن الخلوة بنفسه التي صارت عنده اذا هو خلاَ بها لحظة كأنها خليّة من خلايا الزنابير أو وكرٌ من وكور الأفاعي وهيهات أن يبلغ المسكينُ غرضه يوما لأن مَنْ ضاقتْ عليه نفسهُ

كان العالم عليه أضيق ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليقة عليه أثقل

والقسم الرابع الرغبةُ فى خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع الأمة . وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضا لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب وبين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن لما بينهما اليوم من التخالف والتناقض . ومن أراد أن يخدم وطنه فليتخلص من قيود الحكومة ويخدمهُ وهو مطلق اليدين واسع التصرف

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل خصوصا فى بلد يَنسبون فيه الى صاحب المنصب كل فضيلة وينزعونها عنه اذا سقط منه فالرجالُ عندنا بالمناصب لا المناصبُ بالرجال على عكس ما قد قيل :

إنَّ الأميرَ هو الذي يُضحي أميراً يومَ عزلهْ
إنْ زالَ سلطانُ الولا يةِ لم يزُل سلطانُ فضلهْ

فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصاً إلاَّ منْ أضلهُ اللهُ على علم . ولذلك فانى عاهدت نفسى أن أتخير لأولادى فى تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً وتكون معهم أينما حلوا وساروا لا يسلبها منهم تقلب السياسة وتغير الحوادث

ولا يؤثر فيهم غضبُ زيدٍ أو رضَى عمرو

(سابعهم) — لله أنت ما أحلَى بيانك وأجلَي برهانك وأنا معك في هذا الحكم وعلى هذا العزم

(الثاني) — اتركوا هذه الخطب المكدّرة والافكار المحزنة وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرّج عنا ويروّح ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهمّ الليل . وهل لك يافلان أن تقوم معي للمسابقة والرياضة بالبسكليت

(الاول) — الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع اليه

(ثامنهم) — أو قوموا بنا الى عرس فلان فقد بلغني ان فيه «بوفيه» لم يُسمع بمثله حسناً ورضما

(الاول) — أنا معك

(الثامن) — لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمع الغناء

(الاول) — لست معك في هذا بل نخرج من البوفيه الى الازبكية لسماع الموسيقى الانجليزية أو الاوبرا التليانية

(الرابع) — انا لا أتوجه معكما لانى ذاهب الى «الكلوب»

(السابع) — انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء

(الخامس) — عليّ بالجرائد الفرنسوية منها فهي أصحّ من العربية

أخباراً وأغزر مادة

(الثالث) — اقرؤوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو بعضها مع بعض

(الثانى) قارئاً — «آسيا فى أوربا وأمريكا فى أفريقا»

(الرابع) — ماذا جرى لصوابك يا عزيزى اقلب الصحيفة الأولى فما لنا ولهذه المقالات الافتتاحية وما لنا ولهذه الافكار الصبيانية

(الثانى) قارئاً فى الصحيفة الثانية — «الاسكندرية لمكاتبنا»: «الأمة برجالها والمناصب بأربابها والمعارف هى التى تخرج لنا رجال المستقبل ومن أين لنا بالرجال اذا كانت المعارف تبخل بالمال فالمستقبل حينئذ مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة اذ لم تنهض العواطف لانشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك فان . . .

(الرابع) — حسبك أيها القارىء حسبك أما قلنا لك لا تقرأ هذه المقالات المعلومة

(السابع) — اترك «الاسكندرية» الى غيرها

(القارىء) — «الزقازيق لمكاتبنا»: «يثنى العموم بلسان واحد

على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكنس والرش . . .

(الثامن) ـ أنعمْ به وأكرِمْ وأكثر الله من أمثاله فى خدمة الوطن . عليك ياصاحبي بالحوادث الداخلية

(القارىء) ـ « يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديد الى الاسكندرية فى هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة الى العاصمة على اكسبريس الصباح . . . .

(الثامن) ـ اتركْ قراءة هذا المانيفستو أيضاً

(القارىء) ـ «سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار يبحث فى الجبايات والآن نذكر نص القرار . . .

(الثامن) ـ جعل الله الجنة قراره ومثواه . فدعهُ واقرأ ما سواه .

(القارىء) ـ «وصل سعادة السردار الى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة ان أهم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان

(الثامن) ـ سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان وحوادث اليونان

(القارىء) ـ « يسم البوليس الكلاب الضالة . . . .

(الثامن) ـ نسأل الله السلامة للخلق والهداية للجميع

(القارىء) ـ « كتب الينا أحد أفاضل الاطباء بأنه اكتشف

علاجا يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ويقول حفظه الله فى آخر رسالته انه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا فى منامه على فراشه . . .

(الثامن) ـ لانزاع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق

(القارىء) ـ « رزء عظيم : قد فجع الاسلام وانهدم ركن الدين واظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الاشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها فى عمل البر والاحسان فكان لنبأ موته أسف وحزن فى قلوب أهل بلده خصوصا والقطر المصرى عموما »

(الثامن) ـ لاحول ولا قوة الا بالله لابد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى خصوصا وفى الولايات المتحدة عموما

(القارىء) ـ « نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جاريا في قضية التزييف ولم يتم فيها شىء للآن ومتي تم نبادر الى نشره افادة لحضراتهم كما هي عادتنا فى نشر الاخبار بأوقاتها »

(الثامن) أفادكم الله ونفعنا بهذه الاخبار

(القارىء) ـ : « فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم

كان فى مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها وردة جملان فى الاسبوع الماضى . وكذلك فاتنا أن نهنئ حضرة مكاتبنا الفاضل «بنزلة واكد» حيث رزقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة

(الثامن) — جلّ مَن لا يغفل ولا ينسى . ولكن فاته أن يذكر أكان ذكراً أم أنثى

(القارئ) — : « لدغت عقرب ابنة فى قسم الوايلى »

(الثامن) — نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة فى «الاحتياطات الصحية» ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية

(القارئ) للثامن — يكفيك ياحضرة القاضى من السخرية والاستهزاء واسمع لهذا النبأ العظيم

(الثامن) — سمعاً وطاعة

(القارئ) — : « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن فى مشروع فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم و بالنيابة عن الامة المصرية الا...يفة نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيمة الذى يكون من ورائه رسوخ قدم الاجنبى فى البلاد وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع فى مقالة افتتاحية »

(الاول) — ان هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى فكيف وصل

الى الجرائد

(الثامن) — إنى لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يعمد أربابُ الحل والعقد الى استخدام الخُرس فى مجالس الحكومة رجوعاً الى العادة القديمة فى مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية

(الرابع) للثانى — اقرأ بقية الأخبار المحلية

(الثانى) — لم يبق فى الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والاعلانات

(الرابع) — أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك «الجرائد الثلاث»

(الثانى) — هى كما تعلم نسخة واحدة فى الاخبار وإن كانت مختلفة فى الأسماء

(الرابع) — اقرأ لنا التلغرافات

(الثانى) قارئاً — «ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ — كان الاحتفال بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة»

(الرابع) — ما هذه السفاسف

(الثانى) — هى التلغرافات الخصوصية

(الرابع) — علينا بالعمومية

قال عيسى بن هشام ـ وما قرأ القارىء التلغرافات السياسية حتى استدار أهلُ المجلس حلقة يكثرون اللغط فى شرحها ويرجمون الظنون فى تأويلها وما فيهم الأ مَنْ هو على خلاف لرأى صاحبه واذا همُ قد عادوا الى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما وجدنا الجدال يحتدم بينهم اشتعالا . خرجنا من بينهم انسلالا . وتركناهم فى سياستهم يتيهون . وفى ضلالهم يعمهون .

---

## ﴿ الامراء وأبناء الامراء ﴾

قال عيسى بن هشام ـ وأحببتُ أن أختم هذى المجالس والمجامع . بزيارة المجلس الرابع . مجلس الطبقة العليا . من الأمراء وأبناء الامراء . أهلِ السدّة السنية . والعتبة الملكية . وأولى الفخر والسناء . وبنى المجد والعلاء . وأصحابِ العز والشرف . وأربابِ الرّفه والترف وذوِى الفروسية والكرم . ومصدر الفواضل والنعم . سادة المحافل . وقادةِ الجحافل . ومطمح الحاشية . ومَطْمع الغاشية . ومَهْيَع القُصّاد . ومُنْتَجَع الرُّوّاد . ومرجع السفراء . ومطلبِ الشعراء . ومحطّ الرحال . لذوى الآمال . مَنْ يتألق بهم بيت المُلك والسلطان . وتفخر بوجودهم البلدان والاوطان ويخفق على رؤوسهم

اللواء والعلَم. ويُنتضى فى خدمتهم السيفُ والقلم وتعنو لقدرتهم النفوس. وتُنكَّس لعزتهم الرؤوس. وتُغَضُّ من مهابتهم الأبصار وتضمحل دون رتبتهم الرتبُ والأقدار. ويرتفعون عن الناس ارتفاع الكواكب فى الابراج ويمتازون عن سائر الخلق بسمةِ العرش والتاج. معدن المكارم والمآثر. وبدور القصور والمنابر. فأممنا قصورهم قصراً قصرا. وأحطنا بها عدًّا وحصرا. فلم نجد فيها من سكانها. غير خصيانها وغلمانها. ووجدنا أصحابها لا يرضونها مسكنًا ومقاما. ولا يأتونها الاَّ لماما [1]. وعلمنا أن «الكلوب» يعنى النادى. هو مأوى الرائح منهم والغادى. فهنالك موضع جلوسهم واجتماعهم. ومحل أنسهم واستمتاعهم. فقصدناه مع أحد أصحابنا من أعضائه وجملته. ليتسنى لنا الدخول فى صحبته. فانتهينا من السلم الى قاعة فسيحةِ الجوانب. مزيّنةٍ بمصابيحَ كالكواكب. تدخل منها الى عدة غُرَف. مزخرفةٍ بأبهى التحف والطُرَف فرأيناها مزدحمة بأجناس من الناس. يروقون النظر بحسن الزىّ واللباس. ويبهرون العيون بحُلَى الياقوت والماس. وهم كلهم فى لغط وضوضاء. كأنهم فى سوق بيع وشراء. فأخذ صاحبنا يرشدنا الى أجزاء المكان.

---

(١) لماما أحيانا

ويعرّفنا بفلان وفلان . ويخبرنا عن الغرفة الأولى أنها للمنادمة والمعاقرة. والثانية للمراهنة والمقامرة. والثالثة للمحاضرة والمسامرة. فبدأنا بالدخول فى الغرفة الاخيرة. فوجدنا فى وسطها منضدةً كبيرة عليها كتبٌ منشّرة. وجرائد مصوّرة. تعبث بها أيدي جماعة من الامراء . دون انتباه أو اعتناء . وأعينهم شاخصة نحو المرآة . للتمتع بالمنظَر والمَرْآة . وألسنتُهم منطلقة بالأعجمية . دون اللغة العربية. فأخذنا مجلسنا منهم ناحية . وأعرناهم أذنًا واعية . واذا أحدهم يقول لكبيرٍ من كبراء أسرته. والغضبُ بادٍ فى تقطيب أسرّته :

(أحدهم) — أنا لا أبالي بهذا اللوم والتفنيد ولا أقبل منك مشورة ولا نصيحة والله يعلم بما وراء هذه النصيحة مما تكنهُ الضمائر وتخفيه السرائر. فان كنت تريد بي خيراً كما تزعم وتدّعي فاتركني وشأني فأنا أدرى بوجوه المصلحة لنفسي ولا عليك من ذلك الدين الذي تُعيّرني به فعندي من المتاع والعقار ما يسدده ويوفيه . وكما أني لا أتكلم فى شؤونك فليس لك أن تشاركني فى أمري وتكدّر عليّ عيشي والأولى لك أن تصرف جملة عنايتك الى تدبير ثروتك فانك أحوج الى ذلك مني حتى لا يأتي عليها أمناؤك ووكلاؤك نهبًا وسلبًا وأنت مقيم فى غفلة عنهم . وأقسم لك بقبر والدي أنني

لأفضّل حالتي عن حالتك فان تبديد ثروتي وتبذيرها في سبيل ماتشتهيه نفسي وتلذه عيني خير من أن أعيش محروماً وغيري يختلس ثروتي ويتمتع بأموالي

(ثانيهم) — وأنا لا ألتفت الى هذا الكلام الفارغ بل أنذرك منذ اليوم أنك اذا لم ترجع عن سوء سيرتك وتبديد أموالك وتسلم اليّ ادارة ثروتك لتسديد ديونك وترتيب امورك طلبتُ في الحال توقيع الحجر عليك

(الاول) — مثلي لا يؤثر فيه هذا الوعيد ولا يعمل فيه التهديد ولا يمكنك أن تجد في أعمالي مايوجب توقيع الحجر غير الدين والدَّينُ أمرٌ مستفيض بين الناس لا يكاد يخلو منهُ ذو ثروة والحكومة نفسها من أكثر الناس ديناً ولا يوجد فيها مَن يعتبر الدين حجةً مقبولة لتوقيع الحجر ومع ذلك فأنا أقسم لك بكل شيء أحبهُ وأعزهُ انكم ان لم تنتهوا عن السعي وراء الحجر عليّ تنازلت في الحال عن جميع أموالي الى أحد الاجانب ليستثمرها لي في حياتي ولا ينالكم منها شيء بعد مماتي

(الثاني) — سترى مَن يكون الغالب منا والفائز فينا

(ثالثهم) — والله يا اخواني لقد كرهت الثروة وأبغضت الغنى

من طمع الاهل وفضول الاقارب وقد آليت على نفسى أن لا أبقى منها درهما واحداً لأحد من بعدى

(رابعهم) — الحمد لله على ضياع الثروة وانقضاء مشاغلها وأنا اليوم أبيع ما بقى من الاطيان لأتمتع بها فى معرض باريس قبل أن يتمتع بها سواى

(خامسهم) — وانا اسأل الله أن يعجل بربح القضية التى رفعتها على والدتى قبل حلول ايام المعرض لأكون معك

(الرابع) — وما يدريك انها تبقى معلقة فى المحاكم زمنا طويلا ينتهى فيه معرض بعد معرض

(الخامس) — أنا لا بد لى من زيارة المعرض على كل حال فان لم تنته القضية ففى يدى رسائل وأوراق صادرة عن أختى وعثرت عليها بكيفية غريبة وقد قدرت لها قيمة تكفى لسفرى وأخبرتها انها اذا لم تسرع بالنقد والدفع طبعت تلك الرسائل ونشرتها على الناس. ولا شك ان تعلقها بزوجها طمعها فى امواله يدفعها لتدارك الفضيحة بشراء تلك الاوراق فى الحال

(سادسهم) — انى لأغبطك على هذه اللقطة النفيسة واسأل الله ان يوفقنى الى مثلها مع عمتى

( سابعهم ) ـ دَعُوا هذه الوسائل الضعيفة وتعالوا نجتهد فى السعي لزيادة المرتبات التى نستحقها فى قائمة الأسرة الخديوية

( السادس ) ـ ماذا يجدى السعي فى زيادة هذه المرتبات وهي لا تزيد لواحدٍ إلا بموت آخر والاموات هنا قليل ولئن سهّل الله فغاية ما يزيد المرتب خمسمائة أو ألف جنيه فى السنة تكون من نصيب خياط أو تاجر مركبات . ولكن علينا بالسعى ان امكن السعي فى اكتساب ثروةٍ تقوم لكل واحدٍ منا بما يليق برفعة مقامه وعلو درجته بين الناس

( الثانى ) ـ لا تشغلوا أفكاركم بهذه الاوهام والاحلام فقد نضبت الموارد وجفّت الضروع ومضت تلك الاوقات التى كانت تتجمع فيها الاموال العظيمة وتتكوّن الثروة الجسيمة وفاز بها الآباء والاجداد ثم خلفوها لنا فلم نعرف قدرها ولم نحسن تدبيرها

(الاول) ـ لا تذكّرْنا ناشدتك الرحم بسيرة الآباء والاجداد ولا تقلْ انهم فازوا بجمع الأموال وحيازة الغنى فلقد قنعوا بالقليل ورضوا بالتافهِ وظنوا انهم جمعوا الكثير ونالوا العظيم فما اصغرَ

همتهم وأكبر غفلتهم ولو كنا مكانهم فى تلك الأزمان لأرينام كيف تُجمع الاموال وتُكتنز الكنوز . وماذا تقول فى عقول قوم كانت رقاب المصريين وأموالهم بين ايديهم طوع اشارة من اشاراتهم ولفتة من لفتاتهم ثم يكتفون منها بالخسيس الضعيف ويتركون لهم هذه الملايين من الافدنة يتمتعون بها اليوم دوننا . ومن كان يتصور من آبائنا وأجدادنا ان عمد الفلاحين الذين كانوا في أيامهم كالانعام لا يعرفون ماهى الحياة وماهى الدنيا قد أصبحوا يتمتعون دوننا بالاموال ويزاحمونا فى المجالس . أليس ذلك من تفريط السلف وبؤس الخلف

(ثامنهم) — إيّاكَ ان يجرى لسانك بسوء في ذكر المصريين والفلاحين واحذرْ أن تعوّده نفسك فانه غير لائقٍ بنا على مايظهر لى الآن

( الاول ) — ولِمَ ذلك حرسك اللهُ ومتى سمعنا بهذا . وماذا لقينا من الجميل عند المصريين حتى نذكرهم بغير القدح والذم وماذا رأينا من حسناتهم حتى يُقضى علينا بالاغضاء عن سيئاتهم ولكن لعلك تريد لأختك انت ايضاً مصرياً او فلاحاً للتشرف بمصاهرته

(الثامن) - لا وانما سمعت غير مرة من احد المشتغلين منا بالسياسة ان مصلحتنا تقضى علينا الآن بالالتجاء الى التودد والانعطاف نحو المصريين ليتعلقوا بأذيالنا وتنطلق السنتهم بشكرنا وحمدنا فاذا تسامع الاجانب بذلك اضطروا الى احترام مقامنا وإجلال قدرنا ليقودوا المصريين بقيادتنا وانتم تعلمون ما وراء انتفاع الاجانب بنا من انتفاعنا بجاههم فى هذه الايام التى لا تنبع موارد الحكومة إلاّ من بين اصابعهم

(الرابع) - انا لا يتسع عقلى لمثل هذه السياسة العقيمة ولا ينشرح صدرى لاظهار التودد والتعطف لهؤلاء المصريين ولو كان للاحتيال والخداع وما اخالف طبعي ولا اكلف نفسى فى هذا الباب غير ما الفت والأصوب ان نقصر التودد والتعطف على الاجانب انفسهم فهم أحق بالمحبة والولاء وأولى بالمدح والثناء . ولا لزوم لان نتوسط لهم بالمصريين فنذلّ للأذلاء ونخضع لأهل الخضوع . ولو لا المنافسة بين آبائنا واجتهادهم فى سلب بعضهم بعضاً لمَا كنا وصلنا الى هذه الحال ولا احتجنا الى طلب المال

(الخامس) - انا لا احب ان يتشعب بنا الكلام الى ذكر ما كان بين الآباء من المنافسات خشية تحريك ما فى القلوب من

الضغائن والاحقاد وليس منا مَنْ يكاد يملك نفسه عند ذكر أفعالهم خصوصا مافعله والدك بوالدي ومانتزعه من أموالنا بالظلم والعدوان ولا يغيب عنكم ماعسى أن يجرّه اتساع الحديث فى هذا الباب من المكروه

(أحد الاجانب) داخلا يقول للاول — لقد جئت لمولاى الامير بأنفسِ اختراع فى نهاية القرن ودونك الرسم فانظرْهُ وتأملهُ بإمعان فإنك لاتجد مثله فى الإبداع والإتقان وهـذا رسمها على الورق فما بالك بهيئتها وهي تجرى فى الطرق وقد شهد كل من رآها بأنه لم يشاهد مركبة كهربائية على مثل هذا الطرز الى اليوم وحسبك أن المعمل لم يصنع من جنسها الا اثنتين أخذ البرنس «هوهلوهنستين» من أمراء ألمانيا واحدةً وهذه هى الثانية جئت لك برسمها يامولاى لتأمر بأمرك . وقد سعي دولة أخيك ورائى سعياً طويلاً ليلحظ هذا الرسم بعينيه ويعلم باسم المعمل فلم أمكنه من ذلك وضننت عليه به لعلمى أنه يريد أن يسبقك الى اقتنائها ويفخر عليك بها وأنا أفضلك عليه تفضيلاً عظيماً

(الاول) — انى أعلم حسن عنايتك بى وأشكرك عليها انما أرجوك التعجيل باحضار هذه المركبة فقد أعجبنى رسمها جدًا واخبرنى فى

أي ميعاد يكون حضورها

(الاجنبي) ـ مسافة الطريق يادولة الامير

(الاول) ـ الأحسنُ أن تقصر المسافة بارسال تلغراف مكان الخطاب فى طلبها من المعمل

(الاجنبي) ـ سمعاً وطاعـة . وهذا بيان الثمن ألتمس منـك تـكليف الخاطر والتوقيع عليه

(الاول) ـ ها هو التوقيع . وقل لى عن مقدار الثمن بالتحقيق

(الاجنبي) ـ مقدار الثمن شيء ضعيف بالنسبة الى هذه المركبة الثمينة وهو على التحقيق تسعة آلاف وخمسمائة وستة وثلاثون فرنكا

(الاول) ـ لا بأس وانما لى عندك رجاء وهو أن تزيد فى مقدار الثمن اذا سألك أخى عنه وقل له انني اشتريتها بخمسة عشر ألف فرنك

(الاجنبي) ـ على العين والرأس ولقد كنت منصرفا على هذه النية من غير أن تكاشفني بذلك ولكنني سأقول له انك اشتريتها بأربعة عشر الف وسبعمائة واثنين وأربعين فرنكا على التحقيق

(الاول) ملتفتا لقرنائه ـ أنا على يقين من أن أخى يُجن جنونه حين يبلغهُ هذا الخبر فلا يهدأ له بال حتى يقترض مبلغا جديداً من المال ليشترى منه مثل هذه المركبة . وذلك دَيْدنُه كما تعلمون من

قديم كلما رآني استحدثت شيئا من مقتنيات الزينة جَرَى على أثري فيه وتشبَّهَ بي وكلّف نفسَهُ ماليس في قدرته ليلحق بي في ميدان المنافسة والمباهاة حتى وصلت به الحال الى الخروج عن الثروة والدخول في الدعاوى وما أظن ان يبقى عنده أثر من جميع ملكه وعقاره بعد شهر أو شهرين

(الثالث) ـ وماذا يصنع المسكين بعد ذلك

(الرابع) ـ ما بقي له الا ان يعيش من مال المرتب وحده

(الثالث) ـ ألم أقل لكم أن ليس لنا في آخر أمرنا الا هذا المرتب فهو وحده المال المصون لنا وهو الكفيل بسد حاجتنا وقوام معيشتنا ولا رأى عندى أصوب من السعي لطلب الزيادة فيه فهلموا انعقد بيننا اتفاقا على المطالبة بحقوقنا في هذا الباب

(الخامس) ـ أما سمعت ان الاعتماد على المرتب وحده من ضعف الحيلة ووهن الرأى

(الثالث) ـ ومالك لا ترشدنا الى طريق آخر بقوة حيلتك وحسن رأيك يقوم بأود معيشتنا في الحال ولا نعدم نفعه في الاستقبال

(الاول) ـ أنا أراه في المضاربات

(الربع) ـ وأنا أراه فى تأجير أسمائنا للشركات

(الخامس) ـ وأنا أراه فى خدمة السفارات

(السابع) ـ وأنا أراه فى التزوج باليهوديات

(السادس) ـ أو المصريات

(الثامن) ـ لا بل أراه فى ان نقوم الساعة الى غرفة المقامرة

(الجميع) ـ أحسنتَ أحسنت بعد أن نتزوّد من غرفة المعاقرة

قال عيسى بن هشام ـ فقاموا وقفنا على آثارهم نشاهد ما يجرى من بقية أعمالهم فدخلوا الى غرفة المدام فتعاطوا من أقداح الراح ماشاؤوا ولم يتعدّ حديث المنادمة بينهم حد المناضلة أو المراهنة والمسابقة هذا يراهن صاحبه أن يشرب من الخمر زجاجة بأكملها وذاك يفاخر بقوة أعضائه فيدّعى انه يرفع المائدة بيد واحدة والآخر يزعم أنه يضغط على قطعة الريال فتلين بين أصابعه والثالث يقسم انه ركب الناقة يوماً فوثب من فوق ظهرها فنزل عنها الى الارض واقفاً على رجل واحدة والرابع يحلف أنه يكلم حِصانَهُ فيفهم عنه كلامه والخامس يكرر القول بأن خليلتهُ أعلنت له بأنها لم تر فى باريس راقصاً يحسن الرقص مثله . الى غير ذلك من هذا القبيل

ولما انتهى أربهم من غرفة الشراب انصرفوا منها الى غرفة القمار فاستداروا بمائدة اللعب وأغرقوا فيه ثم لم تمض ساعة من الزمن الا وقد جرى لهم فى هذا المجلس ما يجرى من فراغ الجيوب واقتراض القروض ورهن الحلىّ وطلب الاسعاف من اللاعبين أولاً ومن الخدم ثانياً ثم لم يلبثوا أن تولد بينهم من الشقاق والنزاع ما خشينا معه سوء العاقبة وقبح الخاتمة. فأسرعت بالخروج أطلب النجاء. والباشا فى أثرى يضحك من هؤلاء النبلاء. فقلت له واين تسكاب الدمع وتنفسُ الصعداء. قال جلّ الخطب عن الحزن والبكاء. ووجب الأخذ بطريقة «ديموقريط» من بين الحكماء. ورؤيةُ الدنيا بعين ذلك القائل من الشعراء:

هذى الحياة روايةٌ لمشخِّص ... فالليلُ سترٌ والنهارُ الملعبُ

## ﴿ العرس ﴾

قال عيسى بن هشام — ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة. والمجالس الممدودة. قلت للباشا قد آن ان نعود الى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال. ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال. فأجابنى وهو يظهر التوقف. ويبدي التأفف: ما بالك تقطع على

الطريق . فى البحث والتحقيق . ومالك تحرمنى من السعي والاجتماع . الاطلاع على العادات والطباع . ولِمَ تختار أن نقتصر على ما فى الكتب والاوراق . لمعرفة الآداب والاخلاق . فنترك النظر . للخبر . واللمس . للّبس . والممارسة . للمقايسة . وأيُّ الطبيبين أدقُّ صنعا . واكثر نفعا . الطبيبُ الذى يقتصر على الكتب فى درس الاعضاء والاحشاء . أم الطبيبُ الذى يدرسها فى تشريح الجثث وهي تسيل بالدماء . على انه قد زال منى فى هذه المدّة . ما كان يعترضني من الغضب والحدّة . وانقلب العسر من أمرى يسرا . وغدا التطيب بحمد الله بشرا . وصرت لا اقابل عيوب الخلق . بغير الحلم والرفق . وتعلّمتُ ان اتحلّم . ولا اتألّم . واتبصّر . ولا اتحسّر . واتدبّر . ولا اتضجّر . فأنا اليوم اتفكّهُ بمخالطتهم . واتروّح بمباسطتهم . فلم يبق لك من عذر وجيه . ترتضيه بعد ذلك وترتجيه » . ومازال الباشا يجرى على هذا النمط فى الشرح والبيان . ويأخذنى بالبرهان فى إثر البرهان . حتى ملكنى بسلطان حجّته . وأنزلنى على حكم رغبته وكنت دعيت فيمن دُعي من الناس الى وليمة عرس من اكبر الاعراس . فقلت له عندى اليوم حدّ الكفاية . فى بلوغ الغاية . فهلم الى المحفل الذى تحتشد فيه المحافل . والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل . وسرت

به منذ أرخى الظلامُ من سجوفه وأستارِه . وبدأ فى الطور الاول من أطوارِه . فما قَرُبْنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهاراً يتألق . وفحمةَ الدجى جمرةً تتحرّق . فدخلنا ساحة كأنها مدينة . تبرجت فى يوم الزينة . فوقفنا هنيهةً فى وسط المُزدَحم . لانجد موضعاً للقدم . حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب . من ذوى العلامات فى الثياب . فدَسَّنا بين جماعة لم نعرف منهم أحدا . ولم يحسنوا التحية ردّا . فجزيناهم على ذلك بغض الطرف . وأقمنا بينهم لا ننطق بحرف . ثم أخذنا نتلمس بأعيننا صاحب الدار . فلا نهتدى له على قرار كأنما صُنعت الوليمة فى غيبته . وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته . أو أننا أخطأنا العرس الى سواه . واشتبه علينا مقره ومثواه . فهممنا بالقيام والمسير . لولا ان أشار الينا بالسلام مشير . فتبيناه صديقاً لنا من الخُلَصاء . فى جمع من الفضلاء والادباء . فقصدناهم فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحبا . وجلسنا معهم نجتني ثمر الحديث يانعاً ورطبا . وعلمنا منهم أن رب الدار في ذهول لا يدرك مايذرُهُ وما يأتيه . وأن صاحب البيت لايدرى الليلةَ بالذى فيه وأنه لا تثريب عليه ولالوم فهو مشغول بتحية كبار القوم . ممن لم يخالطهم قبل اليوم

(الباشا) ـ وهل يدعو الناسُ الى أعراسهم من لم يعرفوه

أو يخالطوه من قبل

(احد الاصدقاء) - نعم يدعو الناس الى أعراسهم كل من علا له صيت واشتهر له اسم من الامراء والكبراء والعلماء فمنهم من يجيب الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته بصاحب العرس . وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعي رجاء ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عمد الزينة وأساطين الاعراس

(الباشا) - وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله

(الصديق) - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته . وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الاعراس وينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده . وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق في إقامة العرس جميع ماله ثم بقي عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه . وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير ثم قسم دفاتر تجارته الى شطرين شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من اصناف التجارة واجناسها وشطر يتضمن اسماء من حضر العرس من الامراء والكبراء وقل أن تشتري منه صنفاً الا ويذكر

لك منهم إسماً يقسم بحياته ورأسه ان الصنف جيد والثمن فى جنبه هين

(الباشا) ـ ما كنت اعهد أن الاعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت اعهدها انها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه واصدقائه ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء

(الصديق) ـ ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب فى طعام الاعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم

(الباشا) ـ انى اعرف من هـؤلاء الخارجين ثلاثة اشخاص اجتمعت بهم في مجلس للعلماء

(الصديق) ـ نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحَمَلة الشريعة وأئمة الدين

(الباشا ـ ومالى أراهم يسرعون ويهرولون فى خروجهم وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العُرسَ منذ أول الليل وليت شعري ماالذى أزعجهم وأخرجهم . أنزَلَ بالدين مكروهٌ أحلَّ بالاسلام خطبٌ .أحدَثَ بين الناس حادثُ بدعة يستدعى قيامهم للامر بالمعروف والنهى عن المنكر

(الصديق) — لم يحدث من كل ذلك شيء ولم يعرض لهم عارض وإنما هي عادة لهم ألفوها في الولائم والمآدب اذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا الى الخروج من العرس فتراهم عند قول احد الظرفاء «يدٌ في الكباب . ورجلٌ في الركاب» والذين يعتذرون لهم يقولون انهم علماء عاملون بقوله تعالى: «فاذا طعمتم فانتشروا» وانهم يرون سماع الغناء مكروهاً في الدين فلا يجلسون في العرس بعد الطعام خشية ان يبتدىء الغناء فيحل بهم المكروه

(الباشا) — ومَن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادمُ علينا

(الصديق) هذا الشيخ المتخلف عالمٌ من افاضل العلماء ونبهائهم وهو قادم علينا للجلوس معنا فان فينا من يأتنس به ويصبو الى مجالسته

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه — ارجوك ان تسامحني في فضول القول فلا صبر لي عن الاستعلام والاستفهام خصوصاً إن كان في الأمر ما يخص الدين فقد قيل لي ان السبب في مغادرة وفد العلماء للعرس في عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجالس الغناء فهل لك أن ترشدني الى القول الأصح في هذا الباب وما الذي يجب ان

يؤخذ به و كيف انفردت انت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الغناء ان كان مكروها

(الشيخ المتخلف) ـ الكلام في هذا الباب طويل. وما اظن السبب الاعظم فى المبادرة بالخروج الاَّ طلبُ الجسم للراحة بعد الامتلاء

(الباشا) ـ انى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك. والوقت وقت مسامرة فان اردت ان نقضى جانباً منه فى ما ينفع ويفيد فقد أديتَ عليك واجباً فى الدين وجعلتنا لك من الشاكرين

(الشيخ المتخلف) ـ اعلمْ ان طربَ الغناء امر غريزى راسخ في طبيعة الحيوان. ومن الحيوانات العجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحنّ اليه وتسكن به فيضعف من قسوتها ويكسر من حدتها وربما ذلت به رقابها وامكن قيادها. وهذه الفِيلة وهى من اكبر الحيوان اجساماً وأشدّها بطشاً اذا سمعت صوتاً مرنماً او كلاماً منغماً لم يلبث هذا الجسم العظيم ان يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً ـ ولو كان في مواقف النيران ـ اهتزاز الحمامة المطوّقة على فنن من الأفنان. وهذه الابل المعروفة بأنها اغلظ الحيوان اكباداً تراها

اذا برَاها السُّرَى وأضناها التعبُ وأهلكها الظمأ فتغنى لها الحادى ذهلتْ فى الحال عما أصابها وتعللتْ بالغناء عن مناهل الماء وهي على الخِمس فى ظمئها أو العِشر (١) ونشطتْ به تستعيد القُوَى لاستئناف السُّرَى . وطالما شاهد المشاهدون هَوام الارض ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب فى مسيرها . وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن عِلة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأجحارها للمسير خلف الجيش ومن الروايات العتيقة ان احد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطىء بحر يبغى الشاطىء الآخر ولا يجد ما يحمله اليه فجلس يلهّي نفسه بالغناء واذا بدر فيلٍ قد شقّ امواج البحر يتدنّى من صاحب الصوت فلم يزل فى تدنّيه والفليسوف فى تغنيه حتى حاذَى الشاطىء وسكن يستمع فأيقن الفيلسوف انه استهواه بتأثير الغناء وذللهُ بقوة الطرب فامتطاهُ يسخره كيف شاء . فوق عباب الماء كأنه مطية وجناء (٢) تسير فى عرض البيداء . على توقيع الحداء .

---

(١) الخمس والعشر من أظماء الابل

(٢) الوجناء الناقة الشديدة

وحكاية ابراهيم بن المهدى فى اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة

هذا بعض مايقال فى تأثير الغناء فى الحيوانات العجماء مع ضعف إدراكها وكثافة احساسها ونقص خلقها فما بالك بتأثيره فى الانسان وهو اسمى الحيوان رتبة واكمله خلقةً وأعظمه إدراكا وأصفاه جوهراً وألطفه روحاً

والغناء فى تعريف قوم من الفلاسفة فن يُقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقة ترتاح لها الاذن فتهتز له نفوس ارباب المدارك العالية والامزجة الصافية وهو القوة المساعدة لقوة النطق فى التأثير فى السامع .وكان القدماء يعتبرونه لغةً عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم . وكان لابد لطالب الفلسفة عندهم من الاحاطة بفن الموسيقي مع الرياضيات وقد عبرعنه الحكيمان الكبيران فيثاغورس وهرمز أنه علم التنسيق لكل شيء ولذلك أطلقوا عليه لفظة «ارمونيا» ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل وكلهم مجمعون على ان لاشيء فى العالم يعادل تأثير الغناء فى تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات . وعندهم ان الذى لا يتأثر منه لابدّ ان يكون به

نقص في الخلقة . والغناء مغروس في طينة الانسان منذ نشأ في حجر الطبيعة ومنذ استهل في المهد باكيا فلا يسكن الا به ولا يُراح عنه الا بتطريبه . وفضل تأثير الغناء في النفوس على تأثير الكلام كفضل الشعر البليغ في لغته على ترجمته كلاماً غير موزون الى لغة أخرى .

والوقائع كثيرة جمة في التاريخ تشهد بقوة تأثير الغناء . منها ان أهل مدينة اسبرطة كانوا في فتنة اشتد لهيبها وعظم شرها فعمد جماعة من الموسيقيين الى مكان الزعماء القائمين بأمرها فما زالوا يغنونهم حتى طربوا فصفت أرواحهم ورقت نفوسهم ولانت عريكتهم فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت . وقام صياح الطرب . مقام صياح الشغب . ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد في الجند فاذا انعقد جمعهم أغرى العدو بهم مَنْ يغنيّ فيهم بلحنٍ لهم معروف يتغنى به الرعاة في قُلل الجبال فيشتعل في نفوسهم لهبُ الوجد وتهيج فيهم ثائرة الحنين وينزع بهم الشوق الى منازلهم فيلقي أسلحتهم عن أيديهم ويذهب بهم على وجوههم وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤساؤهم الحكم بالاعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء .

ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابى مع سيف الدولة بن حمدان.
اذ أضحك أهلَ مجلسهِ وأبكاهم ثم أنامهم وتركهم . وقد كان خطباء
الدولة الرومانية يتسابقون الى تنسيق اصواتهم فى الخطابة وتتبعِ
النغم لتأثير القول فى النفوس وربما استصحب بعضُهم معه احد
الموسيقيين بآلة من آلات الطرب فيجعله بجانب المنبَر حتى اذا
وجده خرج عن النغم أو شذّ نبّهه بصوت الآلة فيرجع الى الأصل .
ولسنا نجد بين الأمم امة فى بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها
الا وعندها الغناء فى الجيش آلة من آلات الحرب تُعين على ممارسة
الاهوال وتثير الى منازلة الحتوف . وكان القدماء منذ عهد داود
عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفى من الامراض والاسقام وكان
« إيسمين » فى مدينة « تيب » يزعم أنه يشفى من عِرق النَسا بصوت
الناي . وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من
بعدهما يؤكدون ان الغناء يَشفى من الطاعون ومن داء المفاصل ومن
نهش الافاعى . وقام اليوم جماعة من كبراء الاطباء فى اوربا يقررون
بعد كثرة التجارب ان الغناء دواء نافع لكثير من الامراض وأطلقوا
عليه لفظة « مِلوترابيا » يعنى العلاج بالطرَب كما قرروا من قبلُ
« الهيدروترابيا » وهى المعالجة بالماء و « الإليكتروترابيا » وهى

المعالجة بالكهرباء.. وقد جرّب أطباء فرنسا تأثير الغناء في وظائف الاعضاء بآلةٍ حاسبةٍ فوجدوا أنه يزيد في دورة الدم وفي حركة التنفس سرعة مقبولة. وذهب بعضهم أن للاخشاب التي تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل اتخاذ الناي من خشب الكينا فان سماعه يشفي من الحمى. وبلغت العناية بهذا الفن في المانيا انهم جعلوه درساً من الدروس الاساسية يبتدئ به التلامذة ابتداءهم بحروف الهجاء وينتهون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة

وجماع القول في هذا الباب من جهة البحث والنظر ان الخالق جلت عظمته قد جعل من فضلهِ ونعمته على الانسان لكل حاسة لذة. فلذةُ النظر في تناسق المرئيات وترتيب اجزائها وذلك هو الجمال. ولذة الذوق في ائتلاف الطعوم وذلك هو العذوبة. ولذةُ الشم في لطف الرائحة وذلك هو الطيب. ولذةُ اللمس في تناسب أجزاء الملموس وذلك هو النعومة. ولذةُ السمع في اتساق الصوت وحركة توقيعه وذلك هو الغناء

واما القول فيه من جهة الدين فقلّ ان تجد ديناً من الاديان في أنحاء العالم الاّ ويستعان فيهِ على العبادات بالترتيل والترنيم والتنغيم لِما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الارواح للتجرّد

والاتصال بالعالم الرُّوحاني . وما كان الدين الاسلاميّ وهو دين الأذان لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته وشأنُهُ في فطرة الانسان على ما بيّنتهُ لك . وناهيك بما ورد في الخبر الصحيح ان النبي صلى الله عليهِ وسلم سمع نسوةً يتغنّيْنَ في وليمة عرسٍ فلم ينكر ذلك عليهنّ . وقد استقبله عليهِ السلام نسوةٌ من الانصار عند مَقْدَمه من احدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهنّ يتغنّيْنَ على الايقاع بقولهن :

طلع البـدرُ علينا      من ثنيّات الوداع
وجب الشكرُ علينا      ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهنّ أيضا . وهذا عمر بن الخطاب على المعروف من غلظتهِ وشدته في الدين قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل استماد ومزح : رُوي عن أسلمَ مولاه قال مرّ بي عمر رضي الله عنهُ وأنا وعاصمٌ نغني فوقف وقال أعيدا عليّ فأعدنا عليه وقلنا أيّنا أحسنُ صنعةً يا أميرَ المؤمنين فقال مثلكما كحمارَي العباديّ قيل له أيُّ حماريك شرٌّ قال هذا ثم هذا فقلت له أنا الأول من الحمارَيْنِ قال أنت الثاني منهما . وكان عبد الله بن جعفر على قرابتهِ من رسول الله وصحبتهِ له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به

ورُوي ان معاوية قال لعمرو بن العاص امض بنا الى هذا الذي

قد تشاغل باللهو وسعَى فى هدم مُرُوءته حتى نعيب عليهِ فعلهُ يريد عبدَ الله بن جعفر بن أبى طالب فدخلاَ اليه وعنده من المغنين سائبُ خاثرٍ وهو يلقى الغناء على جوارٍ لعبد الله فأمر عبدُ الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائبٌ مكانه وتنحّى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاويةُ عمرًا فأجلسهُ الى جانبهِ ثم قال لعبد الله أعدْ ما كنتَ فيه فأمر بالكراسىّ فأُلقيتْ واخرج الجوارى فتغنّى سائبٌ بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التى كادت ونحن على منًى ... تحُلّ بنا لولا نَجاءُ الركائبِ
ومثلك قد أصبَيْتُ ليستْ بكَنّةٍ ... ولا جارة ولا حليلة صاحبِ

وردّده الجوارى عليهِ فحرّك معاوية يديه وتحرّك فى مجلسه ثم مدّ رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو اتئدْ يا أمير المؤمنين فان الذى جئت لتلحاهُ أحسنُ منك حالاً وأقل حركة فقال معاوية اسكتْ لاأَبا لك فان كل كريم طروبٌ

ودخل المغنون منزل سُكينة بنت الحسين سبط رسول الله فأذنت للناس إذنًا عاما فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم انهم سألوا حُنَيْنًا ان يغنيهم صوتهُ الذى أوله : هلا بكيتَ على الشباب الذاهب . فقال لهم :

ابدؤا أنتم فقالوا ما كنا لنتقدمك ولا نغنيّ قبلك حتى نسمع هذا الصوت فغنّاهم إيّاه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه فسقط الرواق على مَنْ تحته فسلِمُوا جميعاً وأخرجوا أصحّاءَ ومات حنينٌ تحت الهدم فقالت سُكينة عليها السلام لقد كدّر علينا حنين سرورَنا

وذُكر الدلالُ المغنى عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق رضى الله عنهم فقال انه كان يحسِن :

لِمَن رَبعٌ بذات الجيـ ش أمسى دارساً خَلَقاً

ثم استقبل ابنُ أبي عتيق القبلة يصلى فلما كبّر سلّم ثم التفتَ الى أصحابه فقال اللهم انه كان يُحسِن خفيفَهُ فأما ثقيلُهُ فلا — الله اكبر

ولقِيَ ابنُ أبْجَرَ عطاءَ بن أبي رَباحٍ وهو يطوف بالبيت الحرام فقال اسمعْ صوتاً للغريض فقال له عطاء يا خبيث أفى هذا الموضع فقال ابن أبجرَ وربِّ هذه البَنِيَّة لتسمعنّه خُفْيةً أولأَ شيدَنّ به فوقف له فتغنى :

عُوجي علينا ربةَ الهودجِ إنكِ إنْ لا تفعلى تَحْرجي

أنّي أُتيحت لى يمانية احدى بنى الحرث من مَذْحِجِ

تلبث حولاً كاملاً كلّهُ    لا نلتقي الا على مَنهجِ
في الحج إن حجّتْ وماذا مِنّي    وأهلُهُ إنْ هي لم تحجُجِ

فقال له عطاء الكثيرُ الطيبُ ياخبيثُ

وولي قضاء مكة الأوقصُ المخزومي فما رأى الناسُ مثله في عفافهِ ونُبلهِ فانهُ لنائمٌ ليلة في جناح له اذ مرّ به سكرانُ يتغني بصوت للغريض فأشرف عليهِ فقال ياهذا شربت حراماً وأيقظتَ نياماً وغنيت خطأً خُذْهُ عني فأصلحه لهُ وانصرف

وكان لأبي حنيفة رحمهُ الله جارٌ بالكوفة يغني فكان اذا انصرف وقد سكر يغنى في غرفته فيسمع أبو حنيفة غناءهُ فيعجبه وكان كثيراً ما يغني :

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا    ليوم كريهةٍ وسِدادَ ثغرِ

فلقيهُ العَسَسُ ليلةً فأخذوه وحُبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من غدٍ فأخبر فدعا بسوادهِ وطويلته فلبسهما وركب الى عيسى بن موسى فقال له ان لى جاراً أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمتُ منهُ الا خيراً . فقال عيسى سلموا الى أبي حنيفة كل من أخذه العسس البارحة فأطلقوا جميعاً فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سراً ألست كنت

تغني كل ليلة :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا . فهل أضعناك . قال لا والله ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك قال فعد الى ما كنت تغنيه فاني كنت آنسُ به ولم أرَ بهِ بأساً قال أفعلُ ان شاء الله

هـذا جملة مايذكر فى طرب الغناء طوّلت فيه وأسهبت ليتبين لك منه القول الراجح والوجه الصالح

(الباشا) ـ :

تعالى الله ماشاء وزاد الله إيمانى

ماهذا الذى أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق وما هذا الابداع والتفنن فى أطراف المعقول والمنقول وما هذا التضلع فى علوم الاولين والآخرين . وماعهدت قبل اليوم فى العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة الاطلاع فى تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها واجناسها يتنقل فى تقرير البرهان وشواهـد البيان تنقل النحل على جنى الازهار فيخرج بنا من التاريخ اليونانى الى الرومانى الى الاوربىّ الى الى الاسلامي فعجباً له أأعجمىّ وعربىّ . وشرقىّ وغربىّ . وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية اخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم،

في طريقهم فتقف عند حد العلوم الشرعية والاقوال الفقهية ثم خالفتهم الى التوسع في العلوم الدنيوية والمباحث العقلية

(الشيخ المتخلف) — لم أخالفهم الا لأن العلم حق شائع في بني الانسان ونور ساطع يستضيء به جميع الأنام فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ولا أهل ملة دون ملة ولا يقف الانسان منه عند حد . ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالف اللغات وتفرق الاجناس عن اجتناء ثمره من أي لسان كان وفي أية امة كانت وفي اي عصر من العصور . ومافي الأديان دين يبعث اهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأي وجه من الوجوه مثل الدين الاسلامي ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل فاقتصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته واعتقدوا انهم على الهدى ومن سواهم في ضلال

(الباشا) — قل ما شئت في كسل علماء الدين الاسلامي وسوء تراخيهم واشتغالهم عن العلم لا بالعلم . ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدري وعيل صبري ولا ازال كلما تذكرته جاش بي الهم والغم وتملكني الأسف والحزن . وأراك أيها الشيخ الفاضل احسنت كل الاحسان بتوسعك في

الاطلاع وتحرك فى طلب العلم وتعلقك بأسباب العلوم الاوربية. ولكننى مع ذلك لا أعنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع وتستدرجهم الى الخلط والخبط وقلّ فى الناس من يحكم نفسه للتوسط فى الامور والاعتدال فى المطالب والوقوف عند الحد. ولست أدرى الى اليوم يعلم الله أىّ العالمَيْنِ أضلُّ سبيلاً وأسوأ مصيراً العالمُ الذى يتخبط فى ظلمات الخرافات ويضرب فى تيه الترّهات ويغوص فى لجج الاباطيل بلباس الدين أم العالم الذى يُوغل فى علوم الاوربيين ويأتمّ بسنة المخالفين للدين ويغترّ بتمويه المموّهين فيضلّهُ الله على علم

( الصديق ) — ليس هذا وقت الجدال فى تلك المباحث الدقيقة والتفتوا بنا الى سماع الغناء قليلاً فقد احتشد له المغنّون

( الباشا ) ملتفتاً — نعم أصبتَ. وهل لك ان توفق لى بين حالة المغنّين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء وبين ما سمعتهُ آنفاً عن هذا الفنّ من الجلال والكمال. فانظرْ اليهم تجد أحدهم يمزح ويقهقه والآخر يتثاءب ويتمطّى وهذا يبصق يميناً ويمخط شمالاً وذاك يصيح بأعلى صوته القهوةَ القهوةَ وتأمل

فى هذا الواقف منهم فوق المنصة على رجل واحدة و بيده الرجل الأخرى يخلع منها نعله فى وجوه الحاضرين . وأين ما ينبغى أن يكون عليه المغنى من سكون النفس واجتماع الخاطر وانشراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء واستهواء النفوس اليه

(الصديق) ــ لا تؤاخذهم بما هم فيه فانهم نشأوا فى أمة يرى السوادُ الأعظم فيها ان صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن فى ممارستها حطة ونقصاً فصغرت لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم صناعتهم ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات فهم والحدادون أوهم والبناؤون سواء بسواء وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغى وكما يجىء لا كما يُرضى. ولا يغيب عن فطنتك انه لا بدَّ للمغنى من أن يثق فى نفسه بتأثير غنائه فى نفوس السامعين حتى تثور فيه نشوة الطرب ويتبادل معهم لطف الانفعال فتتصل القلوب وتتجاذب الارواح وتصعد به نفسه فى مراقى الفن وتسمو به فى صناعته الى مدارج الكمال والا كان المغنى اذا غنَّى فى غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتابة أو يسرج للأعمي سراجاً فيحل به من التوانى والفتور و يعتريه من

الانقباض والضيق مايذهب برونق الصنعة ويمحو بهجة الفن. وانك لتحقق صدق ما اقول اذا نظرتَ معي نظرةً الى هيئة السامعين فى هذا المكان. فعن يمينك جماعة من الاعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون باشارة تحية اواعادة تعطف فهم لا ينفكون طول ليلهم فى قيام وسلام للتزلف الى الكبراء والحكام وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم. وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون ابداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون برهة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الاحكام ولا يترك المحامون القضاة الا بعد أن يحتالوا على استنفاد ماعندهم من الافكار والآراء فى الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة لينتفعوا بها ويستندوا عليها فى مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح مالديهم من المشاكل والدعاوى. ومن قدّامك طائفة من الامراء والحكام لاهمّ لهم الا ان يجتلبوا توقير الحاضرين واحتراَمهم بالتأنق فى الجلوس والتكلف فى الشمائل والانتفاخ فى الثياب والفتل فى الشوارب أجسامهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة التماثيل والاصنام — فاسألوهم ان كانوا ينطقون — ولئن نطقوا بكلام فانما يدور على ان اليوم كان شديد الحر

وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل . و من خلفك ثلة من الاحداث . لم تهذبهم الاحداث . وشبان لم يُربّهم الزمان . مرمى الغاية عندهم ان تكون ملابسهم على الزى الجديد . وأن تُفرَغ اجسادهم منها فى قالب من حديد . فهم لا يتحركون حركة الا بألف حساب . خشية ان ينفرط نظام الثياب . فان قعدوا فكالقاعدين للمصوِّر فى حفظ الاشكال والاوضاع . وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الاجذاع . ولئن تجاوز حديثُهم حديثَ الملابس والأزياء . اشتغلت ألسنتهم بذكر الغلمان والنساء . ورووا عن ابن فلانٍ أو بنتِ فلان . ما تنقبض منه النفوس وتقشعر الابدان . ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين مَن يلتفت الى سماع الغناء ويتفرغ له الا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم . فكيف يتيسر للمغنين في هذا المقام أن يتقنوا فى عملهم أو يتفننوا فى صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن

قال عيسى بن هشام ـ وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مرّ السحاب . فانقضّ على الواقفين عند الباب . كأنه بارقة شهاب . أو نازلة عذاب . يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين . فى صدور القاعدين والقائمين . لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حُلّ عنه

وثاق . أو عبدٌ من العبيد يطلب الإباق . فالتفتَ الباشا يسأل الصديق : أجدارٌ هوَى فى البيت أم حريق

(الصديق) ـ لاهذا ولا ذاك وانما جاء الخبر لصاحب البيت بقدوم جماعة من رجال الافرنج ونسائهم

(الباشا) ـ أتراهم يريدون إقامة ألعاب افرنجية مع الاغانى العربية

(الصديق) ـ ولاهذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الاوربيين فى البلاد الشرقية يتشوفون فى مطالعتهم الآثار المصرية الى رؤية المحافل والاسواق فاذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا اليها بنسائهم واولادهم لتسلية الخاطر بدرس العادات والاخلاق

(الباشا) ـ قد تبين لى آنفاً ان صاحب العرس من أهل الصعيد فأية صلة بينه وبين سيّاح الافرنج تدعوه الى دعوتهم فى عرسه أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطُفيليينَ

(الصديق) ـ هم من المدعوين لا من المتطفلين . ولا يلزم لدعوتهم ان يكونَ لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرفَ أشخاصَهم ويفقَه لسانَهم ولكنَ حضورَهم في حفلة العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ينشرح به صدره ويزهو به عنده قدره ويراه فخراً له

يعلو به ذكره ومجداً للبيت يرتفع به عماده . وهو في دعوتهم بالخيار إما ان يرسل الى بعض تراجمة الفنادق فيعطيهم عدداً من تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعوها على من يكونون في خدمتهم من السياح فيبيعها التراجمة اليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهي العامة ويعتقد الاجانب ان تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناسُ إلى أعراسهم بأثمان معينة وإما أن يترقى صاحب العرس فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية ويرغب أن يحضرها كذا عدداً من السياح فيتحدث صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة الى العرس فاذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم هرع الى حسن استقبالهم وبالغ في التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق منازل الامراء والكبراء ونسي كل من في العرس سواهم وتفرغ طول ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظرْ اليه كيف يتيه عجباً ويشمخ كبراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن الى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهن على رؤوس العظماء والامراء في صدر المكان

(الباشا) — وماهذا الذي أراه في أيدي النساء يحملنهُ معهن كأنه

الاسفاط [1] فيها الحلىّ لهدية العروس فهل بلغ بهنّ الكرم الى تكليف أنفسهنّ تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنَها ولا يعرفن أهلها من قبل

(الصديق) — هذه آلات الرسم والتصوير يحملنَها ليأخذنَ بها مناظر الحرم وصور النساء فى زينتهنّ وتبرّجهنّ وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادَيْنَ بها اذا رجعنَ الى ديارهنّ . وربما نُسِخت منها ألوف النُسَخ لتُباع فى الاسواق الاوربية وتنتشرَ هناك للاستهزاء والسُخْرِيّة

قال عيسى بن هشام — ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات الى الحرم . كالصاعدات الى الهرم . تقدّمَ الى صدر المكان . ونظر فى الوجوه بإمعان . ثمّ دنا من طائفة الكبراء والأمراء . وقصد الأميرَ المقدّم فيهم بلا مِراء . فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام . ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام . فقام الأمير يمشي أمام الصفوف فى خيلائه . مشية القائد يوم بلائه . ففُتِحَ له الباب ففَتَح المائدة ولافتْحَ سعدٍ للقادسية . والمعتصم للعمورية . ومحمدٍ للقسطنطينية . نعم ولافتحَ جدِّهِ الأعلى للأقطار

(١) جمع سفط وهو الوعاء

الحجازية . ودخلت في أثره صفوف الجوع . وهم في سكون وخشوع . دخولَ التقاة . للصلاة . والعفاة . للصِلات . ثمّ مالبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل . على الحصون والمعاقل . لابل هجوم الأسود الضارية . على الأشلاء الدامية . والذئاب الخاوية . على الشياه الراعية . والنسور . على القبور . والذباب . على الشراب . واشتدّ الزحام . وزلّت الأقدام . وضلّت المذاهب . واصطكت المناكب . وشخصت الأحداق . وامتدّت الاعناق . وتهدّلت الشفاه . وتحلبت الافواه . وتحركت الأشداق . وتقارعت الأطباق . وتصاولت الأيدي بالمُدَى . كالظُبَى في الوغى . والتفّتِ الساق بالساق . واشتدّ الهولُ وضاق الخناق . ثمّ انجلت المعمعة عن شهداء التخَم . وأُسراء البشم . وقتلى الطعام . وصرعى المدام :

بأجسامٍ يحِرُّ القتلُ فيها　　　وما أقرانُهَا الا الطعامُ

ولعبت الكؤوس . بالرؤوس . والشَّمول . بالعقول . والراح بالارواح . وذهبت العقار . بالوقار . والبطنة . بالفطنة . فاختلط الحابل بالنابل . والعالي بالسافل . والرفيع . بالوضيع . والامير بالحقير . هذا يَزِحُ ويقهقه . وذاك يتمتم ويتهته . والآخر يقيء

طعاما.وسواه يقيء كلاما . ولم نسمع بينهم من قول يفُهَم ويُعقل. أو حديث يؤثر وينُقل . الاّ ماسمعناه يدور بين شاب متكلف. متصنع . وكهل مجرّب متضلّع :

( الكهل ) ـ أليس من أسوأ الاسواء وشر البلاء ماتراه من حال . هذا الصعيدىّ صاحبِ العرس كيف اعتزل سنة آبائه واجداده.. وانسلخ عن مألوف العادة فى قومه ودياره وطفر طفرة واحدة الى . العمل بعادات الغربيين والتقليد لبدع الافرنج فجرى فى الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملاءمتها لطبعه . وكيف لا يُرثي لحال هذا المسكين وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله . لاقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه فهو فى حيرة . وذهول لا يدرى مايصنع ولا يعلم مايفعل فى وسط هذه السوق. القائمة والزحام الهائل وانظرْ الى مقدار السخط النازل فوقه. والاعتراض المصبوب عليه من اكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله. ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم مايفوق الطاقة وارتكب . مايخالف العادة ثم اشهدْ معي بأنه أساء الى نفسه وجنى على أهله .

( الشاب ) ـ ما أراه الا انه أحسن صنعاً وأجاد عملاً وأخذ بالسنن . الأرشد فى التحلى بثمار المدنية والتعلق بأسباب الترقى فى الحضارة.

وقد آن أن يستوى أهل الارياف بأهل المدن فى السيرعلى النهج الغربىّ لهواً كان ذلك أوجدًّا وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة الافكار القديمة فترتفع الامة وتنتفع البلاد

(الكهل) ـ أىّ نفع يُرتجى لاهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدُّور . ولئن امتد الزمن قليلاً على عمد الارياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم الى البلاد الاوربية ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آبائهم ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق ـ لم تلبث الاموال أن تذهب ضياعا والدُّورُ أن تمسى خرابا وأن تصبح المزارع بأيدى الاجانب الذين يقلدونهم فى امتلاك الاطيان وزراعة الاراضى كما يقلدونهم هم فى باطل المدنية وزخرف معيشتها

(الشاب) ـ أظنك كنتَ تريد أن يتمام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدن بين الاحواض والمستنقعات فى قرية أبيه . وبين الاوباش والهمج من فلاّحيه ومزارعيه . فيبدل المقاصير بالخيام . والكهرباء بالمشاعل . و« البوفيه » بالسماط . والصحاف بالقصاع والأباريق بالجرار . و« الديند » بالدفين . و« المايونيز » بالمصيد .

والهليون بالفول. وعش الغراب بالحلبة. و « الموستاردا » بالمش و « المربّى » بالرطب. و« المانجو» بالدّوم. و« الكريز» بالجميز. و « الشمبانيا » بالمزر. و« الكاب » بالحليب. و « الكنياك » بعرق البلح. والموسيقى بالمزمار. والاوتار بالاذكار. «والبيانو» بالارغول. و «الأُروكِستر» بالرباب. و « البالو » بالسحجة و« مس أوستن » ببنت أمّ شنب. وموكب الزفاف بلعب الهوّارة. ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام. ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة. وكتبة المراكز والصيارف. بدل أمراء البورصة والمصارف. ويضع على رؤوسهم سعف النخيل والعراجين. بدل أكاليل الازهار والرياحين...

(الكهل) — يكفيك فقد أسهبت في الشرح والوصف. وأنا أقول لك: نعم يعجبني أن يكون الامر على مثل ماتسخر منه مادام من عاقبته عمرانُ البيوت وحفظُ الاموال وبقاء الأحساب وإطعامُ المساكين وبرُّ الاقارب وإسداء الخير للاصحاب والجيران وإدخال السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها. بهذا ينتفع أهل البلاد ويَرضى الناسُ بعضهم عن بعض. ولا ارضى ابدا ان ينقلب الحال كما أراه مادام من ورائه عواقب الخراب وسُخط الناس



وعقوق الاهل ولصوق العار ووقوع الفضيحة وسوء المصير .
وَمن الذى يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى هذا الرجل العريق النسب فى أهل الصعيد أهلِ الشهامة والحمية وذوى الغيرة والأنفة ومن حولهِ الخصيان على مانشاهده الآن يطالبونه أن يأمر الخدمَ بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فى الحرم وهو يعرف حكاية الأعرابى الذى سقوه الخمرَ فى أحد الاعراس ولم يكن ذاقها من قبل فلما ثارت سَورتُها قال لمن حوله من أهل البيت ان كان نساؤكم يشربنَها فقد زَنينَ وربِّ الكعبة » ولست أدرى على كل حال ماالغرض الدافع لصاحب هذا العرس الى احتمال كل هذه الفضائح والمَعايب . فان كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بإنفاق تلك الاموال الطائلة فى إقامة الاحتفال فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على مانسمعه ونراه وليس فيهم الا كل منتقد لعمله معترضٍ على فعله يرميه بعضهم بالتبذير ويرميه بعضهم بالتقصير . وان كان الغرض من هذا التوسع فى الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوه أخرى تفيده وتفيد النـاس ولإبتناء المحامد سبلٌ شتى تُرضي النفوس وتسر القلوب ولو كان اقتصر فى إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه

فيها و بذل النصف الآخر فى باب من أبواب البر والاحسان مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجيء وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى الصناعات خلَّدَ ذكره بين قومه بالعمل الصالح ولأقاموا لمجده صُروحاً من طيب الأحدوثة وجميل الثناء

قال عيسى بن هشام — ومانشعر الآن وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ويَعدُونهم بالعودة اليها بعد غسل الآنية وتجديد الالوان . فلم يَسمع لهم أحد ولم يُلتفت الى صياحهم فأخذوا فى التصفيق بالأكف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج فلم ينتقلوا ولم يتحركوا فعمد الخدم الى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا الأضواء وتركوهم يتخبطون فى الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون الابواب فسبقناهم الى الخروج والتقينا فى خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان فى هذه الحال ويتخاصمان فى شدة السكر فلطم احدهما صاحبه فسقط على الارض يتخبط فى قَيئه . وينشد هذه الابيات فى هذره وهَزْئه :

شربتُ الخمرَ حتى قال صحبي ألستَ عن السِّفاهِ بمُستَفيقِ
وحتى ما أوسّد فى مَبيتٍ أنام به سوى التُّربِ السّحيقِ

وحتى أغلقَ « البوفيه » دوني وآنستُ الهوانَ من الصديقِ

وسمعنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيهاً وعجباً ويصعرّ خدّه صلفاً وكبراً:

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ انى أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَانِ

وسمعنا فى الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم فسكت المغنّون وضج المكان واضطرب الحاضرون ووقف الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسى يتطاولون لمشاهدة العروس وهو فى زمرة من اخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى اذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً فقام احد الحاضرين فصعد على منصة المغنّين صعود الخطيب على المنبر فشخصت نحوه الابصار ومالت اليهِ الاسماع واذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها : «أيها الحاضرون والغائبون . هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور . على منابر الحبور . وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور . من سماء القلوب وأرض الصدور. وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون . فانجلت عن بصائرنا غمائم الأحزان ووبل الشجون . ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان . الراكبين فيه لحيازة قصب الرهان . ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف . بحروف الرماح ورماح الحروف .

ولا من المتطين فى شروح البلاغة متون الضوامر . ولامن السابحين فى بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر . ولا من الساحبين حلة سحبان . ولا من المتدرعين في حصون المعانى والبيان . وقد حيل بين العير والنزوان . إلاّ أن ما أعرفهُ فى هذا العروس من العلم والاقدام . وماله فى مستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الاقدام . وما أعتقده فيه من محبة الأوطان . ومصادقة الاخوان . كما أن ما أعلمه وأتحققه فى العروس التى تزف اليه هـذه الليلة . من علمها بتدبير المنزل وفروض العيلة . وماهو مشهور عنها لدى كل قاص ودان . مما يوجب حسن القبول والامتنان . وما شهد لها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس . بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس . وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح . وأتوسمه فى جباههم من الفرح والانشراح . كل ذلك هو الذى جرأني على الوقوف فى هذا الموقف الحرج . وسط بحر هذا العرس المتموج . وانى أتوجه اليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيرى صفحا . وأتقدم لكم بنفسى لتطووا عن هفواتها كشحا . وأطلب منكم أن تشربوا معي نُخَب الكؤوس . فى نَخْب العروس . وتقولوا معى فليحيَ هذا الشاب فى هناء وسرور . ورخاء وحبور . ممتعاً بنشأته

الرفاء والبنين . وناشئة الاولاد الناجحين . ماناح القمرىّ فى رياض البساتين . وصاح الأخدرىّ بين الاعشاب آمين آمين »

ثم نزل الخطيب فقابلتهُ الاكفُّ بالتصفيق والافواهُ بالتهليل والصدورُ بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثاً بالسلام . ثم اعقبهُ على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام . فأنشد هذه القصيدة النادرة . والمدحة الباهرة :

يأوقات الهناء الصافيات　　تجلّي الانس من كل الجهات
لقد قام البشير بها ينادى　　على أهل العروسين الهداة
وفى تلك الصدور الفرْح يجرى　　كما تجرى خيول الصافنات
فبشرى أيها الشهم المفدى　　بخير الغانيات الآنسات
ظفرتَ بدرةٍ فى عقدِ ماسٍ　　من المتأدبات الراقيات
وقد زفوا بهذا الأُفق بدْراً　　الى شمس الهدى والمكرمات
تغذتْ بالمعارف والمعالى　　فحازت زينة المتعلمات
يُرَجّى أن يكون كذا بنوها　　لدى أيامنا المستقبلات
بهم تزهو الشبيبة فى المرامي　　وتغدو للحِمى أقوى الحماة
بهم ترقى المواطن مرتقاها　　وتصبح قدوة التربيات
كجيش فى البلاد عرمرمىّ　　وجند فى الحروب مبرّزات

وتمشى التيه فى أوج المراقى ‏ ‏ ‏ وترفل منهُ فى حلل الثبات
فتصبح أنت خير أب كريم ‏ ‏ ‏ وتصبح تلك خير الامهات
ودمتم بعد ذاك بألف خير ‏ ‏ ‏ ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت ‏ ‏ ‏ لجئت بألف بيت شاهقات

ثم انتهينا بحمد الله من انشاء بعد الخطيب . وعاد المغنون الى اللحن والتطريب . فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف . من ركن الى ركن ومن صف الى صف . فلم أجد فى الحاضرين بلا استثناء . من هو ملتفت الى سماع الغناء . بل رأيتهم يوجهون النظر الى السماء . ويكثرون من الاشارة والايماء . كمن يتضرع بالدعاء . لكشف المحنة والبلاء . فرفعت مثلهم نحو السماء بصرى . فدهيت من حيث أدرى ولا أدرى . اذ رأيت نوافذ الدار . مهتوكة الاستار . وفى كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب . كالدمية فى المحراب . أو كالصورة تتألق فى إطارها كالشهاب . او كالبدر بدا مسفراً من خلل السحاب . تنفذ منها مثل خيوط الغزالة للمغازلة . وتجرد من اللحظات مثل سيوف الكماة المنازلة . فتصيد طيور القلوب الحوائم . وتفتك بمهج النفوس الوواثم ثم تراها تومئ بكأس الصهباء . الى شفتها الحمراء . وتلمس واسطة العقد . بزهرة من الورد . فيشتبه على الرائى وجه

الأمر . باختلاف اليواقيت كالجمر . ياقوتة الخمر . بياقوتة الثغر ؛ وياقوتة الزهر . بياقوتة النحر . ثم لا تفتأ ترسل الاشارة تلو الاشارة . تارة بالمروحة وأخرى بالـ«السجارة» . مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور . وتفصح إفصاح المعانى فى السطور . والرجالُ من تحتهن يجاوبونهن على أعين النظار . طوراً باشارات الأيدى وطوراً بلغة الازهار . وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواه . وتغلب على أهل النوافذ بهواه . وأضرم فيهن نار العشق وجواه . وخلع قلوبهن بدعواه . وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم . أو أخواتهم وبنات أخواتهم . والمغنى يستقبل وجوههن فى هذه الاثناء : بوجه ليس فيه أدنى حياء . فيغنيهن من الاصوات والألحان . ما يثير من الغرام ويهيج من الأشجان . والخصيان يصعدون الى الحرم بأوراق وينزلون منه بأوراق . يخترن فيها الادوار السائرة على ألسنة العشاق . فى وصف حرارة الاشواق . ومرارة البعد والفراق . وما زالت الحال تتزايد قِحة ووقاحة . وتتضاعف هتكاً وفضاحة . حتى قام فى وسط المكان جماعة من الاصحاب . يتقاذفون بألفاظ القذف والسباب . ثم انهم انتقلوا من التلاعن والتشاتم . الى التضارب والتلاكم . فقام الحاضرون على الاقدام . لمشاهدة ميدان

النزال والخصام . ثم تداخل رجال الشرطة بينهم لفض المخاصمة وسوقهم الى المحاكمة . بعد أن تمزقت الثياب تمزق الأوراق . وتخضبت الوجوه بالدم المهراق. فصارت الافراح أتراحا . وانقلب الغناء نواحا . وقلتُ لصاحبي هلمّ بنا الى الفرار . من مواقف التهمة والعار . وخرجت به أسوقهُ أمامي . وأقول له في بعض كلامي : لقد حق لك بعد الذي رأينا ونظرنا . وبلونا وخبرنا . أن تلتهب بالغضب والحنق التهابا . او يذهلك الدهشُ والعجب فلا تحير جوابا . وهل بقي بعد ذلك فرقٌ بين سرور الدنيا وحزنها . أو فضلٌ لظهر الارض على بطنها . فأجابني بلسان الحكيم المدرّب . والحليم المهذب . وهو يتبسم استهزاء ويهزّ كتفيه ازدراء : لم يبق فيّ بفضل الحكمة فضلٌ للسخط والغضب . وعجبي اليوم مما أري يكون من العجب

﴿ العمدة في الحديقة ﴾

قال عيسى بن هشام — وتمكّنَ من الباشا حبُّ الاستكشاف والاستطلاع . لدرس الاخلاق وسبْرِ الطباع . وتبدلت الوحشةُ عنده بالائتناس . في مخالطة الناس . فصار يُلحّ علي ويَلج في الطلب .

أن أذهب به فى هذا السبيل كلّ مذهب . وأنا أداوره وأحاوله . وأماطلهُ وأطاولُه . وهو لا ينفكّ يستنجزني ويستقضيني . واذا استعفيتهُ لا يَعفيني . فقلت له لم يبق أمامنا من المجالس والمنتديات . الاّ ما اشتملتْ عليه الازبكيةُ من المخجلات المُنديَات [1] وما تضمنتهُ من صنوف الرجس والنكْر . وفنون الفسق والسكر . وأنا أُجلّك أن أسلك بك مسالك الظنّة والتهمة . وأن أحلّك محالّ الريبة والشبهة . وأربأ بسنّك وقدرك أن تختلط بتلك الزُمَر . وتدخل معهم فى تلك الغُمَر . وتقسر نفسك الشريفة على مالم تألفه من مثل مايعملون . وشَرْوَي ما يفعلون [2] . فلا تأمَن حينئذٍ نقد الناقدين . وطعن الطاعنين . وقاسَمْتهُ انى لك لَمِنَ الناصحين . فقال ألى تقول ذلك وقد آتيتَنى من دروس الحكمة العالية . وضروب الفلسفة السامية . ما أزدرِى معه عذلَ العاذلين . وأحتقر به لومَ الجاهلين . ولَنْ يَضير النفسَ الشريفةَ الطاهرة . أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة . وقلّ أن يُعدِيَ المريضُ الطبيبَ . وتذهبَ رائحهُ الدَفْر [3] برائحة الطّيب . والامعانُ فى رؤية النقيصة والرذيلة . يزيد النفسَ الفاضلة تمسكاً بالفضيلة . ولا يَعرِف قدرَ الرشد والهداية . الا مَنْ نظر فى

(١) المنديات المخزيات (٢) شروى مثل (٣) الدفر النتن

أعقاب الضلالة والغَوَايَة . وبالظُّلمة يُعرف فضل الضياء . وبضدّها تتبين الأشياء . ـ ذلك من فضل ماعلمتني مما علّمت رُشدا ـ . ولقد كان من أدب الحكام فى أيام دولتنا . وزمن صولتنا أن يغيروا من هيئاتهم . ويستروا من سماتهم . ويبدّلوا من أزيائهم المعروفة . بأزياء غير مألوفة . ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم . ويقفوا على جلية أمرهم وحقيقة أحوالهم . فلم يكن ذلك مما يغضّ بسمعتهم . أو يحط من رتبتهم . عند ظهور أمرهم . ووضوح سرهم . فلا عليك اذاً أن تسلك بى ماشئتَ من المسالك . ولا تخشَ عليّ شيئاً من تلك المعاطب والمهالك .

قال عيسى بن هشام ـ ولما لم يبق لى بد من امتثال حكمه . وتنفيذ عزمه . قصدتُ به من الازبكية روضتها الغنّاء . وحديقتها الفيحاء . فلما وصلنا الى بابها . ووقفنا عند دُولابها . وضعت فيه أجرة العبور كما توضع النذور فى صندوق النذور . ودرتُ فيه دورتى ودار الباشا دورتَه . فقال لى وهو يدافع الغضب وسَورتَه . هل كُتب على الداخلين فى هذه الجنة الزاهية . ان يدور الانسان دورة الثور فى الساقية . فقلت له نعم شاع التخوين بين الناس فى جميع الاشياء . فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء . لتكون عليهم رقيباً عتيدا .

لايستطيعون معها اختلاساً ولا تبديدا . فهي ترقم من الداخل عند كل دورة . ما ينقده الداخل فيها من الاجرة : فلا يضيع منه مثقال ذرّة . ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا من المنظر وازدهاه . وراقهُ بهاء المكان واستهواه . وتملكه الابتهاج وتولاّه . فقال ماشاء اللهُ لاقوة الا بالله : لمن هذه الجنة من كبراء البلد . قلتُ هي ملك كل واحدٍ وليست بملك أحد . انشأتها الحكومة من «المنافع العامة» لنزهة الخاصة والعامة . ثم سرنا نطوف في أنحاء الحديقة . بين اشجارها الوريقة . واغصانها الرشيقة . وازهارها الأنيقة . والباشا يهتز طربا . ويميل عجبا . لحسن هذا المنظر العجيب . والنبت الخصيب . ثم وقف بنا وقفةً بين بَرْد الظلال وخرير الماء . وَرَفَعَ ببصره يقدّس باسطَ الأرض ورافعَ السماء . ثم رأيته يُنحني للركوع انحناء القوس . بعد أن أنشد قولَ حبيب بن أوْس :

أرضٌ اذا جرِّدتَ في حسنها فكرَكَ دلَّتكَ على الصانعِ

وسمعته يتلو في الركوع والسجود . قولَ صانع الوجود : «ولله يَسْجد مَنْ في السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً وظلالُهُم بالغُدُوّ والآصال» وقوله أيضاً عزّ مِنْ قائل : «يُسبّح له السمواتُ السبعُ والارضُ ومَنْ فيهن وإنْ مِن شيء الا يُسبح بحمده ولكنْ

لاتفقهون تسبيحهم »

ثم انثنيت به فى طلب الراحة . فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة . ودارت بيننا هذه المخاطبة . بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) ـ كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصا وبالمرتاضين مزدحما يشاهدون جماله ويتفيأون ظلاله ما دامت الحكومة قد أباحته لكل رائح وغاد كما تزعمه . ومالى لا أرى فيه غير هؤلاء الاجانب فى أزيائهم بأبنائهم ونسائهم فهل وقفته الحكومة على الغربيين وحرمته على المصريين فانى لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا الى هذه الساعة

(عيسى بن هشام) ـ لم تؤثر به الحكومة قوما دون قوم ولكن المصريين كأنهم ألفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها وأخصها معرفة ما حسن فى الاشياء وتمييز الجمال والكمال ومواضع الاحسان والاتقان فى صنعة الوجود ورياضة الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تسبح بحمد خالقها أى تدل عليه بصنعته فيها . وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره فى الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والامعان فى خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس

والاقمار والنجوم والكواكب ولا فى خلق الارض وما ينبت فيها من النبات ويدب من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال وهي بجمال صنعها وكمال وضعها :

تَصيحُ بِمَن يَمُرُّ ألاَ تَرانى   فتفهمَ حكمةَ الخَلقِ العجيبِ

(الباشا) — جلّ الخالق الصانع . ولكن لأيّ سبب أَلِفَ المصريون غفلتَهُم عن التمتع بهذه النعمة نعمةِ المشاهدة ولذةِ المطالعة وصار الاجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عنهم

(عيسى بن هشام) — لاسبب فيما اعلم الا التمادى فى التهاون والتراخي عن إيقاظ هذا الشعور الغريزيّ الكامن فى النفس وتنميته بالرياضة والتفكير ومعاودة الامعان والتدقيق وقد اعتنى الاجانب به عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته ، حتى صار لديهم مَلَكة من الملكات وفناً جميلاً من أرقى الفنون فدرّبوا عليه ومرّنوا فيه وسَرَى فى دمائهم يتوارثه الابناء عن الآباء فترى الطفل فيهم اذا شبّ ودرج وأراد أنْ يَتحِف اهله يوماً بادر الى الروض فاقتطف منهُ اول زهرة من الربيع وتسابق بها اليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم . ولقد برعوا فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموّهِ ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المرئيات الطبيعية

بل تجاوزه الى المرئيات الصناعية ففيهم من يبذل الالوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ورسم من الرسوم يحسن تمثيل زهرةٍ من الزهور أو دائرةٍ من الشفق أو راعٍ من الرعاة أو حيوانٍ من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته فى الاصل الطبيعي وبين قيمته فى الشكل الصناعي وقلّ أن تدخل دارَ ميسورٍ منهم الاّ وتجد أنحاء الجدران مزدانة بألواح التصاوير والتهاويل مما يحاكى المناظر الطبيعية فلا يفوت صاحبَ الدار أن يتمتعَ بحسن المنظر فى داخلها إن حجبتهُ عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها. ولقد جرّهم ذلك الى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس فى اقتنائها والتغالى فى التحفظ عليها والضنّ بها فكم رأينا من قطعةٍ من الحجر أو غيره تزدريها الأعين بيننا ولا يعبأ بها المصريّ فيطرحها فى كناسة منزله فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الاجنبيّ فى بحثه وتنقيبه فتصير عنده فى قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد . وكم رأينا من السيّاح مَنْ يتكبدون مشاق الاسفار ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الالوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدِّمَن وما عفا من الرسوم فى هذه الديار وربما رأينا المصريّ ساكنَ القاهرة يشبّ ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعمر ويهرَم ولم يرَ من الاهرام

القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد وربما لم يلتفت الى رؤية ذلك أيضا حتى يدركه الموت

(الباشا) - تالله إن ذا لمن العجب . ولو كان الامر يجرى على القياس لكان المصريون فى مقدمة الامم التي ينمو فيها الشعور بلذة التأمل فى بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لرقة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والانفعال فى نفوسهم ولما ميزهم الله به من حسن الاقليم واعتدال الجو وفيض الماء وخصب الارض ولانحصار موارد أرزاقهم ومعايشهم على استنبات الارض وطول ممارستهم للفلح والحرث والزرع والحصد . وكل من رأى الاقليم المصرى كالزبرجدة الخضراء فى وسط رمال الصحراء لا بد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة ويغبطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذى يجلو البصر ويثلج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من هواجس النفس ويلابل الصدر فتصفو الروح فتخف من قيود دار العالم السفلى الى الاتصال بمعارج العالم العلوى فتزتاح هناك هنيهة مما تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الاكدار والالام وتفر من وجهها برهة الى وجه ربك ذى الجلال والاكرام . واعلم - وهذه لفظة طالما أفادنى تكريرها على لسانك فاسمح لى بها مرة من

لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب ـ أن الفرق بين الانسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ففى الخلقة ما يشبهه. ولا فى النطق ففى الحيوان ما ينطق . ولا فى الذكاء ففى هوامّ الارض ما يفوقه ذكاء؛ وانما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يفضُلها بها هى إدراك حقيقة الوجود بالامعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والارض للاهتداء الى معرفة خالقها وعبادة صانعها قال جلّ وعزّ فى محكم بيانه: «أفَلَا يَنْظُرُونَ الى الإبلِ كيف خُلِقَتْ والى السماء كيف رُفعتْ والى الجبال كيف نُصبتْ والى الارضِ كيف سُطحتْ فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّر» . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الانسانَ دون سائر المخلوقات وهى أشرف اللذات وأصناها وأفضلها وأبقاها. وما يتقرب العبد الى الله زُلْفَي فى عبادته بأجلّ من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلْقه قال وهو أحكم القائلين : «إنّ فى خَلْقِ السموات والارضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولى الألبابِ الذين يَذْكُرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون فى خلق السمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقِنَا عذابَ النار».
ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا مَنْ

تجرّد مثلى يوماً من عالم الاجسام والفناء الى عالم الارواح والبقاء ولا ينبئك مثل خبير

ولو كانت الامور تجرى على القياس أيضاً لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة وسموا في نموّها فيهم إن لم يكن من جهة لطف الاحساس والشعور فمن جهة انصرافهم الى تقليد الغربيين والعمل على غطهم في مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً فى جميع حركاتهم وسكناتهم . ولكن لعل هناك من خفىّ الاسباب ما حرمهم من اطراد التقليد فى هذا الباب

(عيسى بن هشام) — لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم الى الفتور والانكماش سواء أكان فى الماديات أم الادبيات . وهم على شدة ولعهم بتقليد الاجانب لا يقلدونهم الا فى ماخفّ وهان من الزخرف المموّه والبهرج الكاذب والملاذ الشهوانية مما لا ينتج عنه إلا سقم الاجسام ونفاد الاموال وماعدا ذلك من أمور المدنية النافعة فمجهولٌ عندهم بل مرذول لديهم . وإجمال القول فى هذا الباب ان مثل المصرى فى أخذه بالمدنية الغربية كمثل المنخل يحفظ الغث التافه ويفرط فى الثمين النافع

(الباشا) — ياأسفا عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدنيتهم القديمة

ولم يتحلوا بفضائل المدنية الحديثة فأصبحوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثا

قال عيسى بن هشام ـ ومازال الحديث يجرى بنا على هذا النحو حتى وصلنا الى المغارة المصنوعة فى بعض أنحاء الحديقة فرأينا صنعاً جميلاً وشكلا بديعاً واعجبنا تدفّق الماء من ثنايا الاحجار فجلسنا على سُرُرٍ هناك أُعدّت للزائرين . واذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين شغَلَهم اتصالُ الحديث بينهم عن الالتفات الينا فأقمنا نسترق السمع ونلتقط اللفظ فتبين لنا من سياق كلامهم ان أحدهم عمدة من عمد الارياف وثانيهم تاجر من تجار الثغور وثالثهم فتى من أهل البِطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع فى مجرى حديثه :

(العمدة) ـ وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا الجلوس ولم نرَ شيئاً . وهل كان جلّ القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الاشجار ورطوبة الهواء وعفونة الماء . وتالله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذى خلقته خلف بلدتنا ولعمرى إن الأوزّ الذي يسبح فيه هناك أكثر عددا وأعظم سِمَناً من الأوزّ الذى يَسبَح أمامنا وما الفائدة في طول جلوسنا امام هذه

الاشجار العقيمة التي لا تثمر ولا تغني من جوع . وأين نحن من ذلك الثمر الشهيّ والصيد الطريّ الذي وعدتنا بهِ وأطمعتنا فيه

(الخليع) ـ مهلاً فان يفوتك من هذا شيء وان كنا أخطأنا الغرض هنا لانني كنت أظن الحديقة على عهدي القديم بها وما كنت أتخيل ان الامر وصل بها الى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان الا منذ أخبرني أحد الاصحاب بعد دخولنا بان الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلوّ يدها من الاشغال فباشرت الاصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها والتجول في أنحائها . ولا أقول في هذه النازلة الا قول الجرائد في التأفف من أعمال الحكومة :

« حسبنا الله ونعم الوكيل »

(التاجر) ـ وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالي والايام التي كانت فيها الحديقة مرتعاً للحسان وملعباً للقيان . ولطالما دخلت هنا وحيداً فريداً فما اكاد أنصب الحبالة وأضع الحَبّ حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع

(العمدة) ـ يعلم الله ان العاصمة اصبحت على حال لا تصح معها الاقامة الا مدة قضاء الحاجة والرجوع الى البلد فوراً والاّ فقد عرّضَ الواحدُ منا دراهمَهُ للضياع وصدرَهُ للانقباض. والى الآن

تراني في غاية الاسف والحزن على ما جرى لي أمس في سهرتي مع فلان الموظف اذ جرني للنزهة معه فطاوعته على هواه أملاً في إنجاز حاجتي عنده فسحبني من مكان الى مكان ومن حان الى حان يشرب هو وأصحابه على حسابي وكأنما أجوافهم دنان متخرقة فلا تمتلئ ابداً من الخمر وكأنما كيسي كنز لا يفنى بالانفاق . وما كدنا ننتهي من حانات الخمر حتى اندفعوا بي الى بيوت القمار فأصبحت مصدّع الرأس من الخمر فارغ الكيس من القمر

(التاجر) — ولِمَ تطاوعه على أغراضه وتنقاد اليه مع أصحابه وتنفق مثل هذا الانفاق من غير حظ ولا لذة . وان كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفى في ذلك أن تضع « المبلغ المناسب » في يده وتتخلص منه ومن أصحابه فلا تسايرهم ولا تعرّض نفسك للتورط معهم كما فعلتَ

(العمدة) — يحق لك ان تعترض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام فان أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الارياف فنحن في اضطرار دائم الى استرضائهم « والمبلغ المناسب » الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء الحاجة بل يلزم الانفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلك

البالغ وان لم يكن لك عندهم حاجة فى الحال . وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً فى تعطيل عمل كبير وما يدريك أن الذى تغضى عنه الليلة ولا تلتفت بنظرك اليه فى حانات الازبكية يصبح غداً قاضياً فى المحكمة أو حاكماً فى المديرية

(الخليع) مقاطعاً — اذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك فلنا عنها عوض من ليلتنا هذه ان شاء الله

(العمدة) — أتصدقك فى وجود العوض وقد أخلفت وعدك معنا فى هذه الحديقة وآذن الليل بالدخول وليس فى اليد شيء من الصيد

(الخليع) — صدقنى بالله فانى ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة لانى كنت مقيما بحلوان مدة طويلة وجئت وأنا أحسبها على حالها الاول . ولكننى قد رتبت لك الآن سهرة في فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت فانى أعرف صاحبا لى أخبرنى عن بيضة خدر من بيت فلان باشا فقوموا بنا وأنا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل وسأكتم عنها أمركما الى ان تصير معى فى الموضع الذى أختاره ثم أرسل اليكما من هناك من يأتينى بكما فيكون دخولكما على حين غفلة فلا تستطيع الاختفاء

ثم تضطر الى البقاء فى مكانها وحينئذٍ يدور بنا المجلس معها دورة الانس والسرور. ولكن لا أخفى عنكما ان مقدار ما معى من الدراهم الآن لا يكفى لإعداد معدّات هذا المجلس وأخشى إن أنا ذهبت الى البيت لآخذ دراهم أخرى أن يمنعنى أهلى من الخروج ثانية كما هى العادة عند النساء فى التضييق على الرجال

(العمدة) ـ لا عليك فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة

قال عيسى بن هشام ـ وقاموا فى الحال للسعي وراء اللهو والمجون . وقام الباشا يسحبني وراءهم للعلم بما سيكون

﴿ العمدة فى المجمع ﴾

قال عيسى بن هشام ـ وخرجنا فى أثر الخليع والعمدة والتاجر . وقد ألقت ذُكاء يمينها فى كافر[1] . ثم أضيئت بعد ذلك شموع الكهرباء فنادت الشمس متوزّعة فى مصابيح الضياء . كالنجوم تتلألأ فى أفق السماء . وتقشع دياجي الظلماء . ولما توسطنا ساحة «الاوبرا» و «الأوبرا بار» . وقف الباشا وقفة الاعظام والإكبار . يكفكف غَرْبَ الدمع والاستعبار . ويقول سلامٌ على إبراهيمَ أإبراهيمُ فى

(١) ذكاء اسم للشمس والكافر الليل

النار . كيف لا يضطرم القلبُ استعارا . ويجري الدمع مِدرارا . فلا أستطيع أُوارِى (١) . ولا أستطيع أُوارِى . وقد تمثل أمامى فى هذه البقعة . وهى موسومة بسوء السمعة . بطلُ مصر . ورافع بنودِ النصر . وقائدُ جيوش الحرب وهاديها . في مفاوز الأرض وبوَاديها . وموقدُ نيرانِ الوقائع وصاليها . وخائضُ غمرات الملاحم وجاليها :

فى كلّ مَنبتِ شعرةٍ من جسمهِ أسدٌ يَمُدُّ الى الفريسةِ مخلبَا

وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد . في مواضع الهزل والدد (٢) . ويقيموا لابراهيم صنماً على صورته . في وسط سوق الفسوق وسُرّته . مشيراً بيُمْناهُ الى مواطن اللهو والفجور . وأماكن الفُحش والفُجور . ودِينهُ يَنهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها . ويأمرهم بكسرها وإبادتها . ويا بؤسَ قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للكماة والفرسان . فى ميدان الضرب والطعان . بمصافحة المنايا . ومقارعة الاقران . تشير اليوم وسطَ هذا الميدان . بمغازلة البغايا . ومعاقرة الدنان . فسبحان محوّل الأحوال ومبدّل الأزمان . فقلت له ما هذه الأفكار المحزنة . أحنيناً الى تلك الازمنة . وقد انقضتْ

(١) الأوار حر النار (٢) الدد اللهو واللعب

بخيرها وشرّها . وذهبتْ بحلوِها ومُرّها . وأين أنت من طريقك في الحكمة والسَداد . ومن سبيلك في الهداية والرشاد . فخفِّضْ عليك من حزنك وهمك . واتركْ تلك الهواجس فأنت ابن يومك . ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطانا مطاعا . فيذهبَ ما استفدته من العلم ربحا مضاعا . أما إقامة التماثيل في الميادين . ومخالفتها للشرع والدين . فقد أقامها حكامُنا تقليداً للغربيين . ولم ينكرها أحدٌ من طلبة العلم وعلماء المسلمين . فاستنامت اليها الافكار . ولم يوقظها التحريمُ والإنكار . وأمّا وضع التمثال في هذا المكان دون سواه . وإشارتُهُ فوق الحصان بيمناه . فلعل الآمرَ بوضعهِ أراد أن يذكّر هؤلاء الغافلين الذاهلين . بما كان لآبائهم الأولين . من الشأن الرفيع ؛ والركن المنيع . أيام إمارتهِ . وينبّههم على ما انتشر ذكره في الآفاق . وخلّدته لهم بطونُ الأوراق . من اقتحام المهالك . وافتتاح الممالك . تحت قيادتهِ . وهو يشير اليوم بتلك اليد . ليستفِزّهم الى مواقف العز والمجد . ويستنفرَهم عن مواطن الخلاعة والبطالة . الى مواطن الشجاعة والبسالة . فتبسم الباشا من قولي ضاحكا . وقال ما عهدتُك في الجواب محاولاً مماحكا . فقلت له دَعْ هذا وانظرْ الى هذه البُنيَة الايوانية . ذات الأرائك

الخسروانية . فقال أعظِمْ به مِنْ بناء . بين بيوت الكبراء . قلت هو بيتُ لهوٍ رفعَ اسماعيلُ قواعدَه . وبوّأ النـاسَ مقاعدَه . يشاهدون فيهِ صنوف الألاعيب . وضروبَ الأعاجيب . مما يؤخذ عن أساطير الاولين . وأقاصيص الرّاوين . وما تَفتَنُّ فيهِ كلُّ غادةٍ حسناءَ . من جمال الزينة وحسن الرُّواء . وتَفتِنُ به كلُّ قَينة هيفاءَ . من فنون الرقص والغِناء . اقتداءً بالغربيين في ديارهم . واحتذاءً لآثارهم . وقد بقيَ من بعدِهِ تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع والفلاح . لتفكهة النزلاء والسيّاح . ثم انظرْ أمامك الى هذا المجتمَع المتزَحم . والموقِف المزدحِم . فالتفتَ فقال ما هذه الضوضاءُ العظيمةَ . أمأتمٌ ما أرَى أم وليمة . قلت له لا بل هو مجتمعٌ عامٌ . تتزاحم فيه المناكبُ والأقدام . لمسامرة الاصحاب . ومعاقرة الشراب . وبينا نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير . عند باب هذا الحانِ الشهير . فسرنا في عَقِبِهِم . ولحقنا بهم . فسمعنا الخليع يقول لصاحبيهِ : كُونا هنا في الانتظار . حتى أعود اليكما بالاخبار . إنجازاً لوعدي . وإيفاءً بعهدي . فأجاباه بالقبول . وتقدّما للدخول . فقال العمدة للتاجر ما أحوجني الى تضييع الزمن . ورياضة البدن . بشرب كأسٍ من العُقار . ولعب دورٍ من « البليار » . وقال التاجر

وما أحوج يدى الى ملامسة ورق القمار. وأذني الى رنين الدرهم والدينار. ثم صعدنا وراءهما الى قاعة بأعلى المكان. أعدت للعب والرهان. فتقدم العمدة وهو يهز أعطافه وأردانه. فاستلم كرة «البليار» وصولجانه. وقعد التاجر وهو يرتعد من الفرق. في مجلس اللاعبين بالورق. وجلسنا نحن للنظر والسمع. في غمار ذلك الجمع. فسمعت عن يميني أحد السماسرة المعروفين بالدهاء. يقول في مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء:

(السمسار) — لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الايام الماضية التي كان يغتني الرجل فيها بكلمة ويثرى باشارة فيصبح بها أغنى الاغنياء بعد أن كان معدوداً من الفقراء ولقد وصل المصريون الآن الى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من حكامهم من يقطع الاقطاع ويهب الضياع. وبقي الغني الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يستزيد ثروته وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم فأصبح مضطراً الى الانفاق من تليده فسرى النقصان الى رأس المال حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته الا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعه بينهم. وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحد على هذه

الحال الا ويندثر بين المصريين مابقى من بيوت المجد والغنى. واعلمْ أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع فى الثروة والمال وكنزُ الكنوز فى الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم بيتٍ من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء ويدفعون عنهم الضراء بالسراء. وما يخفى عليك انه بيت البورصة

(الغنى)ـ اسكت ولا تذكُرْ لى اسمَ البورصة فقد سمعنا فى هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان مافيه عِبْرَة للمعتبر ومَوعظة للمتدبر

(السمسار) ـ ألتمِسُ من سعادتكم غضَّ النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان فان الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلهما. أما أحدهما فانه كان يعتمد فى المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير وكان لا يأخذ الاّ بكلام إحدى العرّافتين العرّافة السودانية أو العرّافة الافرنجية تلك بودَعِها وهذه بورقها. ومن نوادره فى الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلا مجذوباً يصيح فى الطريق بقوله: اذهبْ يازيد. وكان لايزال متردداً بين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها وسار من توّه الى سمساره فأمره أن يشترى له عشرين ألف قنطار فنصحه وحاول أن يحوّله عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحوّل وهبطت الاسعار فى اليوم

الثاني وتوالى هبوطها فكان ما كان من خسارته. وأما الثانى فكان جل اعتمادِه على الاخذ بأفكار أرباب الجرائد والثقة بالاخبار الكاذبة من الموظفين ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة وأعلمهم بطرق الصواب فيها

(الغنى) - ان تزيدنى والله براعتك فى البيان والبرهان الا ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ولا أعتبرها فى نظرى الا اكبر بابٍ من أبواب المقامرة . والمقامرة هى عين المخاطرة

(السمسار) - أما المخاطرة فهى لاصقة بالانسان فى كل حركة وسكون وملازمة لعمله فى كل زمان ومكان ومَن اراد ان يتوقى الاخطار ويسلَم من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال والأولى له ان يترك هذا العالم الى سواه .واسمح لى بآخر قول أقوله لك فى هذا الباب وهو انك اخبرتنى بمقدار محصولك فى هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك الى اليوم لم تبعها تربصاً لصعود الاسعار، ولم تبال بما يلحق القطن فى طول خزنه من نقص الوزن، وما يتهدده من بقية الاخطار كالسرقة والحريق فاذا كنتَ فضلتَ الانتظار لصعود الاسعار على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين الفاً من «الكونترانات»

دون كلفة ولا مشقة كالتي احتملتها في استخراج المحصول فانك لا تدفع ثمناً عن أرض ولا تنفق على حرث ولا تؤدى ضريبة ولا تبذل ماء وجهك لرىّ الاطيان ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكام وما دخلتَ في قضية ولا وقعتَ في منازعة ولا تخوفتَ شيئاً من الآفات سماويةً كانت أم أرضية بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها بيمينك في التوقيع

(الغنى) — يجوز ان يكون في قولك هذا بعض ما يُقْنِع ولكنى لا أجد نفسى تطمئن يوماً الى ولوج هذا الباب

(السمسار) — أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ولا أدعوك الى أدنى خسارة وما عليك الا ان تجرّب صدق نصيحتى فتشترى ألفين من «الكونتراتات» فتنتظر بها صعود الاسعار مع أقطانك المخزونة وأنا أضمن لك الرِبْح مادمتَ آخذاً برأيى . ولا تستمرّ في هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين وخذ في النشاط والاقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين . واعلمْ أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال البورصة و «الكونترانات» كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار أو ما بين نسخ الكتب بالخط

ونسخها بالطبع ولكل زمان مايقتضيه من العمل ويحكم به من السير ـ
وأنت المخير مع ذلك في ماترضاه لنفسك

(الغني) ـ وكيف حال الاسمار اليوم

(السمسار) ـ كما كانت بالأمس وهي فرصة ثمينة للشراء

(الغني) ـ خذ لى اليوم خمسمائة قنطار للتجربة

قال عيسى بن هشام ـ وتركناهذا العصفور قدوقع في يد الصائد المحتال . والتفتنا الى ذات الشمال . لسماع مايدور من الجدال . بين رجل فرغ كيسه من المال . وامتلأت رأسه من الآمال . وبين تبيع محام من الاجانب . يتلقط القضايا من كل جانب :

(التبيع) ـ لاأشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الاهلية وهى معروفة بجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقلما تبادر الى التنفيذ أما المحاكم المختلطة فانها لاتحسب لغير الحق حسابا وسواء لديها الحكومة والاهالى والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس كان المحاكم الاهلية لاتعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدر لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها الى الآن فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة . ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة هل

لها ذكرٌ فى الحجة باسمها التاريخى المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً الى الواقف

(صاحب القضية) - أما الشجرة فمذكورة فى حجة الوقفية أنها «شجرة العذراء» وهى قائمة على أرض سواد وأما نسبي فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطان الغورى ولكن مَن لى بدخول القضية فى المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لى بمحام أجنبي وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى «مقدم الاتعاب» الجمالة

(التبيع) - هوِّنْ عليك الامر . أما رفع القضية الى المحاكم المختلطة فانه سهلٌ هيّن يكون بالتنازل عن القضية لأحد الاجانب وأما المحامي الاجنبى فأنا أتكفل لك باقناع المحامي الذى أشتغل معه ليقبَل القضيةَ من غير أن يلتفت الى «مقدم الاتعاب» وانما يتفق معك على مناصفتك فى ما تأتي به القضية من الاموال . وأما الاجنبي الذى تتنازل له عن القضية فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا لتسخيره فى مثل هذه القضايا . وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية

(صاحب القضية ) - لا بأس بما تقول ولكن ليس عندى ما أستغني عنه اليوم لتلك النفقات . ولو كنتُ واثقاً بعض الوثوق

بكسب القضية لبادرتُ الى بيع الحصة التى بقيت لى من العقار لكننى أخشى ان تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مال ولا أمل

(التبيع) — لو كنتَ تعلم بمهارة معلمي ومالَهُ من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرتَ اللهَ فى بيع الحصة ورفعِ القضية

(صاحب القضية) — استخرتُ الله واعتمدتُ على هذا الرأى

(التبيع) — فقد أذنتني حينئذ بالكلام مع المعلم . ولك ان تحضر غداً لعقد الشروط

(صاحب القضية) — أَمهِلني أياماً حتي اجدَ من يشتري الحصة بالثمن المناسب

(التبيع) — أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة انما يجب أن تبادرَ بإحضار الاوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسِها

(صاحب القضية) — بيني وبينك مساء الغد فى هذا المكان

قال عيسى بن هشام — وتركنا أيضاً هذه السمكة . تَتَخَبَّطُ فى الشبكة . ثم حوّلنا النظر الى العمدة في لعبه البليار فما راعَنا منه الاّ أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أفقية فأطارها الي وجه أحد

الجالسين من الاجانب فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على العمدة يريد به شراً وهو يُدمدِم ويطمطم والعمدة يجمجم ويغمغم وكاد يقع ما تسوء عقباه لولا أن أسرع التاجر فحال بينهما وأخذ بيد الاجنبي يستعطفه ويبالغ في الاعتذار اليه حتى لانت شكيمتُه بافتتاح زجاجتين من «الشمپانيا» لعقد الصلح على حساب العمدة. ثم عمد العمدة الى الجلوس فلم يمهلهُ الذي كان يلاعبه وطاب منه استكمال اللعب فقام اليهِ مكرهاً وقلبهُ يرتجف ويدهُ ترتعش فما هي الا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاءَ البليار فخرّقه وشقّهُ فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب «البار» ومن ورائهِ بقية الخَدَم وهو يقول لهم بصوت عالٍ: كيف تسلّمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرقهُ ويتلفهُ. ثم وقف للعمدة يطالبه بثمنِ ما أتلف وتعويض ما عطّل وقدّره له بخمسة عشر جنيهاً لا يتجاوز عن درهم واحد منها. فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيهِ عدّاً فاذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً فلم يقبل منه فتوسط اليهِ بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً وجلس العمدة متكدراً. ولقد كان اللعب بالأفعوان. أقرب الى السلامة من هذا الصولجان. ثم استمرّ جالساً ينتظر انتهاءَ التاجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيهِ

ثلاثة جنيهات وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم فقال له العمدة دع عنك الاسف والكدر فالضائع ضائع ومصيبتك على كل حال أخفّ وقعاً من مصيبتي. وبيناهما على هذه الحال اذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشاً وفرحاً مرحاً :

( الخليع ) — أشرقَ أُنسُنا وسعدتْ ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا وأسأل الله أن يطيلَ لنا ليلنَا ويُبعِدَ عنا نهارَنا فقد تم مُرادُنا وهلمّ بنا

( العمدة ) — ونحن نسأل الله أن يقصرَ ليلنا ويدنيَ منا نهارنا. فاقعد معنا نقصص عليك ما دهانا فى غيابك

( الخليع ) بعد سماع القصة — وَيلى ثم وَيلى فأنا الملوم اذ تركتكما فوقع لكما ما وقع ولكن قدّر الله لكما ولطف بكما . أما مصيبتى الآن فهى أعظم من مصيبتكما وأبلغ فماذا أقول وماذا أفعل وكيف أدفع وبأىّ عذر أعتذر وقد أخرجتُ البيضة من خِدرها والظبية من كِناسها واستمدّ المجلس لحضورنا وأنسنا

( التاجر ) — الامر أيسر مما تخشاه فما يفوتنا الليلة ندركه غداً

( الخليع ) — ذاك شىء لا يُدرَك فى كل وقت وحين. وهذه المرة هي بيضة الديك لبيضة الخدر وكيف يمكن فضّ هذا

المجلس وتأجيله وقد مضى قِطْع من الليلِ وتعذرت سبل الرجوع:

كيف الرجوعُ بها وحَوْلَ قِبابِها سمْرُ الرماحِ يَملْنَ للإصغاء

فخلصاني ناشدتكما الله مما وقعتُ فيه وانقذاني من هذا البلاء العظيم

( التاجر ) ـ وما وجه الخلوص وقد علمتَ بتفصيل الحال

( العمدة ) ـ تالله ان الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظمُ مصاباً من كل ما نابنا ولو كان الوقت نهاراً لأسرعتُ الى « البنك » فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم

( التاجر ) ـ اذا كانت الرغبة انتهت بك الى هذا الحد فالأمر يسير ومعي الآن ما يكفي وأنا أقوم لك مقام « البنك » . فكم تطلب . ولأيّ ميعاد تكتب

(الخليع) ـ هكذا يكون الصديق في وقت العسر والضيق فحيّاك الله وأبقاك

( العمدة ) للتاجر ـ أعطِني عشرين جنيهاً تكون معي على سبيل الاحتياط

( التاجر ) ـ ولك الفضل . هاك سبعةَ عشر جنيهاً تبلغ العشرين المطلوبة بالثلاثة التي خسرتُها هنا أمامك . وألتمس منك كتابة

ورقة على سبيل التقييد

قال عيسى بن هشام ـ فما كان أسرع من الخليع فى استحضار الدواة والقرطاس . لاجابة هذا الالتماس . فطلب العمدة منه ان يكتب الصك عنه . ثم خرجوا والعمدة يجرر أذياله . ويحك قذاله [1] . وخرجنا خلفهم فى الحال . نتبعهم متابعة الظلال

---

## ﴿العمدة فى المطعم﴾

قال عيسى بن هشام ـ ولما صرنا فى الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته . ويقصر من مشيته . ويقول ماهذا الذى أرى من فساد هذا الورى . كأن نافعاً تقمهم فى خابية [2] . جمعت أخلاط الكبائر . أو غامساً غمسهم فى جابية [3] . وعت أمشاج الجرائر [4] أو كلما خطونا خطوة رأينا من الغش والمكر صنوفاً وأضرابا . أو حضرنا ندوة . شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبوابا . فما أنحس من يعاشرهم . وما أنجس من يحيا فيهم . وما أشقى من يجاورهم . وما أسعد من يجافيهم . واغوثاه من الانسان . فى

---

(١) القذال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس (٢) الخابية الجرة الضخمة
(٣) الجابية الحوض (٤) الامشاج الاخلاط والاوساخ

هذا الزمان . فقلت له قَدْكَ [1] بل فى كل زمان :

لن تستقيمَ أمورُ الناس فى عُصُرٍ ولا استقامتْ فذا أمنًا وذا رُعُبَا

ولا يقومُ على حقٍ بنُو زمنٍ من عهدِ آدم كانوا فى الهوى شعَبَا

هكذا كان بنو آدم. تأخر عهدهم او تقادم. فهم على ماهم فيه ابدا. أمسِ واليومَ وغدا . ـ وماعساك تقول فى ذرية الشيخ آدم وزوجهِ حوّاء . وقد قالت من قبلُ فيهم ملائكة السماء : « أتجعلُ فيها مَنْ يُفسدُ فيها ويَسفِكُ الدماء » وماعساك تقول فى قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير . والمولى قبل الامير. يهون عليه أن يفتدى ما أسفّ من الدنايا وسفل من المطالب. بمنطقة البروج ومجرّة الكواكب. وماعساك تصف خلقًا أفضلُ ما فى اعضائه . اكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه :

أفضَلُ مافى النفسِ يَغتالُها فنَستعيذُ اللهَ مِنْ جُندِه

هذه المُضغة التى بفيه. ويقال إنها أفضل ما فيه. لو نُسجتْ مضغة على قدرها حُمَاةُ المقارب [2] ـ حمَاكَ اللهُ ـ لُحمتُها. ولُعابُ الافاعى ـ عافاكَ اللهُ ـ صِبغتُها. لكانت فى جانب هذا اللسان أخف ضررًا. وأهون شرًا . وماعساك تنعت نوعًا نَعَتَ للهُ واحداً

(١) قدك بمعنى كفاك (٢) الحمة الابرة التى تضرب بها العقرب

منهم فى آية من الآيات . بتسع صفات : « حَلّافٍ مَهِينٍ هَمّازٍ مَشّاءٍ بنميمٍ منّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ أثيمٍ عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ »

فأُفٍّ لمضَرِيّهم نهارٍ وحنادسٍ     وجنسىْ رجالٍ منهمُ ونساءِ
ولَيْتَ وليداً ماتَ ساعةَ وضْعِهِ     ولم يَرْتضعْ من أُمِّهِ النُّفَساءِ

وما يدريك أن ما رأيتَهُ من أخلاق هذا النفر. أفضل من أخلاق مَنْ وَلاَهُمْ من سادة البشر. ولعل ما أدركتَهُ من طمع الغنيّ ومكر السمسار وخداع التبيع. وما تبينتَهُ من غش التاجر وغفلةِ العمدة واحتيال الخليع. هو دون ما تكنه صدور الكبراء. وتجنُّه قلوب الامراء. تحت حجاب التكلف والتطبع. ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع. وكلما اعتلى الانسان درجةً فى المقام. وخطا فيها خطوة الى الأمام. تقنّع لها بقناع وتلثّم بلثام. فتجد حقائق الخلائق مرموسةً تحت صفائح الدهاء. مضروحة بين جنادل الرياء. بل ربما كان أخلاقهم أخلاقاً حساناً . أبلغهم فى التظاهر بها زوراً وبهتاناً . كان لى صاحب تراه من لسانه غضنفراً رئبالا . يحمي عريناً ويحرس أشبالا . تتقيه القياصرة . وتخشاه الأكاسرة . فاذا كشفتَ عن قلبه . وحسرتَ عن لبه. وجدتَهُ شاةً تعطف على سخلها (١) . وظئراً تحنو على طفلها.

(١) السخل جمع سخلة ولد الشاة

وأعرفُ آخر قد صنجت أحرف الفضيلة من وخزها بقلمه. ولو كها في فه . وهو مع ذلك يخمش وجههُ ويُدمِي جفونه. إنْ سمعَ أنَّ مُختلساً اختاس دانقاً دونه . وفيهم مَنْ يملك مِن وجهه التغيّرَ بالانفعالات المتناقضة. والتلوّنَ بالالوان المتعارضة. فتكون دموعه طوع إرادته . وابتساماتُهُ عند حاجته . قال حكيمٌ لآخر ما أكثرَ ما تتحوّل رُقعة الشّطْرنْج وتتقلّب. قال له تَقلُّبُ وجه الانسان أعجبُ وأغرب . وقد تبقى الاخلاقُ الذميمة. والصفاتُ اللئيمة. مطويّةً عن النظر . محجوبةً عن البصر . حتى يُتاح لها كاشفٌ من الحوادث فينزع عنها الفِدام (١) . ويحسر اللثام . فيظهر الطبع السقيم . ويبدو الخلُق الذميم . ومِنْ عوامل التبيين والبيان . في أخلاق الانسان . الغضبُ والجُبن . او السكر والحزن . ونحن الآن في ساحة السكر فهلمّ بنا . نلحق بأصحابنا . فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون . وسمعناهم وهم يتحاورون :

(العمدة) — دعوني من هذا كله فقد صاحتْ عصافيرُ بطني ولم يدخل جوفي اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التي اكلتُها مستعجلاً فهيّا بنا الى السكة الجديدة نعطف على

---

(١) غطاء الابريق

« المَطفي » فان طعامه دسم وسمنهُ زبدة ولحمه سمين

(التاجر) — ما هذا « المطفى » الذى تذكره وأين انت من كباب « الحاتى » وحمام « لوكه » أو طواجن « الفار » وأرز « العجمى »

(الخليع) — ما هذا الخلط ونحن فى وسط الازبكيـة بين « النيوبار » و «سان جمْس بار» و «اسبلنديدْ بار» وفيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين وناهيك بهذه الاماكن ونظافتها وحسن خدمتها وعلوّ قدر الواردين عليها

(العمدة) — دعنا من هـذه الاماكن فان طعامها لا يسمن ولا يغنى من جوع خصوصاً وانا على هذا الخلوّ من بطنى

(الخليع) — وانا لا يمكنني على كل حال ان اترك هـذه الاماكن واذهب ممكيا الى الحوانيت التى تُشيرَان بها وأخشى ان يراني بها أحدٌ ممن يعرفني فأصغر فى عينه

(التاجر) — إذا كان الامر كذلك فأنا على رأيك

(الخليع) للعمدة — لا مناص لك حينئذٍ فضعيفان يغلبان قويا : فادخلْ بنا « النيوبار »

قال عيسى بن هشام — فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا

على مقربة منهم وما خلع الخليع طربوشه حتى نزع العمدة عمامته وما ضرب الخليع بيده على المائدة حتى صفّق العمدة بيديه . فحضر الخادم ومعه قائمة الالوان فتناولها العمدة ونظر فيها — نظر المريض الى وجوه العُوَّد — ثم ناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل فيها وشرع يسرد الألوان حتى انتهى منها والعمدة لاهٍ عنه والتاجر منصتٌ اليه

(الخليع) للعمدة — ماذا تحب وتختار

(العمدة) — أختار المرق ومن بعده لحم الفرن او «الكبَما»

(التاجر) — وانا أطلب كبابًا وقرعًا وأرزًا

(الخليع) — وأنا أختار «فاتحة الطعام» أولاً ثم خلاصة اللحم بالبيض وأرزاً بفاكهة البحر ودجاجةً بعشّ الغراب وسمانًا بالكمأة وهَلْيُونًا بالزبدة

(العمده) — ما هذه الاسماء الغريبة

(الخليع) — هى أطعمة خفيفة لا تقوَى معدتى على هضم غيرها

(التاجر) — «كُلْ ما يعجبك والبسْ ما يعجب الناس»

قال عيسى بن هشام — فيذهب الخادم ويجيء للخليع بفاتحة الطعام

من زيتون وخل وسمك ملح وزبدة . فيتأمل العمدة فيها ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول . أزبدة وسمك . فيطلب الخليع سواها ثم يأتى الخادم بصحن المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز وعطف على خبز الخليع يأكل منه فيأتيه الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفته فى صحن المرق حتى يمتلئ ويفيض على المائدة . ثم إنه انحنى فأتى عليه وصفق يطلب صحناً آخر وخبزاً آخر وهو يميل فى هذه الاثناء على طعام الخليع فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فتفلت منه الى الارض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ثم يأخذ جزءاً من محشى الغراب فيقضم منه فلا يألفه فيمجه ثم يرده الى صحن الخليع ثانية ويقول : ما هذه القشور التي يطبخونها هنا وهى عندنا شائعة على الجسور يفحص عنها الخنازير فى الارض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها انسان ولا حيوان . ثم يأتى الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفى لامتلاء الصحن فيعاود الطلب فيمل الخادم ويقول له . انما أنت هنا يا سيدى فى مطعم لا فى مخبز

(الخليع) للخادم ـ ماهذا الكلام البارد يا «جورج» أليس

لـكل شيء ثمن هنا ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد

(الخادم) للخليع — لا مؤاخذة فان كلامي ليس موجهاً اليك

(الخليع) — إن لم يكن الـكلام لى فهو لصاحبي وصاحبي هذا أعزّ عليّ من نفسي

(العمدة) — دعْهُ يأتِ لنا بخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول مع أنه يقال ان هـذه المطاعم العاليـة تبـذل الخبز للآكلين مجاناً

(التاجر) للخادم — أعطني أيضاً لوناً من الخضر

(العمدة) للخليـع — قلْ للخادم يحضر لى مع لحم الفـرن خل بصل

(الخليع) — كل شيء يجوز الا أكل البصل فى هذه الليلة

(العمدة) — لا مؤاخذة فان النفس الملعونة ذهبتْ اليه من غير تروّ

(التاجر) للخادم — إئتِ لى بشيء من الحلوى أو الفاكهة

(العمدة) — اذا كان فى الفاكهة برتقان أو بلح فأعطنى منه

(الخليع) — ولا تنس يا «جورج» ان يكون فى نصيبي من الفاكهة «مانجو» و «قشطة خضرا» وموز و «أناناس»

( العمدة ) للخليع ممازحاً ــ ومَن قال انك لست من الناس

( الخليع ) للخادم ــ هات زجاجة نبيذ أُخرى بغبارها

قال عيسى بن هشام ــ ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف أسرع العمدة بيده اليها فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسّها فى جيبه وهو يقول : هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد . ثم حضر الخادم بآنية من البِلّور الملوّن فيها ماء وقشرُ ليمونٍ فوضع أمام كل واحدٍ منهم إناء فهَمّ العمدةُ بشرب إنائهِ فى الحال فبادر الخليع ونزعه بيده عن فمه

( العمدة ) ــ لماذا تمنعنى عن شرب هذا « الخشاف » وقد أنعشتْنى منه رائحةُ الزهر

(الخليع) ــ هذا ياسيدى ماء لغسل أطراف الاصابع بعد الأكل

( التاجر ) ــ مَنْ عاش رأى

( العمدة ) للخادم ــ الحساب يا « خواجا »

( التاجر ) ــ القهوة

( الخليع ) ــ الخِلاَل مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة. ويأتى الخادم بجميع هذا فيتناول العمدةُ ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها الى مكانها ويأخذ أُخرى فينكش بها أُذُنه ثم يمسح ما

علق بها فى غطاء المائدة ثم يلتفت الى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته

(الخليع) - أربعون فرنكاً

(العمدة) - اقرأ جيداً فان هذا غلط فاحش

(الخليع) - قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا

(العمدة) - ما هذا النهب والسلب وما هذا الاسراف والتبذير لو كنا ذهبنا الى مكان من الاماكن التى عددناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل . ولو كنا توجهنا الى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفينا بغير ثمن لأن فى غرفتى برمة أرز بحمام مما أحضرته معي من البلد . ولا أشك فى أن الخادم يريد أن يستغفلنا فزاد فى الحساب ما أراد وانا رجل لا أقبل الغفلة على نفسى ولا أدفع هذا الحساب . وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة فانه يهون علىّ ان أبدد عشرة جنيهات فى الهباء ولا يهون علىّ ان أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس .

ثم إنه رفع قدح النبيذ وهو فى حدته فصكّ به قدحاً آخر عملتنا لاستدعاء الخادم فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة

فحضر الخادم فمرّ عليه ما رأى

( الخادم ) ـ ما هذه الليلة السوداء

( العمدة ) ـ هذا ما أقوله أنا أيضاً فقلْ لى ما هذا الغلط فى الحساب وهل تريدون ان لا يدخل محلّكم بعد اليوم أحد

( الخليع ) ـ هل فى الحساب غلط يا « جورج »

( الخادم ) ـ وأىّ غلط يكون فى الحساب بعد الذى حصل. وهذا هو بيان الثمن أمام كل صنف

( العمدة ) ـ أىّ حساب وأىّ بيان ولكنك أنت الكاتب له

( الخادم ) ـ نعم أنا الكاتب له ولكنك أنت الآكل له

( العمدة ) ـ وهل أكلنا أربعين صحناً حتى ندفع أربعين فرنكا

( الخادم ) للخليع ـ أرجوك أن تقنعه

( العمدة ) ـ وهل أنا جاهل حتى يقنعنى

( الخليع ) وهو قائم ـ حاشا لله ياسيدى

( التاجر ) للخليع ـ الى أين

( الخليع ) ـ أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية

تلغرافاً جديداً أريد أن أقرأه

( الخادم ) للعمدة ـ أعطني الحساب ولا تعطلني عن الشغل

( العمدة ) ـ هاك عشرين فرنكاً لا أدفع سواها

( الخادم ) ـ ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكلهِ

( التاجر ) ـ زِدْهُ فرنكين

( الخادم ) ـ لقد كان الأولى بكم ان تأكلوا فى غير هذا المكان مادمتم بهذه الصفة

( التاجر ) ـ لا تغلط يا «خواجا» فان حضرته يأكل فى مثل هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يحب الأمانة ويكره الاستغفال

( الخادم ) ـ وهل أنا خائن . وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك

( التاجر ) للعمدة ـ حقيقة إنه لقليلُ الحياء

( العمدة ) ـ وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ

( صاحب المحل ) وقد حضر مع الخليع ـ ماذا جرى

( العمدة ) ـ خادمك يسرقنا ويشتمنا

( صاحب المحل ) ـ هذا كلام لا يقال عن محلنا

(التاجر) - وذاك كلام لا يقال لنا

(صاحب المحل) للخليع - عهدى بك لا تصاحب الا الكبراء والظرفاء فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة وقد شاهدتُه من مكانى يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين . فانه كان يبلع الزبدة . ويطوى الخبز . ويمدّ يدَهُ الى صحن سواه . ويعيد اليه فضلة ما يأكله . ويتناول قطعة الدجاجة من الارض فيلتهمها . ويلوّث المائدة بالمرق والنبيذ . ويمسح يدَهُ فى الغطاء . ويكسر الكأس . ويختلس الفاكهة فيضعها فى جيبه . ويهمّ بشرب ماء الغسل . وينكش أذنه بريشة الخلال . ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويغامزهنّ فقمنَ مستقبحات مستنكرات وقام كثير من المترددين على المحل اشمئزازاً من هذه الافاعيل . ولا أشك فى أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل المحل

(الخليع) - لا تلقبْهُ بلقب شيخ فان سعادته من الحائزين للرتبة الثانية وله سعى فى رتبة التمايز ولا تستصغرْ قدرهُ فهو من كبار الاغنياء فى الارياف

(صاحب المحل) للعمدة - لا تؤاخذ الخادم ياسعادة البك

فهو على كل حال خادمك والمحل محلك

(العمدة) للخادم ـ يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل . ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه اماَ زدتُ عن العشرين فرنكاً ولكني أعطي الآن ماتطلبه مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضاء

(صاحب المحل) للخادم ـ اسألْ حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيد المعرفة والمسامحة فيما حصل

قال عيسى بن هشام ـ ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دورين من الشرب لاكرام صاحب المحل في مقابلة اكرامه لهم . فطلب العمدة ثم طلب . وشرب ثم شرب . وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنّى . ويتثاءب ويتمطّى . ويشكو للخليع فعلَ الكاس . وهجوم النعاس . فيقول له هذه عادة تكون عند الامتلاء . ولا يصرفها الا كؤوس الصهباء . فهيّا بنا الآن . نذهب الى الحان . فخرجوا وخرجنا من ورائهم . نستقصي بقية أنبائهم

---

﴿ العمدة فى الحان ﴾

قال عيسى بن هشام ـ وأخذوا طريقهم الى الحان المقصود .

في الحوض المورود . وفيما نحن نسير . بين تقدير وتفكير . اذ التفت الباشا الى ذلك الفندق الكبير . بل الخورنق والسدير [1] . فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة . وينابيع الضياء متدفقة . يلوح فيها زنجي الليل بقميص أبيض . ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضض . وعمد المصابيح كأنها أغصان الاشجار . أزهرت بالأنوار . مكان الأنوار . فصار كل عمود منها عمود فجر . يفجر ثغرة الدجنة أي فجر . وكأن منثور الشموع في ظلمة الحلك . منثور النجوم في قبة الفلك . ورأى تحتها صفوفا من الرجال . بين صفوف من ذوات الحجال . على سرر متقابلين . وأرائك متكئين . يسعدهم الجد المقيم . ويرفرف عليهم الرفه والنعيم . فطفق يسألني : أتراه محفلا ليوم أنس . أم زفافا في بيت عرس . أم تراها ليلة مهرجان . لقبيل من الجان . نسوا تفاوت الجنس . فأنسوا الى الإنس وهجروا جوف الأرض لظهرها . ودرجوا من بطنها الى حجرها . — فقلت له نعم هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر . ويقطعون الحزن والوعر . ويطيرون في السماء . ويمشون على الماء . ويخرقون الجبال . وينسفون القلال . ويقلبون الآكام وهادا . ويبسطون الربى مهادا .

(١) الخورنق والسدير قصران معروفان

ويجعلون القفار بحارا . ويحيلون البحار بخارا . ويُسمِعُون مَنْ بالمشرقين أصواتَ مَنْ بالمغربين . ويستنزلون لبصرك أنآى الكواكب . ويظمّون فى عينك أزهىَ العناكب . ويجمدون الهواء . ويذيبون الحصباء . ويستحدثون الأنواء . ويَزِنُونَ الضياء . ويَستشفُّون خبايا الاحشاء . ويكشفون خفايا الأعضاء . ... فقال لى أتُنكَ لَتُحدِّث من جن سليمان فى هذا الزمان . — قلت له هؤلاء سُيَّاح الغربيين أهل المدنيّة والحضارة . الناظرون الى الشرقيين بعين المهانة والحقارة . فان نظروا اليهم من جهة العزة : فنظرةُ العُقاب من شماريخ رَضْوَى وثبير[1] . الى جنادب الرمل وضفادع الغدير[2] . — وإن نظروا اليهم من طريق العلم : فنظرةُ معلّم الاسكندر عالم العلماء . الى صبيّ يتهجىّ فى العين والياء . — وإن نظروا اليهم من باب الصناعة : فنظرةُ «فِيدْيَاس» صانِع التماثيل والدُّمَى[3] . الى بناء يقيم أكواخَ القُرَى . — وإن نظروا اليهم من جهة الغنى : فنظرة صاحب المفاتيح التى تَنُوء بالعُصْبَة . الى أجير ينضح عرقاً تحت القربة . — وإن نظروا اليهم من جهة الفضائل النفسانية : فنظرةُ الحكيم «سقْراط»

---

(١) الشماريخ جمع شمراخ وهو رأس الجبل . ورضوى وثبير جبلان معروفان
(٢) الجنادب جمع جندب وهو الصغير من الجراد (٣) الدمي جمع دمية وهى الصورة المنقشة من الرخام اوالعاج

شارب السم غراماً بالفضيلة . الى الشرير «أرسطراط» . حارق المعبد ولعاً بالرذيلة . — تلك دعواهم فى نفوسهم. وقولهم بأفواههم والفعل يشهد بيننا أنهم نُهّاب الآفاق. وسُلّاب الارزاق. وقُطّاع الدهناء [1] . وفُتّاك الدهماء [2] وقراصين الدأماء [3]. وسُفّاك الدماء . اؤلئك هم الذين يخادعوننا بزبرجهم [4] . ويبهروننا ببهرجهم واؤلئك هم الذين نطق الكتاب فى أمثالهم بقوله : « سحروا أعينَ الناسِ واسترهبوهم وجاؤا بسحرٍ عظيم »

وهم فى رحلتهم الى الشرق على ضربين: أهل الفراغ والجِدَة .. الذين أبطرهم الغنى وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية ولم يبق فى أعينهم جديد . فانتقمت منهم الطبيعة فى خروجهم عن سننها فسلطت عليهم داء الملل والسأم فأصبحوا هائمين على وجوههم فى الاقطار والبلدان وحطتهم القدرة الى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل فى البلاد المنحطة عنهم فى درجات المدنية والاقامة فى الاقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية . والضرب الثانى منهم . أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض [5] يستعملون علومهم ويُعملون افكارهم فى

(١) الدهناء الفلاة (٢) الدهماء جماعة الناس (٣) الدأماء البحر (٤) الزبرج . الزينة (٥) استنفض المكان نظر جميع ما فيه حتى يعرفه واهل الاستنفاض الذين يعثوف ... فى الارض يتجسسون

احتلال البلدان وامتلاك البقاع ومنازعة الناس فى موارد أرزاقهم ومزاحمة الخلق فى أرضهم وديارهم فهم طلائع الخراب أدهي على الناس فى السلم من طلائع الجيوش فى الحرب

قال عيسى بن هشام — وانقطع الحديث بدخول اصحابنا فى الحان. واصطفافهم حول الدنان. فأخذنا مجالسنا بقربهم. ننظر مايُصنع بهم. واذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال. ويبادر الخادم بالسؤال :

(الخليع) للخادم — ألم يشرف دولة البرنس هنا في هذه الليلة

(الخادم) — هو فى داخل المكان وسيعود الى مجلسه في الحال

(العمدة) مدهوشا — هل يجيء هنا البرنسات وهل يليق بنا ان نجلس للشرب فى مكان يحضرونه فيه. فلمَ اخترتَ هذا المحل ولم لانذهب الى محل سواه

(الخليع) — لا بأس علينا هنا وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج من هنا الا والبرنس مُصافحك ومُجالسك

(العمدة) — لاتهزأ بي ولا تمزح فأين نحن من البرنسات

(التاجر) للعمدة — لا تستبعد ذلك ان لبعض البرنسات أخلاقا واسعة ونفوسا ترابية ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم فى مجتمعاتهم ومعاملاتهم

(العمدة) للخليع — وهل لك معرفة سابقة به .

(الخليع) — كيف لا أعرفه ولى معه جلسة فى كل ليلة وكثيراً ما أوصلته آخر الليل الى قصره

(العمدة) — انك لتبالغ

(الخليع) — لا مبالغة ودونك البرهان

قال عيسى بن هشام — ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس الى مجلسه فيومئ البرنس اليه بالسلام فيتبعه الى مائدة عليها صنوف وألوان من الخمر والنقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه بصوت يسمعه العمدة من مكانه :

(الخليع) — لا زال افندينا فى أسعد حال وأنعم بال

(البرنس) — وأين أنت فقد سألت عنك مراراً

(الخليع) — أنا فى الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه وما منعنى عن المبادرة الى مجلسكم العالى الا اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمد الارياف والآخر من تجار الثغور تَصِقاً بى للبقاء معهما وألحّا علىّ أن أصحبهما

(أحد الجلساء) ممازحاً — لا بل تسحبهما

(البرنس) منكّتاً — وهل هنا «زريبة» يا بك

( جميع الجلساء ) ضاحكين ـ لله درّ أفندينا فى هذه النكتة فما ألطفها وأرقها

( البرنس ) ـ أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفني منه بعض كلمات فى بعض الاوقات

( أحد الجلساء ) لآخر ـ انظرْ بالله يا أخى حدة البرنس فى لطافته وشدّته في رقته وقوة إدماجه فى ألفاظه

( الجليس ) ـ وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة فى تعبيرك وما أبلغك فى كلامك أأنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد

( البرنس ) للخليع ـ ماذا تشرب

( الخليع ) ـ العفو يا موى فلا بد من الرجوع الى صاحبىّ أولاً حتى أتخلص منهما

( البرنس ) ـ وهل هما من الاغنياء المعتبرين

( الخليع ) ـ أما العمدة فانه يمتلك ألف فدان . وللتاجر فى بلده أعظم خان . وللعمدة عشرة وابورات للري وعنده الرتبة الثانية . وللتاجر وابور للحليج وعنده وعدٌ بالثالثة

( البرنس ) ـ لاتحرمنا من وجودك ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا

( أحد الجلساء ) ـ لآخر ـ قمْ بنا نفسح لهما

( الجليس ) ـ انتظرْ قليلاً حتى يأتي « الدور » المطلوب مع صحن بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً

قال عيسى بن هشام ـ وينصرف الخليع الى صاحبيه لاحضارهما فينهض له العمدة واقفاً لتبجيله وتعظيمه فيسقط من يده « فم السجاره » على الرخام فينكسر فينحني الى الارض يجمع شظاياه ويَظهر عليه من الاسف والكدر ما لا يقدّر فيجرهُ الخليع اليه ويقول لهُ :

( الخليع ) ـ لا يليق بنا ان نكون على هذه الحال من الاسف لأجل هذا « الفم » فان البرنس ينظر الينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه

( العمدة ) ـ ليس أسفي على « الفم » فى ذاته بل لانه تذكار عندي من حضرة أمور المركز كنت أهديتهُ فرساً فأهداني إياه فهو ثمين عندى من هذه الجهة . ولكن قل لى كيف يدعوني دولة البرنس اليه وكيف ذكرتني له

( التاجر ) ـ أي نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لى ذكر عنده أيضاً

( الخليع ) — قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ويقال فى المثل أرسل حكيما ولا توصه

( العمدة ) — أحب أن اسمع تفصيل مادار من الكلام بشأنى فاني رأيته يضحك كثيراً وأنت تكلمه

( الخليع ) — أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلك معه حتى حرمته من اجره

( التاجر ) — وعلى ذكر السمسار هل تعلم ان دولة البرنس باع قطنه فى هذا العام

قال عيسى بن هشام — فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس فطأطأ العمدة الى ركبة دولته فدفعه بيده فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً فتبسم له البرنس وأشار اليه بالجلوس فامتنع باستمرار واضعاً يداه الى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الالحاح

( البرنس ) — لأحد جلسائه — لا تنسَ ان تذكّرني غداً بتصوير الفرس « سيرين » فان « الدوك أف بروك » أرسل الى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها فى معرض

السباق بلوندره

(الجليس) - الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار فى اليوم الذى عيّنه أفندينا له للغداء مع مفتش الرى

(البرنس) للعمدة - ماذا تشرب يا حضرة الشيخ ... يا باك

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر - ألتمس السماح يا مولاى فانى لا أشرب شيئاً

(التاجر) متململاً من الألم - العفو يا أفندينا أستغفر الله فان ذلك لا يليق فى حضوركم

(البرنس) - لماذا جئتما هنا إن لم تشربا

(الخليع) - يَشْربانِ حسب أمر دولتكم فالامتثال فوق الادب

قال عيسى بن هشام - ويتناول الخليع «علبة السجارات» من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدةً وللتاجر واحدة فيتحاشى العمدة إشعالها فى حضرة البرنس ظاهراً - وغرضُهُ الباطن إبقاؤها لديهِ أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه - ثم يأتى أحد باعة الزهور فيهمس فى أذن البرنس بكلام يقهقه له ويأمر الخادمَ ان يعطيه كأساً فيشربه وينصرف . ثم يلتمس الخليع من البرنس ان

يسمح للعمدة بطلب زجاجة من «الشمبانيا» فيسمح لهُ ويلتفت الى العمدة يخاطبهُ بقوله :

(البرنس) للعمدة - كيف حال المحصول عندكم . وكم رَمى الفدان من القطن

(العمدة) - رَمى الفدان عندى سبعة بأنفاس دولتكم

(التاجر) - المحصول جيّد ولكن الاثمان فى هبوط . وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هي باقية

(البرنس) لا أحد جلسائه - أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناهُ اليوم أكثر من عشرين جنيهاً . ولو كان عليه تاريخ صنعهِ لدفعتُ ما يطلبهُ صاحبك فيه

(الجليس) - لا بأس به الى الثلاثين

(البرنس) - ما الذى تراهُ فى مسابقة الخيل غداً

(الجليس) - أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك

قال عيسى بن هشام - ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة الى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه وقدّمها الى البرنس ووزع البقية على الحاضرين. فيجد أحدهم صوفاً متلبداً فى الموز فيعافهُ ويتركه على المائدة

( أحد الجلساء ) للعمدة ـ هل هذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه فى الصوف عندكم

( العمدة ) ـ كلاّ يا سيدى بل هو موز « النيوبار » ولم عكث فى جيبى غير مسافة الطريق ومعى أيضاً برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضرا

( أحد الجلساء ) ـ أظن ان لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة

( التاجر ) ـ حضرته لا يشتغل بالتجارة وليس كل الناس من يقدم عليها فهى ربح محفوف بالخطر

( العمدة ) للخادم ـ أحضرْ لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى .

( أحد الجلساء ) لآخر ـ يظهر أن الفدان رَمَى بعشرة

( الجليس ) ـ فى البنك العقارى

( البرنس ) ـ وما معنى الكليزى

( الجليس ) ـ يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام ـ وفى هذه الاثناء يعود بائع الزهور فيلقى فى أذُن البرنس كلاماً فيقوم البرنس فى الحال ويخرج والبائع فى أثرهِ ثم ينسل الجلساء من بعدهِ واحداً واحداً فلا يبقى منهم

أحد . وتخلو المائدة للعمدة فيشرب سؤر الكاس التي تركها البرنس ويميل على ما بقي في آنية النقل فيأتي عليه أكلاً

( التاجر ) للعمدة — ينبغي ان تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دوله البرنس

( العمدة ) — انا لا اطلب شيئاً الا في حضور دولته

( الخليع ) — أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة . وهذه عادته اذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته

( العمدة ) — ولكنني لم أره دفع شيئاً من الحساب

( التاجر ) — لعل له هنا حسابا جاريا

( الخليع ) — نسأل الخادم

( العمدة ) للخادم — ألم يدفع دولة البرنس شيئاً

( الخادم ) لم يدفع شيئاً قبل خروجه

( الخليع ) — وكم الحساب

( الخادم ) — مائة وواحد وعشرون فرنكا

( العمدة ) — انا لا أصدق ان أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب . ومع ذلك فلننتظر عودته

( الخادم ) — اذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود

وإن اردتَ ان لا تدفع ثمن ما شربه البرنس فأنا أقيده في حسابه

( العمدة ) ـ وأنا اذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع الا ثمن ما شربه دولة البرنس وحده

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات فينهض العمدة لمقابلتهِ ويلحّ عليه فى الجلوس معه ثم يلتفت الى الخادم بصوت عال :

( العمدة ) ـ علىّ بتفصيل الحساب وبيّنْ لى فيه ما شربه دولة البرنس . . وما أكلَهُ دولة البرنس . . وبكم شرب أصحاب البرنس . وكم شربنا مع البرنس . . وكم شرب قبلنا البرنس . واسألْ سعادة البك الوكيل ما ذا يشرب وعُدْ لأدفع لك كل الثمن المطلوب

( الوكيل ) ـ انا لا اشرب شيئاً

( العمدة ) ـ كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة البرنس ارضاءً لخاطرنا

( الوكيل ) ـ لا بأس أن اشرب كأساً واحداً من «الكونياك»

( العمدة ) ـ لا واللهِ لا تشرب الا « شمبانيا » كما شرب

معنا دولة البرنس

( الخليع ) للعمدة ـ لماذا لم تقدّمنا للتعارف بسعادة البك

( العمدة ) ـ سعادته وكيل مديريتنا . وحضرته (مشيراً الى التاجر ) من أكابر التجار . وحضرته ( مشيراً الى الخليع ) من ظرفاء مصر

( الخليع ) للوكيل ـ تشرفنا بهذه المعرفة وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابي وطالما قضينا معهُ أوقات أنس وسرور

( العمدة ) للوكيل ـ أظن أن سعادتكم حضرتم الى مصر فى عقب كشف الرتب المقدّم الى الداخلية

( الوكيل ) ـ نعم كنت اليوم فى الداخلية وسينتهي الأمر ان شاء الله على ما نحب

( العمدة ) للخادم ـ زجاجة شمبانيا أخرى

( الوكيل ) ـ يكفى فانى أريد ان انتقل برهة الى داخل المكان فى مجلس اخواننا القضاة ووكلاء النيابة

( الخليع ) ـ لا لزوم لانتقال سعادتكم فأنا ادعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائى

( الوكيل ) ـ لا تكلف خاطرك بذلك فان الأليق أن أذهب

للجلوس معهم

( العمدة ) للوكيل - اذا كان الامر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك

( الوكيل ) - ان أردتَ ذلك فلا بأس

قال عيسى بن هشام - فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون فيشدّد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكراً إلاّ شربوا معه ثم يتناول الكأس ويقوم متساندا على الخليع ليشرب معهم فما يكاد يضع الكأس في فيه حتى تأخذه غصةٌ فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتتلوّث ثيابه ويبادر الخليع مع الخادم الى سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره

ثم لبثنا مدة . ننتظر العمدة . ونترقب له الرجعة والعودة . حتى أقبل يتهادَى في مشيته . بعد أن أفاق من غشيته . وعمد الى الخروج والخليع عن يمينه يناجيه . والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه

## ﴿ العمدة فى المرقص ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ولما خرجوا من ذلك المحل . ونحن أتبعُ لهم من الظل . سمعنا العمدةَ يشكو للخليع فى طريقه . مايجده من انقباض الصدر وضيقه . ويسأله التفريجَ لِكربه والترويحَ عن قلبه ؛ ويذكّره بما كان من الوعود . ويطالبه بزيارة ذلك المجلس المعدود . ويقول له : تالله لقد أنصبْتنا وأجهدتنا . فهلمّ بنا الآن الى ماوعدتَنا . لِنَرْبأ عنا الهمّ بربيّات الخدور . ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور . ونجلو أعيننا بنُجل العيون . وننعش أنفسنا بناعسات الجفون . ونستصبح ليلتَنا بالوجوه الصِّباح . قبل أن يَصبحنا جيشُ الصباح .. فيقطع عليه الخليع كلامه . ويدفع عن نفسه ملامه . بأنّ طول الانتظار . يذهب بحسن الاصطبار . ولا صبر لذوات الدلال . على خلف الوعود من الرجال . وقد جاءنى رسولها فى غفوتك برسالة . تشكو فيها مالحقها من السآمة والملالة . وتنحِي علىّ بالعتاب المر . وأنّ مافعلتُهُ معها ليس بفعل الحر . إذ اخترقتْ من أجلنا ما اخترقتْهُ من السجوف والكِلَل (١) وتحملتْ فى مجيئها ماتحملتْهُ من الخوف والوجل . حذر الوشاة

---

(١) السجوف جمع سجف وهو الستر والكلل جمع كلة وهى ستر رقيق

والرُقباء . وخشية الأهل والقرباء . ثم إنها أقامت طويلاً في انتظار اللقاء . وهي على مثل حر الرمضاء . فاذا الوعد بلا وفاء . واذا الدَّين بلا قضاء . وكأنما كانت تنتظر غائبًا لا يؤوب . وتستمطر سحابًا لا يسحّ ولا يصُوب . فذهبتْ بحسرتها . ومضت لطِيَّتِها [1]. وفاتنا ما كنا نبتغيه . وأيأسنا ما كنا نرجيه . وتلك فرصة أضعناها . لنزغة شيطانٍ أطعناها . فيقول التاجر : اذًا ما الذي اكتسبناه . بعد الذي احتسبناه . وماذا أفدناه . بعد الذي فقدناه . وأين منَّا ما نجمع به شملنَا . ونبدّد به ليلنَا . فيقول له الخليع : لم يبقَ أمامنا في هذه الساعة . سوى ملاعب الرقص والخلاعة . عسانا نجد فيها بديلا . مما لم نجد اليه سبيلا . فيُخرج العمدة دراهمه فيمدّها . ثم يخشخش بها ويردّها . فيقول له التاجر : لا تهتَم . فدرهمُ الأُنسِ ميسّر . ويقول للخليع : تقدّمْ . فما من شيء عليك معسّر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء . الى حانٍ للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم . وجلسوا وجلسنا في صفهم . فرأينا المكان حومةَ وغًى احتدمَ وَطيسه . وميدانَ حربٍ اصطدم خميسهُ [2] عجاجتُهُ الدخان . ومتارسهُ الدنان . وسلاحُهُ الأباريقُ والاقداح ودروعهُ الغِلالة

(١) مضى لطيته أي لنيته التي انتواها (٢) الخميس الجيش

والوشاح . ونبالهُ أصمةُ القوارير[1] وطبولهُ توقيع العيدان والمزامير . ومغافرهُ العصائب والاكاليل[2] وأعلامه المآزر والمناديل وقوادهُ وشجعانهُ . قواده وغلمانه . وكأن منصة الرقص هي حصنهُ الحصين . وصاحب الحان هو قائد الكمين . وكأن المغنين هم الكماةُ والأقران . والراقصاتِ الحماةُ والفرسان . وحركاتهن بالردف والخصر . هي حركات الحرب في الكر والفر :

أوُلاتُ الظلم[3] جئن بشرِّ ظُلْمٍ وقد واجهننا متظلماتِ
فوارسُ فتنةٍ أعلامُ غيٍّ لقينكَ بالأساور معلماتِ

وترى كلَّ ذات ثدي حاسر بارز . تنادي هل من منازل أو مبارز . ثم تتبختر وتجول . وتخطر وتصول . فترى كلّ طامعٍ في وصالها . بسهام اللحاظ ونصالها . ثم ترشق بها الدنانَ تارةً فتسيل بدم العقار . وتشقّ بها الجيوبَ أخرى فتسيل بدم النضار :

وقد أغمدنَ في أزُرٍ ولكنْ سيوفُ لحاظهنَّ مجرَّداتُ
قدحنَ زنادَ شوقٍ من زنودٍ بنارِ حُليِّها متوقداتُ

وترى في وسط تلك المعركة . من كل هلوكٍ مهلكة[4] تنساب في حُلة

---

(١) صمامة القارورة سدادها (٢) المغفر زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس
(٣) الظلم ماء الاسنان وبريقها (٤) الهلوك الفاجرة

رقصها وتسعى . كأنها حية فى قيصها أو أفعى . لُعاب الأفاعي القاتلاتِ لُعابُها . وأنياب الأُسُود الضاريات أنيابها. تنفث السم رائحةً وتنهش غادية . وإن رأيتها شادنة وسمِعتها شادية . فترى القومَ فيها صَرْعَي كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية

قال عيسى بن هشام ـ ولما طال جلوسنا . وضاقت أنفاسُنا. وكاد يُغمَي علينا من كريه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدةِ من اكنافه. رائحةِ عكَر الخمور .ورائحة عَرَق الابدان. ورائحةِ زيت المصابيح ورائحةِ الدخان والحشيش ورائحةِ أنفاس المخمورين ورائحةِ تلك المراحيض التى لم يدخلها ماء. ورائحةِ الارض التى تسقى بالاقذار ولم تسطع فيها شمس ولم يتغير عليها هواء. فاذا امتزجتْ هذه الروائح بعضها ببعض انعقدت منها فى جو المكان سحابة سوداء تمطر الادواء وتساقط الأوباء فتستنشقها الانوف وتمتصها الرئات وتضوَى بها الاجسام وتتضاءل منها ذُبالاتُ المصابيح تضاؤلَها فى أجوافِ المناجم وبطون الكهوف وكاد الباشا يختنق وهمّ به الغثيان فهم للقيام فأمسكت به وقلت له :

(عيسي بن هشام )ـ أيصبر مثلى على هذا المقام ولم أشهد فى عمرى معركة ولم أحضر معمعةً ثم يجزع منه مثلك وقد مارستَ

الحروب وشاهدتَ الوقائع تحت سحب العجاج وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى لا تبالى برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجا بصدأ الحديد

(الباشا) ـ لقد كان ذلك ولكن فى الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس وتجرى الرياح . ولم أستنشق تلك الروائح منحصرة كانحصارها فى هذا المكان . ومع ذلك أتجلّد مثلك للبقاء به كيلاَ يفوتنا شىء مما نحن بصدده من بداية الامر الى نهايته

وبينا نحن كذلك اذا بصديق لى دنا منى فسلم على وأظهر لى تعجبه من دخولى هذا المحل فأظهرتُ له تعجبى من دخوله أيضا فأجابنى بقوله :

(الصديق) ـ ان السبب فى دخولى هنا هو البحث عن رجل احتال علىّ فى بعض الشؤون ثم غاب عن نظرى وأنا أعلم أنه يأوى الى مثل هذا المكان فدخلتُهُ على كره منى بعد أن حرّمتُ على نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد . وحكم الضرورة مطاع ولكن قُلْ أنت ما الذى جاء بك الى هذا الوكر وكرِ الافاعى وأدخلك فى هذا العُش عشِّ الشيطان

(عيسى بن هشام) ـ أدخلَنَا فيه حبُّ الاستطلاع والاستكشاف

من الاخلاق والعادات ولكنني فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أري والحمدلله الذى سخرك لنا فى هذه الساعة لتبين لنا ماغمض وتبدى لنا ما يخفى

(الصديق) ـ لك ذلك منى وفوق ما تريد

قال عيسى بن هشام ـ وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فى هذا الباب ماأدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكراً فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم لسماع الغناء من إحدى القِيان البارعات فيه فأعناقهم نحوها مشرئبة وأبصارهم اليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب . واستمر السكران فى سيره يقع يوماً مرة ويقوم أخرى حتى وصل الى مِنَصَّة الرقص والغناء فضرب عليها مراراً بعصا فى يده ونادى على مَنْ فيها بأعلى صوته يطلب العدول عن الغناء الى الرقص فلم يسمعوا لندائه فالتفت الى زمرة من الجالسين وطلب منهم مساعدته على غرضه فنادوا معه : الرقصَ الرقصَ . ونادى الراغبون فى السماع : الغناء الغناء . فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم ويسفههم فى سوء اختيارهم فأجابه سفيه منهم

على سفاهته فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الخان من مكمنه الى السكران فأخذ بتلابيبه . ويقوم طالب الغناء حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباً وصفعاً فيتعلق السكران بخناقه وينادى : البوليس البوليس . فيجتمع غلمان الخان يجرّونه الى الخارج وهو ممسك بعنق الضارب له لا يخليه حتى اذا صاروا الى الباب أدركهم جندى البوليس وقبض على المتضاربين فيتعرض له صاحب الخان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له : ليس لك الا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امتلأ سكراً من الخارج يعربد فى محلنا وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للإضرار بنا وإحداث الفشل فى محلنا . فيأبى الجندى الا أن يسوق المتضاربين معاً فيغمزه صاحب الخان ليلين له فيبتدره أحد غلمانه قائلاً له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندى من المصانعة وغرضنا يقضى بدونه فان حضرة معاون القسم جالس عندنا داخل « البار » مع صاحبته

(صاحب الخان) للجندى — لم يبق لك من وجه لسحبهما الى القسم . وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة المعاون فى « البار »

(الجندىّ) ـ هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك. وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن فى «البار» والنوبة عليه الليلة فى القسم

(صاحب الحان) .. ما عليك الا أن تدخل وهما فى قبضتك لتراه بعينك . فيجيب الجندىُّ صاحبَ الحان الى ذلك فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب صاحبته خالعاً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها

(صاحب الحان) للمعاون ـ لقد تعطل المحل يا حضرة الافندى فى هذه الليلة وتعطيله لا يرضيك فان هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً فعربد بين الجالسين وأخلّ بنظام الاجتماع ثم تعدّى على هذا البك بالشتم والضرب وهو من أجلّ المتردّدين على المحل . والغريب أن جندىّ البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمّم على سحبه مع ذلك المتعدى الى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يليق بكرامته أن يُساق مع هذا السكران الى المحاكمة

(للمعاون) للجندىّ بعد أن يلبس طربوشه ـ ما هذا الذى أسمعه

( الجنديّ ) رافعاً يدَه بسلام التعظيم — لم أعلم بوجود حضرتكم هنا والامر اليكم

(المعاون) للجنديّ — اذا كان الرجل السكران فى حالة سكر بيّن نخذْهُ وحده الى القسم ومادام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجه فلا لزوم لذهابه معك ويكفى ان حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً الى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران

( وعند ذلك يدفع صاحبُ الحان بالسكران الى الخارج مع الجنديّ )

( الجنديّ ) — اذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك يا حضرة الخواجه فليس يكون حضرة المعاون عندك فى كل ليلة . والايام بيننا

( صاحب الحان ) — أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك فى دوام الرعاية بك

قال عيسى بن هشام — وخرج السكران أمام الجنديّ مدفوعاً فى ظهره يقع ويقوم ويستعدي و يستنجد . وعُدنا الى داخل الحان ننظر ما يجرى فيه فاذا صاحبُ الحان و معه البك

خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكؤوسُ تغدو عليهم وتروح . فجلسنا ناحيةً نستمع لهم ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى :

( صاحب الخان ) للمعاون ـ لماذا أوعزتَ الى صاحبتك بالقيام عند جلوسنا معك

( المعاون ) ـ أنا لم أوعز اليها بشيء ولكنها هي التي قامت مُغضبة

( صاحب الخان ) ـ ولأيّ سبب أغضبتَها

( المعاون ) ـ لم آت سبباً يغضبها بل هي التي انتحلت سبباً كدرتني به وكدرتْ نفسها أيضاً

( صاحب الخان ) ـ لا شك ان ما حصل هو من باب الدلال دون سواه وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما

( المعاون ) ـ لا دخل الدلال هنا ولكن جرى في أمر حضرة البك والسكران ما هو على خلاف هواها فانها كانت ترغب في التضييق على الاول والتفريج عن الثاني لان حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنية والمغنيةُ من ألدّ أعدائها

(صاحب الخان) ـ لقد حرتُ في أمر هذه الفتاة فان ضروب

حماقتها لا حدّ لها وفى كل ليلة تأتينى بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه مالا يعوّض من خسارتى ولولا منزلتك عندى ومنزلتها عندك لما أبقيتها فى المحل يوماً واحداً ولا كابدت إعطاءها فى كل شهر مقدارَ ما يأخذهُ وكيل المديرية مرتباً من الحكومة . ولو شاهدتَ منها ما أشاهده كل ليلة من تسافهها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك وارتكاناً على مساعدتك لعلمتَ مقدار حماقتها وجنونها

( المعاون ) ـ نعم ان حماقتها عظيمة وطالما شددت عليها النكير لتجتنب المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال ان علاقتها بى هي التى تجرّئها على ارتكاب ذلك . ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح

( صاحب الخان ) ـ صدقتُ وهى مع ذلك تحبك حباً صادقاً

( وهنا تدخل المغنية فى البار بعد انتهائها من الغناء فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليهِ أمر المخاصمة مع السكران فيقول لها ) :

( البك ) ـ أنا فى غاية التشكر لحضرة المعاون الذى أنصفني وفى غاية التكدر مما وقع له من فلانة بسببي فانها اهتاجت غضباً

لما علمت بمساعدته لى وهى تبغضني لعلاقتى بك . فبحياتي عليكِ الا ما قبلت التوسط فى الصلح بينكما وإزالة ما فى النفوس فتعود راضية على حضرة المعاون ويتم الصفو لنا جميعاً

( صاحب الحان ) ـ أنا اوافق على هذا الرأى

( المعاون ) ـ وانا لا أرفضه

( البك ) ـ وأنا أرسل فى طلبها

قال عيسى بن هشام ـ وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسةً مع المعاون وأصحابهِ فتشتعل جذوةَ نارٍ من الغضب وتنقلب لَبُوةً هاجت لفقد أشبالها فتشتم وتسبّ وتقذف وتلعن وتتفل وتبصق وتنقضّ على المغنيـة فتأخذ ببرقعها فتزيلها عن مكانها وتلتفت الى المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ثم الى صاحب الحان فتتهدده بأنها لا ترقص فى ليلتها . فلا يسع صاحب الحان الا أن يتلافى الفضيحة فيجرّها الى خارج البار بالقوة ليتمكّن المعاون أن يتسلل هارباً . ثم أخذ ينصحها ويحذّرها ويقول لها ان المعاون قد ذهب الى القسم الآن وقلبهُ مملوءٌ منك حقداً وغيظاً فاذا أنت لم ترجعى عن حماقتك وتصعدى الى المنصة للرقص أوعزتُ الي المغنية أن تمسك بكِ وتذهب معكِ الى

القسم والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب والمأمورون هناك ينتظرك لاقتشفى منك

قال عيسى بن هشام ـ فوقع هذا القول منها وقع الماء فى النار . وإنذار الحجز على أهل الدار . فهدأ جأشها . وسكن طيشها . وصعدت للرقص على منصتها . تتأوه من حسرتها وغصتها . وعدنا للجلوس أمام الميدان . ننظر ما يكون من الغلبة والخسران

قال عيسى بن هشام ـ وجاء دور الرقص فضجت الغوغاء ، واشتدت الضوضاء . وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق . واشتغلت الاكف بالتصفيق . ترحيباً وتأهيلا . وتكبيراً وتهليلا . اذ قامت على المنصة هلوك ورهاء [1] . حمشاء مرهاء [2] . فطساء فوهاء . عجفاء شوهاء [3] . مزججة الحاجبين . محمرة الخدين . مبيضة الساعدين . مخضبة اليدين . قد ألبست وجهها من الطلاء نقاباً . وأسدلت على أطرافها من الدهان ثياباً . بأصباغ شتى وألوان . بين أبيض ناصع وأسود فاحم وأحمر قان . تتلون تلون الحرباء . فى

(١) الورهاء الحمقاء (٢) المرهاء التى ابيضت بواطن اجفانها (٣) العجفاء المهزولة

هجير البيداء . وقد وارت ما تعرّض من جسمها . وتعرّى من لحمها . بأنواع العقود والقلائد . والأساور والمعاضد . والدمالج والجلاجل . والمناطق والخلاخل . فأخذتْ فى الرقص والحجلان على توقيع الضروب والألحان . وبجانبها خادم ماشككنا من قبح هيئته . أنه إبليس اللعين فى طلعته . رُكّبتْ منهُ أقبح هامة . على أسوإ قامة . بوجهٍ قد قُدّ من الصخر . وعينٍ كعين الصقر . وأنفٍ كمنسر النسر . وفمٍ يرمى بالزّبد كالبحر . وشفةٍ مهدولة . وعمامةٍ مجدولة . وفى يمينه قدح وإبريق . يسقيها منهُ بكأس من حريق لا بكأس من رحيق ويعاطيها من غسلين أو قطران[1] . ويجرّعها من حميمٍ آن . وكلما أترع لها كأسا . همست فى أذنه همسا . ثم تشير بطرف الكف . الى بعض الجلوس فى أول صف . فيصيح اللعين صيحة الأسد فى عرّيسته[2] وقع بصرهُ على فريسته . فيجيبه غلام الحان جذلاً وابتهاجا . ويأتيه بالزجاجات أزواجا . فيفضّ عنها الفِدام . ويصففها أمامها تحت الأقدام . ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب . وهى تشرب وتطلب . لا تكتفى ولا تقتنع . ولا تروى

---

(١) الغسلين ما يسيل من جلود أهل النار (٢) العريسة بيت الاسد

ولا تنقع . كأنما يمتح لها من قليب[1] ويصب في واد جديب . أو دلاً من ماء منبثق . ويفرغ في دن منخرق . فاذا دبت في عروقها الحمر . واشتعلت في جوفها اشتعال الجمر . جدت في لعبها ودورانها . واشتدت في قفزها وجولانها . وتلوت كالحية في طرقها ولعبت كالسلحفاة بعنقها . والخادم أمامها ينازلها وتنازله . ويغازلها وتغازله . ويراقصها وتراقصه . ويقارصها وتقارصه . وهي ترسل على الحاضرين أقوالاً بذيئة . وتخاطبهم بألفاظ قبيحة رديئة . فتفتر لها الثغور . وتنشرح الصدور . ليس فيهم الا كل مستحسن مستزيد . ومستملح مستعيد . الى أن تخور قواها . وتغور عيناها . وتتقلص شفتاها . ويكلح شدقاها . وينضح العرق من أطرافها وتراقيها . وينعقد الزبد بنحرها وفيها فتضطر الى إزالته . وتمد لازاحته فتتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها . فيتلون بأشكال الصبغة وأنواعها . فيغدو المنديل كأنه قوس قزح . بما تصبب من أديمها وارتشح . وينكشف التمويه والتلبيس . ويفتضح التلفيق والتدليس . فيظهر ما بطن . ويبرز ما كمن . وتنقلب الى صورة سعلاة . تتراءى في سراب فلاة . أو غول . تكشر وتصول . أو دب . يهتز ويدب . فحولنا

(١) القليب البئر

عنها الوجوه استنكافاً واستنكارا. ولَوَينا الاعناق استقباحاً واستقذارا ومال الباشا على الصديق يسائله فى دهشته. ويقول له في نفرته: أعلى مثل هذه تذوب القلوب. وتنشقّ المرائر والجيوب. وهل وصل العمى بالناس الى هذا الحد. ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد (الصديق) - نعم ان هذه التى تهرب منها الوحوش لفظاعتها. ويتعوذ منها الشيطان لدمامتها. هي عند هؤلاء الحاضرين دُمية القصر. وفريدة العصر. كم ذهبتْ بأموال وأودت بأرواح وكم أضاعت شرفاً وأزالت مجداً وأذلّتْ رقاباً وأفسدت حكاماً وكم فرقتْ بين المرء وزوجه وولّدت العقوق بين الوالد وولده وألهبت العداوة. بين الأخ وأخيه وكم خرّبتْ بيوتاً عامرة ودنّستْ أنساباً طاهرة وكم بَذَرتْ للشر أسباباً وفتحت للسجون أبوابا. وهؤلاء الذين تراهم جلوساً فى هذا المستنقع الوبئ والمرعى الوبيل يقضون فيه ليالىَ الشهر تباعاً وشهورَ العام رِدافاً لا تتوهمنَّهم من أسافل القوم ولا من أدنياء الناس بل فيهم الكبير والأمير والسَّرىّ والوجيه. وانظرْ عن يمينك الى هذا الجالس بين اخوانه جلسة الكبرياء فهو أحد أبناء الامراء مات أبوه وترك له أموالاً جمة فالتفّ حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ فى تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول له

المسوّمة والمركّبات المطهّمة ثم ثنّى بالاسراف الفاحش فى مهرجان زواجه ثم ثلّث بتسليم ما بقى منها الأيدى العواهر والفواجر وأخصُّهنّ هذه اللخناء التى لم يبق له منها الا التمتع بالنظر وهى لا تنظر اليه ولا تسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله . وانظرْ عن شمالك الى هذا الجالس الذى يفتل شاربيه ويحملق بعينيه ويغمز بحاجبيه فهو من أبناء الكبراء أيضا ماتت أمهُ فورث عنها أموالا طائلة ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى أوقعهُ سوء طالعه فى مخالب هذه الخدّاعة الغرّارة فهو لا يصبر عنها ولا يقطع المجيىء اليها فى كل ليلة وهى تسلبهُ كل ما تصل اليه يدُه من خفيف وثقيل وما كان لأمه من حلى وجواهر غير ما ينثرُهُ من الذهب والفضة فى أرض هذا المكان . وانظرْ أمامك الى هذا الجالس معظّما بين جلسائه مبجّلاً فهو من كبار الحكام فى الارياف وقع فى أشراك هذه المرأة فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك لا يسلوها ولا يلهو عنها وليس له فى مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ومرقصها ملهى فاذا هو عاد الى مقر وظيفته عاد بغير لبه فيسعى فى استغواء العمد والاعيان لإقامة الولائم والحفلات واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها . وانظرْ الى هذا الشيخ

الجالس منفرداً منزوياً ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته فهو من أعيان البلد لم يمنعه وقار السنّ وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه الغاوية فأخذ يبدد عندها في شيخوخته ما كان جَمَعهُ في شبيبته

(الباشا) ـ لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء لقلنا الهوى في الناس داء قديم والولوع بالحسان أمرٌ بديهٌ والعذر غير معدوم ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان والهرُوبُ منها مندوب اليه . فهل تعلم لذلك من سبب خفيّ

(الصديق) ـ السبب فيه حبُّ التباهي والتفاخر والأَثَرَة والاختصاص وقد اشتهرتْ هذه البغيّ باتقان الرقص والتفرد فيهِ وأنفُسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عُمْيَ النواظر عُمْهَ البصائر فهم يرون ان الاختصاص بمثل هذه الشهيرة في فنها وإن قبح منظرها وساء مخبرها هو الفخر كل الفخر والسبق كل السبق . وهم مجبولون على الحكاية والتقليد فلذلك نفذ فيهم سهمها وَسرَى في عروقهم سمُّها

(الباشا) ـ ان كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعهم وحكم يكف الأذى عنهم

(الصديق) ـ لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقلّ بيننا من يشتغل للناس فى نفع الناس. أما الحكومة فأسمِعْ بها وأبصرْ تنتشر كلُّ هذه الموبقات بعلمها وتُصنع على عينها وهى ناظرة اليها نظر الرضى متقبلة لها أحسن القبول وهي التى تدير نظامها وتوسع حدودها وتضع لها اللوائح والمنشورات وان اضمحلّ بها حال الرعية وساء منها المصير . وماذا يقال فى حكومة تعلم ان ثروتها فى ثروة رعيتها وسلامتها فى سلامتها ثم ترضى بانتشار هذه المنكرات المقوّضة للثروة المتلفة للارواح والابدان ولا تأبى لعزها وشرفها ان تكون سُرّةُ عاصمتها محلة للبغايا وسوقا للخمور وميدانا للمقامرة. والعجب فى أمر هـذه الحكومة أنها لا تحتذى فى هذا الصدد على مثال حكومة اسلامية ولا على مثال حكومة مسيحية فجميع عواصم الاسلام فى العالم خالية من اماكن معينة للبغايا المسلمات تشهد بها الحكومة والحكومة الانكليزية من الحكومات المسيحية لا تعترف فى بلادها ببيت للفاحشة ومَن أباح بيوت الفاحشة من بقية الممالك المسيحية فقد أباحها بقيود وحدود تخفف من أذاها وتهوّن من غوائلها وأقلّ ما فى الامر أنهم جعلوها فى أطراف البلدة بعزل عن مساكن الحرائر ولكن الحكومة المصرية تخالف فى ذلك

مناهج الحكومات جميعها

قال عيسى بن هشام - وانتهت الراقصة من رقصها فدخلت حجرة لتغيير لباسها وإصلاح ما فسد من حالها ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر فى مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة ويتطلعون اليها تطلع البهيمة فتزحزحت لها المجالس وحلت لها الحُبَى وأعدّ لها كل فريق كرسيا بجانبه وتناثرت عليها الاشارات بالتفضل بالجلوس فلم تعبأ بشىء من ذلك ولم تلتفت اليه. واستمرت فى تكسرها وتهاديها حتى وصلت الى مقام صاحب الحان فوقفت معه ملاعبة مداعبة وممازحة مضاحكة . وجاء خادمها فى عقبها فاستوقفه اليه ذلك الحاكم من حكام الارياف فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها فى يده فانصرف الخادم الى الراقصة فكلمها واشار بيده الى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها الى الجلوس معه فأبانت عن أمارات الاباء والرفض فى اول الامر ثم انتهت بها حاجة الخادم الى الرضاء والقبول فقصدت مجلس الحاكم وقصد الخادمُ غلامَ الحان فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل فى يديه اربع زجاجات من الشمبانيا فبزلها كلها (١) ببزاله ففارت وفاضت وانتشرت كلها

(١) بزل الخمر ثقب الاناء والمبزل المثقب

حبيا والغلامُ مقلاهٍ عنها لا يسرع الإملاء منها حتى اذا لم يبقَ بها الا مقدار صُبابة[1] صبّ الخبيث فى الكاسات وقدّمها للفاجرة فبادرتْ الى لمس كل كأس لمسة بيدها وفيها . ثم يعود الغلام بعد هُنيهة لأخذ الزجاجات الفارغة فتأمره باحضار سواها . وهكذا يتوالى الحال فى طلب الادوار حتى يبلغ الى الدور الخامس فى مدة يسيرة وجميع الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجما أو يرقبون هلالا . ولما انقطع ورود الزجاجات برهة التفتت العاهرة الى خادمها وهو على بعدٍ منها فرأتهُ يشير اليها بحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى فهمّتْ بالقيام فأمسك الحالم بأذيالها فصفعته صفعة رزاحٍ على قفاه بعد أن لعنت أمه وأباه استرضاء له عن تركها اياه فهش وبش اعتقادا منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة الا لسقوط الكلفة وتمكن الألفة . وتنسلُّ من حضرته الى حيث أشار الخادم فتهبط على الفئة التي عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذى أفنى فى حبها ماله وأضاع فى هواها شرفه فخاطبته بلسان اللوم والعذل تسأله لأى سبب دعاها ولأجل أية علة أقلقها من مكانها فيتلعثم المسكين برهة ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها فان الحاجى

---

(١) الصبابة البقية فى الاناء

أخبره بنجاح قضيتها فتبسم له قليلاً ثم تلتفت عنه الى سواه فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق ان تجلس معه لحظة ليقص عليها تفصيل الخبر فتنفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة ويبكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أنالها في معاشرتها من نضار وعقار فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب وتجلس الى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالى والايام الخوالى وأن يحفظ عنها قصة الاضراس في باب الاعتبار . وروت له هذه القصة التي هي عندهن عماد الصنعة وأساس الفن: زعموا ان فتى كان يهوى فتاة وتهواه فما شاءت جناح الحب زمناً سعيداً ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها في طلب المال وجاءت ساعة الوداع فانهملت العبرَات وتوالت الزفرَات وأقسمت له بأن العيش لا يطيب لها من بعده وان الموت أهون عليها من بُعده وسألته أن يُبقى عندها أثراً منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى فقال لها سأترك لك بضعة مني وأنتزع لك أثراً من بين لحمي ودمي ثم عمد بيده الى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبالٍ بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع وناولها إياه يقطر بالدم فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلاً ووضعته في حقة نفيسة وسافر الفتى سفره ومضت عليه الايام والليالى ثم آب من سفره خائباً

لم يظفر بحاجته ولم يفز بطلبته رقيق الحال ضعيف الركن فذهب الى دار صاحبته وقد أضناه الشوق وبراه النوى فلما طارق الباب ولمحته من النافذة تنكرت له وأنكرته فناداها أنا فلان فاسمحي لى بالدخول قالت له ومن فلان فانى لا أعرفه قال لها خليلك وحبيبك صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة قالت له كل الناس عاشر وفارق فأيهم أنت قال لها أنا صاحب الضرس قالت أو لك ضرس عندي قال نعم قالت فادخل فدخل فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس وقالت له: دونك إن كنت تعرف ضرسك من بين هذه الاضراس . فأنا أعرفك اليوم من بين الناس . ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس الى مجلس ذاك الشيخ الوجيه فيقوم لتحيتها والقفز بين يديها ويجذب يمينها لأن تجلس فمه وغلام الخان فوق رأسها ينتظر طلبه الزجاجات فلا تلتفت اليه فيديم الوقوف فتأمره بالانصراف فيعود خائبا وتقول للشيخ إنها لا تريد أن تحمله فى بجبهاغرما ولا تقيم عندها وبقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الحلت فيخرج الوجيه من حزامه عقدا يتلألأ فيضعه بين يديها فتبسم له وتنعطف اليه وتقيم عنده برهة فى مضاحكة ومغازلة ثم

تقوم لتنصب على سواه شباكها . وترمي لصيد القلوب أشراكها:

تُحَيّي وُجُوهَ الشَّرْبِ فِعلَ مُسَالمٍ[1]
يُضاحِكهُ والكيدُ كيدُ مُحاربِ

قال عيسى بن هشام ـ وأقمنا نتأمل فى أفعال هذه البغيّ الفاجرة. ونفكّر في أعمال هذه الخدّاعة الماكرة. ولعجب كيف يقتدر مثلها على ختل الرجال فترميهم فى مهاوى الغواية والضلال. وهى عارية من ثوب الجمال مجرّدة عن جميع المزايا والخصال. مُفرَغة فى قالب الوقاحة . معجونة من حمأة الدمامة والقباحة . وما زالت الفاجرة تتقلب بين الجالسين وتتنقّل. وتتجوّل بين الصفوف وتتحوّل . وتروح الى صاحب الحان وتغدو . وتخفَى آونة ثم تبدو . منطلقةً اللسان بالسب والثلب . منبسطةَ اليد بالنهب والسلب . ممتدةَ الكف باللطم والضرب . دائبةً فى السكب والشرب . وهى فى تنقّلها تقطّب تارة وتتجهّم . وتفترّ تارةً وتتبسَّم. وتنبسط حيناً وتنقبض. وترضى ساعةً ثم تمتعض. وتُعامل كلّ انسان بما يلائمه . وتجرى معه على ما يُوائمه . فتضلّ الالباب والنُّهَي . ويقع الجميع فى أسر الهوى. وآية حبها وميلها . أن تصفع الصبّ بنعلها. فاذا أضافت الى الضرب

(١) الشرب جمع شارب للخمر

بالنعال . شقّ القباء ونَتْفَ السبّال[1] . كان فى ذلك بلوغ الآمال. بدنوّ ساعة الوصال . واستوى المضروب يفاخر أصحابه وخلانه . ويباهي أنداده وأقرانه . كالظافر فى ساحة الطعان والضراب والفائز بالغنائم والأسلاب . فيغالى فى إظهار الابتهاج والائتناس . وتنبسط يدُه فى الكيس ويدُها فى الكاس. والغلامُ على رأسه بالآنية . يصبّ لها زجاجة كل ثانية . وهى تصب الكؤوس فى الهاوية . كأن حلقها قناة وكأن الساقى ساقية . وحانت منا التفاتة الى الخليع وصاحبه . فاذا العمدة يشير بيديه ويغمز بحاجبيه . ويقول للخليع فى اشتعاله والتهابه . ويخاطبه فى ارتباكه واضطرابه :

(العمدة) للخليع - لقد أسعدنا الجدّ وحلَتْ لدينا عاقبة الصبر ولئن فاتنا الأنس بالغائب فما أكمل أنسنا بالحاضر . وهذه الراقصة التي اجتمعتْ على محبتها القلوب وافتتنت بها العقول هى عندى الضالة المنشودة والأمنية المطلوبة . ومَنْ يأذنا إياها سواك ويمنّ علينا بها غيرك

(الخليع) - هذه هي الفتانة المشهورة بكثرة العشاق وتطلاب

---

(١) السبال مقدم اللحية

ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها والموردُ العذب كثير الزحام والوصول اليها من دونه أهوال :

وإنك إنْ أرسلتَ طَرْفَكَ رائداً لقلبكَ يوماً أتعبتْكَ المناظرُ
رأيتَ الذى لا كلّهُ أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضهِ أنت صابرُ

( التاجر ) ـ نعم هذه هى البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة فازمَنْ حازها وخسر مَنْ فاتها ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء لَصَبَا اليها القلب وولعت بها النفس ولكن لِرَبِّ العيال ما يشغله عنها ويبعده منها .

( العمدة ) ـ ليس يفوتنا على كل حال ان نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة ونروى بمحادثتها الغليل ونشفى بكلامها الهيام

( الخليع ) ـ حبذا لو جلستْ معنا برهة . ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين فى الغرام بها والتَزُّمِ عليها ما يجعل نيل الغرض متعسراً ودَرْكَ الطالب متعذراً

( العمدة ) ـ أما المزاحمة عليها فان لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرّب الأمل بالوصول اليها وأما المنافسة فى الغرم عليها فالأمر مستدرك والدراهم موجودة .

( التاجر ) ـ ما أشكُّ بعد هذا فى نيل الغرض وقضاء

الوطر وستنتهي ليلتنا بمسك الختام

قال عيسى بن هشام ـ ويدعو الخليع خادم المرأة ويهمّ بإعطائه شيئاً من الدراهم فيسابقه التاجر فيمنعها العمدة ويقوم مقامهما فيلقى الخليعُ في أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ثم يذهب الخادم فيعود بمولاته تتيهُ دلالاً وتتثنّى اختيالاً وتبدى الرضى من خلال التمنع فتسلّم على أهل المجلس وتخص الخليع بابتسامة وتجلس بجانبه وتسأله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالامس فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة ويطنب لها في علوّ شأنه ورفعة مقامه فترحب به فيرفع العمدة يده الى رأسه مراراً تشكراً لها فتلمح فص الخاتم يتألق في إصبعه ويتوهّج فتضع عينها في عينه وتجرها اليها ترصد الحجر فيسيل الرجل طرباً وابتهاجاً ويعتقد انها كَلِفتْ به حباً وغراماً فلا يروعه الا أصوات الأصمّة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعاً وكلما أفرغ أربعاً عاد بأربع حتى هال التاجرَ من ذلك ما هاله فمال الى الخليع يناجيه فسكّن الخليعُ من رُوعه وأزال الهواجس عنه. فيميل التاجر الى الاقداح يسكب ويشرب والى المرأة يهازل ويغازل ويعاطى ويناول والعمدةُ على حاله باهتٌ شاخص ومولّع

ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع
لينقذه من بلائه فيتقدم الخليع فيكلم الزوجَ طوراً والخليلةَ تارةً
وصاحبَ الخان أخرى فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة
ما التقطهُ صاحبُ الخان من دراهمه مرضاة للمرأة عن إهانتها وعوضاً
لها عن خسارة الضفيرتين . ثم يقوم صاحب الخان وينادي غلامه
وهو مشتغل باطفاء الانوار فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له
فيلتفت الى العمدة قائلا :

( صاحب الخان ) للعمدة — والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهاً
ثمن المشروب وانظر ماذا تعطينا من العوض فى تعطيل المحل
بهذه الافعال الصبيانية

( العمدة ) — ما هذه الحسبة وما هذا الكلام

( صاحب الخان ) — أما الحسبة فصحيحة وأما ما أتيتهُ فانه
لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنها
الخمر أمُّ الشرور وإن خالها الشاربُ أمَّ السرور وما كان لك ان
تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها على أهل التنافس فيها والنساء
غيرها كثيرات فى المحل وإن كان لابد لك منها فأنا أسعى فى
الصلح بينكما عند تشريفك المحل فى الليلة الآتية وأرجو أن لا

وبقصد المرأة في مكانها عند صاحب الخان وهو يتمختر في مشيته ويجرر في عباءته فيقف بين يديها يستنجزها الوعد فتنفض عنه فيلح عليها فتلجّ في الإعراض فيُخرج من جيبه كيس الدراهم ويبسط به راحته راجياً متضرعاً فتظهر له الجفوة فتشتد به الصبوة فيترامى عليها فتدفعه برجلها عنها فيقع على الارض فينتثر ما في الكيس فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه اليه صاحب الخان . ويتمائل العمدة رانفاً فيمد يده الى المرأة فيأخذ بضفيرتيها يجذبها نحوه فتسبه وتلعنه وتمسك بصاحب الخان ويستمر العمدة في الشدّ والجذب فتخونه الضفيرتان فيرتمي على ظهره طريحاً وهما في يده والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث . فينقضّ من أقصى المكان رجلٌ رثّ الهيئة قبيح الطامة وسخُ العمامة يرفع في يمينه هراوة ويتأبط في شماله صرة ثياب فيتم على العمدة ضرباً بالهراوة ويدفع العمدةُ عن نفسه ضرباً بالضفيرتين ويتوسط بينهما التاجر فيسأل الرجلَ عما يعنيه في الأمر فيقول له إنه زوج المرأة وإنه يدافع عن حريمه ولا يرجع عن غريمه فيتعرض له التاجر بمنعه عن الفتك بصاحبه فينصحه الخليع بالرجوع عنه لان الرجل من أهل «الحماية» وفي التعرض له إلقاء باليد الى التهلكة فانه فوق القانون يجني

ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع لينقذه من بلائه فيتقدم الخليع فيكلم الزوجَ طوراً والخليلةَ تارةً وصاحبَ الخان أخرى فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطهُ صاحبُ الخان من دراهمه مرضاة للمرأة عن إهانتها وعوضاً لها عن خسارة الضفيرتين . ثم يقوم صاحب الخان وينادي غلامه وهو مشتغل باطفاء الانوار فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له فيلتفت الى العمدة قائلا :

( صاحب الخان ) للعمدة ـ والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهاً ثمن المشروب وانظر ماذا تعطينا من العوض فى تعطيل المحل بهذه الافعال الصبيانية

( العمدة ) ـ ما هذه الحسبة وما هذا الكلام

( صاحب الخان ) ـ أما الحسبة فصحيحة وأما ما أتيتهُ فانه لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنها الخمر أمُّ الشرور وإن خالها الشاربُ أمَّ السرور وما كان لك ان تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها على أهل التنافس فيها والنساء غيرها كثيرات فى المحل وإن كان لابد لك منها فأنا أسعى فى الصلح بينكما عند تشريفك المحل فى الليلة الآتية وأرجو أن لا

تتوقف فى دفع هذه الحسبة الصغيرة فاني لا أرضى لك الاهانة ولا ترضى لنفسك الفضيحة

(العمدة) للتاجر ـ هل عندك ما نسدد به هذا المبلغ

(التاجر) ـ لا وحقِّ العشرةِ وحرمة الصحبة . فلم يبقَ معى من الدراهم لا قليل ولا كثير

(العمدة) للخليع ـ دبِّرني ياصديقى فى أمري وانظر لى طريقة الخلاص

(الخليع) ـ يعزّ علىّ والله مانحن فيه ولكن عزّت الحيلة ولو كان صاحب الخان يقبل مني ساعتى هذه رهنًا على هذا المبلغ لرهنتها عنده ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ولو كان في الوقت سعة لذهبتُ لاستحضار النقود بأية طريقة كانت

(العمدة) ـ ان كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أثمن من ساعتك وهي عندى أعز علىّ من روحي لانى أخذتها هدية من دائرة البرنسيس يوم بعت لها أطيانها وعليها حروف اسمها منقوشة وقد قدّرها لى الجوهرىّ بخمسين جنيهًا

(الخليع) ـ ان كان الامر كذلك فلا يليق رهنها وعندك

الخاتم ترهنه مكانها

(العمدة) ـ هذا هو الأصوب وان كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة . نخذه يا حضرة الخواجه رهناً عندك حتى أسدد لك المطلوب فى الغد

(صاحب الحان) ـ أنا لا آمن لهذه الفصوص اللماعة فقد غشونى فيها مراراً بإحكام التقليد فى صناعتها وليس هنا الآن مَنْ أثق به من أهل الصناعة ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص

(التاجر) بعد أن يمعن فى الفص ـ كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمته لا تنقص عن مائة جنيه وأنا مستعد لرهنه عندى على خمسين جنيهاً فانتظرنى ريثما أذهب الى محل مبيتى وأرجع اليكم بالمبلغ

(صاحب الحان) مكفهراً ـ ليس عندى وقت للانتظار فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل وهذا جندى البوليس واقف أمامنا يتعجلنى فى مطاوعة أوامر الحكومة

(الجندى) ـ نعم مضى الميعاد ولا بد من الاغلاق حالاً فانظروا معكم شيئاً آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل

(الخليع) للعمدة – أعطهِ الساعة فلا حول ولا . وليس هناك ما تخشاه عليها فاننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلني في الصباح بقهوة الموسكي

(صاحب الحان) بعد التأمل في الساعة – هذه الساعة لا توفي قيمة المطلوب وحدها فاترك الخاتم معها أيضاً

(العمدة) – هذا لا يصح مطلقاً فان المبلغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً على فرض صحته

(الخليع) – مادام العزم أكيداً على ذلك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين وأنا أرجو الخواجه ان يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض في تعطيل المحل

(صاحب الحان) – اني أتجاوز عنه لأجلك

قال عيسى بن هشام – ويشدد جندي البوليس في طلب الاغلاق في الحال فلا يسع العمدة الا التسليم في الخاتم والساعة . وبينا الجميع يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر اذ دخل رجل قبيح الخلقة جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرت الشدقين فأخذ يجيل في الحاضرين بنظره يميناً وشمالاً ثم تقدم الى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت

ومضى الميعاد وأُغلقت الحانات وأنا قاعد فى انتظارك بالبيت وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين فأين هذا الصيد الذى ألهاكِ عنى وأنساكِ أمرى يا عاهرة . فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع بعض العمد يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع ضفيرتيها فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة فيزمجر الرجل ويتوعد ويهدد لاحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب فتستعطفه الفاجرة وتطلب منه ان لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع فى مخاصمة أخرى وتطلب منه الاسراع الى البيت فى صحبتها

وخرجنا مع الباشا نتعوّذ من كيد النساء . ونتأسف على وقوع الرجال فى أشراك المكر والدهاء وكيف نزل العمى بهم والجهل . حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل . ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنىء . والموطن الردىء . وقد خرجوا من الثروة والشرف . ودخلوا فى البؤس والتلف . ونزلت بهم أنواع المرض والسّقَم . وصُبَّ عليهم سوط الاحزان والنقَم . ثم التفت الباشا الى الصديق . يسائله في أثناء الطريق :

(الباشا) ـ ألا تخبرني أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الاقامة في هذا المكان وكيف يترددون عليه ليالىَ متتابعات ولا يدركوا ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال وقد كاد يُقضى عليّ للاقامة فيه بضع ساعات . فما وجارُ الضبع وماءُش الظرِبان[1] وما قبرُ الميت ـ يرحمنا الله وإياك ـ بأنتن رائحةً ولاأقذرَ مكاناً ولاَ أسوأ مقاماً من هذا الذى كنا فيه

(الصديق) يصبر الناس على الاقامة في هذا المكان ويكثرون من التردد عليه بحكم التدرج وإلف العادة وقوة التمادى وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً بسمه فلا تحس بضرره وألمهِ كالمريض يذهله الارتعادُ عن ألم الداء وبترِ الأعضاء وإن شئت فكالهندىّ يتدرّج ويرتقى فى تناول الأفيون وهو سم قاتل حتى ينتهي بجسمه الى حال لو لسعتْهُ معها عقربٌ أو لَسَبَتْهُ حية لم يؤثر سمها فيهِ[2]

(الباشا) ـ أفدتَ بما شرحتَ . وقد بقى عليك أن تفسر لى ما أشكل عليّ من أمر الرجلين مع العاهرة أحدهما الذى يقول إنهُ زوجها والثانى الذى أخذتْ بيده أمامهْ الى بيتها

---

(١) الظربان دويبة كالهرة منتنة الرائحة

(٢) لسبته لدغته

( الصديق ) — أما الزوج فانهُ رجل من سفلة المغاربة المنتمين الى دولة أجنبية تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تنالهُ عند مخالفتها وهذه المزية هي التي تؤهله عند العاهرة للتأهل به فتدخل حينئذٍ في حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة اذا أتت في فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة . ويعيش الرجل معها زوجاً بالاسم وديوثاً بالفعل وذلك في مقابلة شيء من الدراهم يتناولهُ منها في كل ليلة . وهذه الطريقة قد تألفها الناس ولم تقتصر على العواهر بل تمدتهن الى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد فترى صاحب القضية يتنازل في الظاهر عن قضيته الى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الاجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الاهلية الى نظام المحاكم المختلطة إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة الذي يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس الى محاسن الاخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسئول عما يُنشر فيها ويُطبع ثم يملؤها بما تسوّله له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشراف الناس ويسوّد صحيفته بكل فاحش من القول وبذيء من الكلام فاذا عوّل أحد الناس على محاكمته يوماً من الايام توارى وجهه عن المحاكم بوجه الاجنبي



وقال لك : ماذمّ الامراء ولا هجا الاشراف ولا طعن فى الناس الا صاحب الاسم المسئول فعليك به . فاذا التمستَهُ وجدتهُ بائع نعالٍ يصفّق بها فى عرض الطريق وينتسب الى دولة من أكبر الدول الاجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ولا سبيل الى محاكمته الا فى بيت القنصل وقوّاس القنصل ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً ناهيك بالقنصل نفسه

وأما الرجل الذى سحبته العاهرة بيدها الى بيتها فهو صاحب ودها وحبيب قلبها تفضله فى آخر ليلها على كل رجل يتملق بهواها ويبذل نفسه فى سبيل رضاها ولا تعجب من سوء معاملته لها وشدة قطرسته عليها فذلك مما يزيدها فيه حباً وبولعها به شغفاً . والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل الا لمن يبادرها بالاهانة والتحقير ولا تنقاد الا لمن يتناولها بالضر والاذى . فهو يضر بها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ثم يتمتع بها دون المتهالكين عليها وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضارى عندها على تلك الدواجن التى تدب حولها

(الباشا) ـ لا شك أن فى هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغىّ على بغيها فى الناس وسلبها للاموال وفتكها بالارواح وقلّ لمثلها هذا

الجزاء المعجل فى الدنيا قبل العذاب المؤجل لها فى الآخرة

( الصديق ) ـ لا تستهيننّ أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة فى دنياها من الجزاء. فانهنّ جميعاً فى معيشة كلها هموم وأدواء . ومَنْ تأمل فى حقيقة أحوالهن خفف من سخطه عليهن ووجدهن أحق بالشفقة من القسوة . فان هذه الاموال التى ينهبْنَها والأسلاب التى يسلُبْنَها لا تلبث فى أيديهن الا ريثما ينفقنها فى الحِليّ والحُلل . والعاهرة لا تنتهى حاجتها من الزينة ولا تخلو من حبيب تكفله وخليلٍ تقوم عليه فهى على الدوام فى عسر شديد ودَين ثقيل . وان جميع ما عليها من الحليّ والجواهر وما يتألق فى عنقها من القلائد وفى معصمها من الأساوِر وفى رجليها من الخلاخل إنما هي كلها فى الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهريّ فى أسْرٍ لا فكَاك لها منه طول الحياة . وهى كما رأيت تقضى ليلها الى الصباح فى شرب السموم من الخمور وفى تحريك الاعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقُوَى الأبدان وفى اشتغال الفكر بمراقبة الناس وتكلّفِ التحبب اليهم وفى التفنن للتحايل عليهم ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التَذَلُّل والخضوع لصاحب الحان . فاذا انتهت من ذلك كله وصلت الى

بيتها مُنْحَلَةَ الاعضاء مفككة المفاصل فترتمي على فراشها كالرمة في مكان هو أقذر من ذلك الحان وأفسد منه هواء وربما لم تذق في يومها طعاماً ولم تتناول في ليلها غذاء فاذا قامت من نومها بعد نصف النهار قامت كالذي يتخبطه الشيطان مصدّعة مخمورةً لا تشتهي طعاماً ولا تسيغ شراباً حتى اذا تماسكت قليلاً بادرت الى اصلاح الفاسد منها ومداراة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس وقعدت لمقابلة زائريها الى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانت عليه . لا تزال المسكينة هكذا دائرة في حلقة من التعب والوَصَب ولاخلاص لها منها الا بحلول الأمراض والأوجاع ثم يُقضَى عليها وهي في المعصية بعيدةً عن ذوي الحنو والاشفاق من الاهل والاقارب وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الاليم

قال عيسى بن هشام — وما راعنا في طريقنا الا صوت الديك يؤْذِن بالصباح . وصوتُ المؤذّن يؤَذّن حيّ على الفلاح . فأسرعنا نطلب مأوانا . وندرك أمّ مثوانا . ونحن نسأل رب الأرض والسموات . أن يَغفِر من ذنوب المسلمين والمسلمات

## ﴿ العمدة فى الرهن ﴾

قال عيسى بن هشام - ولما ارتفع وجه النهار أو كاد. ومسحنا عن النواظر كحل الرقاد . بادرنا كل الابدار . بالخروج من الدار. لنلحق بأولئك الرفقاء . فى المكان المعيّن للقاء . فقصدنا « قهوة القزاز » فوجدناها تتموج بالداخلين. وتضطرب اضطرابا بالواقفين والقاعدين . فوقفنا برهة نرسل النظر إرسالا . ونتصفح الوجوه يمينا وشمالا . حتى اهتدينا الى « الصديق » جالسا فجلسنا عن جانبيه . ورأينا العمدة جالسا بجانبنا مع صاحبيه . فاذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة . من سواد ليلته الغابرة . حيث ناله فيها من الهوان ما ناله . وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله. ورَهنَ ما رهن من حلية ومتاع . من غير لذة ولا استمتاع . فهو متخاذل متضائل . «له شقٌّ مائل . ولونٌ حائل . ولُعاب سائل». وسَحْنَةٌ مغبرّةٌ وأناملُ مصفرّة. وجفونٌ محمرّة. وأحداقٌ جامدة وأعضاءٌ هامدة . ورأسٌ متصدّع . ونَفَس متقطع . يفتح تارة فاه . ويحك طورا فى قفاه . فيخاله كل من يراه . نضوَ سفرٍ[1] أضناه السُّرَى وبراه . أو حِلفَ تسخير أدمَته العصا والهبهُ

---

(١) النضو المهزول من الحيوان

السوط . ليبلغ من جهد « السخرة » منتهى الشوط . واذا التاجر بجانبه يقلب حدقتيه . ويحلب بشفتيه . ويصعد أنفاساً كالحريق، في ميزاب من الريق[1] . كأنه ذئب يهم بالعثيان. ويخشى صولة الرئبان . أو صائد يخاف أن يخونه كيده . ويفلت منه صيده . والخليع بينهما يطرق برأسه. ويكتم ما في نفسه . متفكراً ينكت الأرض بعصاه. ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه . دائباً يبرم الخديعة ويهيئ العدة . ليسقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة. ورأينا هنالك من دونهم نفراً . لا يحولون عنهم نظرا . كأنهم الطيور الجارحة . تترقب حمامة سانحة . فاستخبرنا من الصديق عن شأن هذا الفريق . فقال هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة . والطائفة الرابحة الخاسرة. طائفة الوسطاء والسماسرة وشاهدنا الخليع يوحي اليهم باللحظ والنظر . كأنه يساعدهم على النجح والظفر . ثم سمعناه يقول للعمدة تهويناً لأمره . وتيسيراً عليه من عسره :

(الخليع) ـ لا تهتم يا مولاي ولا تغتم فالخطب أهون مما تظن والامور بأمر الله متيسرة والحاجات بإذنه مقضية

(٢) الميزاب القناة يجري فيها الماء

( التاجر ) ـ ان كان التيسير من جهة الاقتراض فأنا لا أتصور أن أرباب الاموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس فى هذا العهد عهد المماكسة والمضاربة . وفى هذه الحالة أرانى أولى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي فاني له أرجح جانباً وأربح معاملة وأنقص فى قدر « الفائدة » من سواى

( العمدة ) ـ لا أرى فى ذلك من بأس لو كان فى الوقت سعة وفى الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه اجراء الرهن من الكشف والمعاينة والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل الى غير ذلك

( الخليع ) ـ ولا تنسَ ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الاهل والجيران. وصدَقَ من قال : « بيع الشيء خير من رهنه . والرهنُ بيعٌ وغَبْن » وأنت بحمد الله لك صيت بالغني وشهرة بالثروة وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض

( التاجر للخليع ) ـ ما أحسن هذا لو أنه يتم ولكن لا تنس أنت أيضاً ما قيل : « ان الذى يقرضك على الشهرة والسمعة .

لا بد أن يأخذ فائدة شهر فى جمعة ، وان يخاطر أحد من أرباب الاموال بماله من غير رهن الا مَنْ ضَمِنَ لنفسه الفائدة الجسيمة والربح الطائل

( الخليع للتاجر ) ـ ما بالك تعسر علينا فى الامور مع إمكان تيسيرها ولا يأخذك شكٌ في ما أقول فأنا أضمن الحصول على القرض في هذه الساعة فى هذه القهوة فى هذه الجلسة . ولا محل للتخوف من جسامة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً والتسديد عتيداً

( العمدة للخليع ) ـ هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الاصحاب والاصدقاء وهكذا تكون محاسن الشيم يا أبا المكارم والهمم

( التاجر ) ـ قد قلت ما عندى وكل انسان حرٌ فى عمله

( الخليع للعمدة ) ـ قل لى كم تريد أن يكون مبلغ القرض

( العمدة ) ـ يكفيني على ما أظن مقدار مائة جنيه لسد الحاجة في الحالة الراهنة

( الخليع ) هذا التقدير ضعيف وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل وبماذا يفيد وعليك قبل كل شيء تسديد مال صاحبنا هذا فى ذمتك

من الدين ثم يتبعه ما لصاحب الخان لفكّ رهن الساعة والخاتم .
وأضف الى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد
سكناه في حلوان وما يتبعه من أثمان الفرش والاثاث. هذا غير
ما يجب ان يكون فى يدك للبذل والانفاق في أوقات الأنس
والطرب وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة اليها بعد كل هذا التعب
والكدر فلا بدّ لك حينئذٍ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على
لاقلّ ولا سيما أن أرباب الاموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقلّ
من هذا المقدار ان كانت مدّته قصيرة

( وهنا يومئ الخليع الى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه
فيهمس فى أذن أحدهم كلاماً ثم يجهر لهم بالخطاب فيقول ) :

(الخليع) ـ اعلموا ان سعادة البك هو العمدة فلان الفلاني من
كبار المزارعين الذين يمتلكون من الاطيان والعقار ماهو معروف
مشهور ولم يسبق له اقتراض مال قط وليس عليه دين مطلقا واطيانه
واملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك وقد حالت به ظروف
استنفدت جميع ما كان يحمله معه للانفاق فى مدة وجوده بالقاهرة
وهو الآن فى حاجة الى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى
أوان الحصاد الآتى ولست أرضى له أن يقترض مثل هذا المبلغ

الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التحرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد

(أحد السماسرة) — مرحباً بسعادته مرحباً . وما هو بالمجهول عندنا فاننا نعرفه كأننا بما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه . وكان للمرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة . وطالما سمعت من والدي وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين أعيان القطر مثل المرحوم فى الصدق والامانة وكرم الخلق وسماحة النفس . ولكنك تعلم ان الدراهم عزيزة المنال فى هذه الايام وقلّ من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة ولو كان الامر لى وحدى لما تأخرت عن اجابة الطلب بدون ميثاق أو رهن أو فائدة اكراماً للصحبة القديمة بين والدينا وتوثيقاً لعرى المحبة بيننا ولكن شريكى فى الاشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر لا يعرف حقوق المودة القديمة ولا يرضى بقرض المال الا اذا كان مستجمعاً للشروط القانونية . ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى وأترضاه بضمانتى أولاً وبتشريف مقدار «الفائدة» ثانياً فان اتفقتم معى على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة الى وقت الحصاد باشرت معه

الامر وقت بالخدمة الواجبة عليّ لسعادة البك

(التاجر) - سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم . أيكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض . . . ماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين

(السمسار للتاجر) - ان مولانا من المجاورين بالازهر الشريف . فانه لا يستعظم مثل هذه الفائدة فى الاحوال الحاضرة الا من يعتقد بتحريمها . على أن الربا محرّم عندنا أيضاً كما هو محرّم عندكم ولكن « الضرورات تبيح المحظورات »

(العمدة) - حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار المشهورين

(السمسار) - اذا كان حضرته من التجار فلا بد أن يكون واقفاً على ضيق الحال وقلة المال وكساد السوق وعالماً بمقدار الفائدة فى قرضٍ من غير رهن . ثم إنه لا يجهل فى الاشغال تكاليف المشاركة . . . والمساهمة . . . والمقاسمة . . . ان شاء الله

(التاجر) - نعم نعم ولكن يجب إنقاص مقدار الفائدة على كل حال فانْ أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بستمائة وخمسين . رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمتُ بذلك عليه

(السمسار) - ما أصعب المعاملة مع التجار . ومادمتَ حكمت .

حكمك فلا مردّ له عندنا وما علينا الا الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البك فتفضلوا بالذهاب معي الى المحل على بركة الله لإتمام الامر مع شريكي

(الخليع) — لاحاجة الى ذهابنا جميعاً ويكفي أن يذهب معك سعادة البك وحده فان المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا في الانتظار

قال عيسى بن هشام — وقام العمدة مع السمسار وأقمنا جالسين في مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى مدة من الزمن واذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس فأسرع الخليع والعمدة الى لقائه واستخباره عمّا جرى له

(العمدة) — لعن الله الحاجة والاضطرار . وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار

(الخليع) — وماذا وقع بك ودهمك . هل خاب الامل في عقد القرض أم عقدته وسُرقت منك الدراهم

(العمدة) — لم تُسرق كلها بل نصفها

(التاجر شاهقاً والخليع محملقاً) — وكيف كان ذلك

(العمدة) ركبت مع الرجل وذهبنا الى محل شريكه فأجلسني

هناك ناحيةً وكتب الصك وختمتهُ ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ثم عاد اليّ عابس الوجه يقول لى إن الامر متعذر متعسر وإنه بذل كل مافى وسعه من طرق الاقناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ فلم يقبل ولم يتحوّل عن رأيه ؛ ثم أخذ يظهر لى أنواع التأسف والتوجع لخيبة مسعاه ويشير عليّ بالصبر أياماً حتى تنفرج الشدة وتنقضى الازمة . فأريته شدة مابى من الحاجة الى الدراهم فى هذا الوقت وليس فى الاستطاعة تأجيل الاقتراض وهممت بالرجوع اليكما لترشدانى الى باب آخر يأتى بالتيسير المطلوب فدنا منى شريكه عند ذلك وقال لى يعز عليّ والله ان أردك خائباً وأرفض رجاء شريكى ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذى لحق بهذا القطر فى هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل وانتشار الدودة وكثرة المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين . وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى وأولادى انه لا يوجد فى محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيه هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل احتراس واحتياط وأنا أضنّ بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ومع ذلك فقد فكرت طويلاً وعولت على أن أضعها بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتها أول خدمة

جليلة نقدمها اليك . فاسرعتُ الى قبولها مع الشكر والامتنان. فأخرج صرّة ووزن مافيها من الذهب ثم سلّمه اليّ فعددته فوجدته اربعمائة تماماً ثم وضعتها في جيبي وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمّى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب فتلكأ في الاجابة واعتذر اليّ بان فرق ما بين المبلغين يبقى عنده بعضهُ لربح اليتيم وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة إن وقع مني تقصير في التسديد عند الميعاد لاسمح الله كما هي العادة السائرة اليوم . فهالني الامر ونبذت الدراهم وطلبت منه أن يردّ لي الصك في الحال فلم يلتفت لقولي واشتغل عني بالكلام مع بعض الوافدين اليه وأنا مقيم على مثل الجمر وكلما أشرت اليه باشارة من بعيد ليكلمني لوى وجهه عني وأظهر الإشمئزاز مني فتفقدت السمسار الشريك داخلَ المكان وخارجَه فلم أجد له أثراً فاشتدّ بي الكرب وحرّقني الغيظ فلم أتمالك نفسي وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلابيبه أطالبه بردّ الصك فأظهر لي حينئذٍ من الملاينة والملاطفة ماحلّ خناقه من يدي وقال لي إنه لا يمنعه عن إجابة طلبي الاّ غياب الشريك فان الصك كُتب بحضوره ولايجوز أن يسلمهُ اليّ بدون علمه فعليّ ان انتظر أوبته . وبينما نحن على هذه الحال واذا بسعادة عمر بك

صهر مديرنا قد دخل علينا فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى خجلاً منه وحياء أن يسمع مايجرى بيننا ويرانى فى مثل هذا الموقف فتسقط منزلتى فى عينه وعين صهره فتقدمت اليه وسلمت فردّ علىّ التحية بالتكريم والتعظيم فلحظ اللئيم صاحب المحل ماأنا فيه فانتهز الفرصة وقص على سعادة البك قصتنا على حسب هواه وطلب حكمه فى الامر . فقال له سعادة البك لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التى يديرها صهرى وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة . ثم التفت الىّ وقال : وأنت لا يجدر بك أن تخالف حضرة الخواجه وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة واذا كانت نقطة الخلاف فى المائة جنيه التى حجزها عنده لنفقات القضية فأنا لاأشك فى أنه سيردها اليك بتمامها عند إيفاء الدين فى ميعاده وأنت بحمد الله فى ثروة لا تصوّر معها التأخر عن التسديد وإن كنت لم تتعامل مع الخواجه الا فى هذه الدفعة ولم تجرّب مقدار أمانته وحسن عهده فانى أكفل لك صدقه ووفاءه . فاضطررت من كل الوجوه الى التسليم والاذعان وأخذت الدراهم وسلمت على سعادة البك وقلت له عند خروجى: لا يظنن سيدى أنى اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر فان الامور

ميسرة بفضل الله ونعمةَ الله وافرةٌ عليّ كما يعلمه سعادة صهركم المدير ولكنني وجدت فرصة لا تعوّض في أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشتري أطيان من أحد أولاد الذوات وهو في حاجة الليلة الى استلام الدين ولا يمكنه ان يمهلني ريثما أستحضر له المبلغ من البلد فاضطررت للاقتراض على هذه الصورة . فقال لي نِعمَ ما تفعل وبارك الله لك في البيع والشراء ثم إنه حمّلني سلاماً وكلاماً لسعادة المدير وانصرفت وخلّفته مقيما مع الخواجه وحضرت اليكما ولم يدخل في يدي من مبلغ الدّين المسمّى بسبعمائة وخمسين جنيها الا أربعمائة جنيه فقط فهذا معنى قولي لكما لم تُسرَق مني الدراهم كلها ولكن سُرق نصفها

قال عيسى بن هشام — وكنا نشاهد في أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاءه من الكلام وهو يمدّ اليه يديه ويحرك شفتيه فتبيّنا من هيئته انه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة في قيمة الاجرة . ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله:

(السائق) — خلّصنا من فضلك ياسيدنا السيد فقد طال وقوفي وعطلتني عن شغلي

(العمدة) أنا لا أعطيك شيئا زيادة عما دفعته اليك ففيه الكفاية

(السائق) — مَنْ يقول ياحضرة الشيخ ان خمسة قروش تكفي

فى أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلتَ فى أثنائها من مكان الى مكان.
ثم عدتُ بك الى هذه القهوة . وأنا لا أبرح من مكانى حتى تعطينى
الاجرة اللائقة بهذه المدة وان كان الذنب من جهتى لانى قبلت
أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجه الذى استوقفنى قبل
ركوبك ظناً مني أنك من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة
ويعرفون مقدار اجرة المركبات ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول
مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات وجعلتنى أفضل
«برنيطة» الخواجه على عمامة السيادة فلا حول ولا قوة الا بالله.
خلصنا ياسيدى

(الخليع للسائق) ـ اسكتْ من هذا الكلام البارد وهاك قرشاً
سادسا خُذهُ وانصرفْ

(السائق) ـ كن محضر خير ياحضرة الافندى واعلم أنى
لاأقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقا فاما الاجرة اللائقة وإما
الذهاب معى الى صاحب المركبة

(العمدة) ـ دونك قرشاً آخر فاتركنا واذهب لحالك

(السائق) ـ كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة
هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار فهل تحسبها أجرة ركوبك

من هنا الى محل الخواجه أو أجرة انتظاري هناك زيادة عن الساعة أو أجرة ركوبك من محل الخواجه الى دكان الكوارع وانتظارك مدة الاكل أو أجرة رجوعك الى هنا ووقوفك فى الطريق عند بائع الفاكهة

(التاجر) — دكان الكوارع . . . . ! ! وبائع الفاكهة . . . . !!

«وَاحَرَّ قلباهُ ممن قلبُه شَبِمُ (١)»

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالأكل ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاما

(العمدة) — ما ألجأنى الى ذلك وحق الصحبة لا الجوع المفرط واحتياج الجسم الى ما يقيمه فانى أحسست بالنور ظلاما فى عيني من خلو البطن وأشهدُ أن الجوع كافر

(السائق) — ادركوني برحمتكم فهذا جندىّ البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها فى المخالفات حيث خلفتها واشتغلت عنها بكم

(الخليع) — لقد صدّعتنا وشغلتنا خذ هذا القرش أيضا وأنا أخلصك من جندىّ البوليس والاّ فانى أقوم الى «القسم» وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ولا تجد فى القسم

---

(١) الشبم البارد

من يرحمك

(السائق) — بما باليد حيلة أعطنى ما تريد وتم اشهد عند جندى البوليس بأنى فى انتظاركم حتى أخلص من المخالفات والله يعوضني خيراً ولا يحكم على بركوب أمثالكم مرة ثانية.

(الخليع للعمدة) عائداً — قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات فلننظر الآن فى تدبير شؤوننا وهلم فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا ثم نثنى بصاحب الحانوت لفك الرهن ثم نثلث بمشترى المقتنيات اللازمة لك

(العمدة) — نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيراً

(التاجر) بعد استلام المبلغ — أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال ولكن يتعذر على ان أرد اليك الصك فى الحال لأنى تركته بالمنزل فالأليق ان تبقى المبلغ حتى آتيك به غداً

(الخليع) — سبحان الله ما هذه المعاملة التجارية بين الاصدقاء الأوفياء وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط فى معاملتهم. فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيان مادام المبلغ تسدد لك ودخل فى جيبك

(العمدة) ـ صدقتَ صدقت فليس بين الاخوان ما يدعو للتَّوَقِّي والتَّحَرّس في مثل هذه الامور . وقوموا بنا الى صاحب الخان

(الخليع للتاجر) ضاحكاً ـ انظرْ اليه فلا يزال قلبهُ يحنّ وهواهُ يميل الى سكان تلك المعاهد والديار

(العمدة) ـ أقول لك الحق . ان غيظي من معاملة تلك المرأة القاسية شديد وحنق عظيم ولست أنسى ضروب تفننها في التدلل عليّ والتمنع مني ولا أغفل عن تلك النظرات التي كانت ترسلها اليّ بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها . وبودّي لو أراها مرة ثانية فأوسعها عتاباً وأشبعها تأنيباً

(الخليع) مبتسماً ـ أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك . تريد من العتاب أن ينتهي بك الى العتبى وتخرج بها من التعنيف الى التلطيف وما ألذّ الرضى بعد الغضب وما أمتنَ الصداقة بعد العداوة . لكني أقول لك قول المُشْفِق الناصح إنك مهما حاولتَ مع هذه المرأة فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها وانما الرأي لك ان تلتمسها نهاراً وتدعوها للغداء معك في بعض جهات النزهة وأنا أفضّل نزهة

الاهرام على سواها فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزل عن العذّال والرُّقباء

( التاجر ) ـ ما أدقّ الحيلة وما ألطفَ الرأى

( العمدة للخليع ) ـ لله درّك فما حار مَنْ أنت حاديه . ولا ضلّ من أنت هاديه . وهيّا بنا الى الحان أولاً لفكّ الرهن

( الخليع ) ـ ولعلنا نُصيب خادم المرأة هناك فنرسله اليها بعرض التماسنا . ولا شك عندى فى إجابة سؤالنا

( العمدة ) ـ نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً فخير البرّ عاجله

( الخليع ) ـ لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله

قال عيسى بن هشام ـ وقاموا ونحن نعجب من كيد الانسان للانسان . بما لا يأتيه حيوان مع حيوان . ثم بادرنا نحن أيضاً الى القيام . على أن يكون الاجتماع غداً فى الاهرام

---

## ﴿ العمده فى الاهرام ﴾

قال عيسى بن هشام ـ ولما وقفتْ بنا الركاب فى ساحة الاهرام . وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام . قُبالَةَ ذلك العلَم الذى

يطاول الروابي والأعلام. والهضبة التي تعلو الهضاب والآكام. والبنية التي تشرف على رضوى وشمام [1]. وتبلي ببقائها جدة الليالي والايام. وتطوي تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام. وتفني بدوامها أعمار السنين والأعوام. خلقت ثياب الدهر وهي لاتزال في ثوبها القشيب. وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب. ما برحت ثابتة تناطح ،واقع النجوم. وتسخر بثواقب الشهب والرجوم وتحدث حديث المشاهدة والعيان. ماتعاقب الفتيان [2]. وتناوب الملوان، عن قدرة هذا الانسان. في بدائع الصنع والإتقان. وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل. في إقامة هذا الاثر الجليل. وكيف جاز لهذا الفاني البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقي الخالد. وجل صنع القدير الخالق. في تصوير هذا الحيوان الناطق. حيث جعله مصدراً للاعمال المتناقضة. والأفعال المتغايرة المتعارضة. فبينا تراه يصعد الى أجرام السماء وعوالمها. ويبحث بفكره في رسومها ومعالمها. ويسير بعلمه في أبعادها ومناكبها ويهتدي لحساب أقدارها وكواكبها. اذ تراه يعثر عثرة برجله. فيكون فيها منتهى أجله. أو يكبو في طريقه. فيغص بريقه.

---

(١) جبلان معروفان (٢) الفتيان الليل والنهار

ويهوى بإذن الله الى مكامن الخُلْد[1] . وهو طامعٌ فى شجرة الخُلد. فهـو ذاك الذى كبُر وصغُر . وعظُم وحقُر . وعزّ وذلّ . وكثُر وقَـلّ . وصعد وهبط . وعلا وسقط . وصَلح وفسد . وَعَرف وَجحد . وسَعد وشقِي . وفَنِيَ وبقِى . وسبحان القاهر فوق عباده

ثم انتقلنا من التفكير . الى التفسير . وانبرى الباشا يكشف عن ضميره . ويقول لنا فى تعبيره :

(الباشا) ـ كنت أعتقد وأنا فى سالف الاوان . ان هذه الابنية لمصر تاجُها الذى تفاخر به التيجان . وأعجوبتُها التى تباهى بها الاقطار والبلدان . وشاهدُها الذى يشهد لها بالمدنية والعمران . ولكنى أراها اليوم بعد أن استضأتُ بنور العلم واهتديتُ بهُدَى العقل . وبحثتُ فى حقائق الأمور أن لا مزية فيها ولا خير منها سوى . انها أحجار مرصوفة . وجنادلُ مصفوفة . لا تمتاز عن جبل من الجبال . أو تلٍّ من التلال . فهل تعلمانِ لها من معنى غامض التوَى علىّ فهمه . أو سرٍّ خفىٍّ عزّ علىّ علمه

(الصديق) ـ ليس لها على الحقيقة من سرّ خفىّ ولا من

---

(١) الخلد الفأرة العمياء

فائدة بادية سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطُغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرّجعة فى هـذه الدنيا بعد الممات وأن أرواحهم تعود ثانية الى أجسادهم بعد أن تتنقّل مدة من الدهر فى أجسام أخرى فكان همّهم فى حياتهم مصروفاً الى حفظ أجسادهم من البلَي بعد موتهم فى قبور مشيدة قائمة على الدهر لتعود اليها الأرواح بعد طول التنقل والتطوّر مثل هذه الاهرام وخلافها . والناظرُ فى الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفـنن فى البنيان والتصوير عند المصريين ينتهى كلهُ الى المعابد والمقابر ولم يكن من أثر انتشار المدنية والعمران كما يتوهمه الواهمون لأنهم كانوا فيما عدا ذلك على حال الخشونة الأولى فى المأكل والملبس والمسكن فترى صور الملوك والأمراء حفاةً عراةً فضلاً عن سائر الرعية وتجد قصورهم وبيوت مُلكهم مبنية بلبنِ الطين كأدني الاكواخ قانعين بذلك فى جانب تسخير الامة بأسرها فى نقل الصخور ورفع الأثقال لابتناء مثل هذا البنيان واتخاذهِ قبراً لهم تُحفظ فى جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البِلى الى الرجعة ـ ولكن الى المتحف متحف الجيزة ـ فتسخيرُ الامة المصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإهراق دمائهـا وازهاق أرواحها فى بناء هذه الصخور انما

كان لفكر ساقط واعتقاد سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة أو من عمل كاهن ماكر لمنفعة له معلومة . ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر ولا من مزية لممتز وما هو الا الظلم والغشم والضلال والجهل . وما لهذين الهرمين من معني اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدى عدل على سابق الشقاء فى الامة المصرية وما كانت تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد . ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة فى ارتقاء المدنية والعمران لكانت هذه الاحجار والصخور مرتفمة فى بناء القناطر والجسور . وتالله لبانى القناطر الخيرية مثلاً فى نظر الباحث المدقق أحق بالعزة والفخر من اولئك الملوك عُباد الاوهام ومستعبدى الانام . وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يُذكر سوى أنه صار يوماً من الايام منبراً من المنابر اعتلاه جبارٌ آخر فرنسوىّ اسمه نابليون نخطب من فوقه على جنوده بكلام يهزّ فيهم أريحيه التفاخر والتباهي ويخدعهم به ليظلوا على العمى فى طاعته يمارسون الحروب ويعانون أهوال الوقائع ويصبرون على الموت والقتل فى هواه . وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة الا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة .

ومما يحضرني الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه أن الملك الذي شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدّي : « إني ابتنيتُ هذا البناء في ثلاثين عاماً فان جاء بعدي مِنَ الملوك مَنْ يدّعي القوة والقدرة فليهدمه في ثلثمائة عام » ولو عقل المسكين أنه سيأتي عصر من العصور يمكن فيه لأحقر صعلوك أن ينسف هذا البناء في لحة واحدة فيجعله كالعهنِ المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيماوية لَمَا افتر بسعة القدرة والسلطان . ولَمَا تحدّى بشيء سلمه ليد الحدثان . وليس للحدثان من أمان . اللهم إنك تعلم انه عملٌ ضائع . من جهلٍ شائع . لا ينبغي للمصريّ أن يراه الا بدمع منهمر . وقلب منفطر . لانه الشاهد الاكبر على كبرياء كبرائه . وهوانِ أجداده وآبائه

قال عيسى بن هشام ـ وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا وبينهم تلك العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فاتخذوا لهم مجلساً في ظل من ظلال الاهرام وانبسطوا على بساط الشرب والتنقل . فقطعنا من بيننا حديثنا وانتهينا الى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم فاذا العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المرأة بعظهر

الباحث المدقق والعالم المحقق

(العمدة) - هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن اصل هذه الاهرام وسبب وضعها وتاريخ تشييدها

(التاجر) - كيف لا يكون لى علم بذلك وقد وقفتُ على قصتها تماماً وقرأتها مراراً فى كتاب «قصص الانبياء» عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكنني ان اقصها عليك حرفاً بحرف ذلك ان الملك «سوريد» كان ملكاً على مصر قبل الطوفان فرأى فى منامه رؤيا افزعته فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين وقص عليهم انه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً الى الارض فقالوا له ان هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الارض قريبا ولا يبقى على شيء فيها فارتاع الملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم فأشاروا عليه بابتناء هذه الاهرام حتى اذا حلّ الخطب انتقل اليها واستعصم بها مع اهله وحاشيته وذخائره وكنوزه. فحشد الملك الالوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل فأتموا له هذا البناء فى مائتين وخمسين عاما ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ونقل اليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز ما تعب الناسُ فى حمله ونقله شهوراً كثيرة ثم إنه جمع السحرة فحصنوها له بالأرصاد والطلاسم

ولما قرب وقت الطوفان لجأ اليها بأهله وحاشيته وطغى الطوفان فلم ينجُ منه الا أهل السفينة وعوج بن عنق وهذه الاهرام . وعوج ابن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام وُلد في زمن جده وأدرك موسى صلوات الله عليه وذكروا ان ذلك الطوفان الذى ملأ الهضاب والجبال لم يبلغ حدّ ركبتيه فكان يخوض فيه مع السفينة فاذا أحسّ بالجوع مدّ يده الى قاع البحر فيأخذ الواحدة من السمك فيدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية . ولما انقضى الطوفان وعاد العمران الى الدنيا أخذ يعيث فى الارض فساداً دهراً طويلاً حتى بعث الله موسى عليه الصلاة فشكا الناسُ اليه مايفعله عوج بن عنق فدعا الله ان يكفيهم شرّه وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حلّ بهم غضبهُ فأرسل الله تعالى طيراً له منقارٌ من الفولاذ فمازال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت فى رقبة حاملها وصارت غُلاًّ له يمنعه عن الحركة والانتقال فجاء موسى بعصاه وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعا وطول العصا أربعين ذراعا ثم إنه وثب فى الهواء أربعين ذراعا وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ولكن قوة سيدنا موسى ألقته الى الارض لانه من أُولى العزم فوقع عوج بن عنق فى النيل فجسَّرَهُ عن أرض

مصر سنة كاملة ووقفت الوحوش الضارية تنهش من رجليه فكان اذا مرّ عليه مارٌّ عند رأسه قال له : اذا وصلتَ بسلامة الله الى قَدَميَّ فامنعْ عنى مايؤلمنى من هذا الذباب » يعنى الوحوش المفترسة . وبقى على هذه الحال الى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفا ومغاثر تسكنها وكفى الله العباد شره وفساده »

(العمدة) ـ سبحان الخلاق العظيم أرجوك بالله ياأخي أن تشترى لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى الى البلد ليقرأها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الاشغال

قال عيسى بن هشام ـ وكان الخليع فى هذه الاثناء مشتغلاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها يضاحكها وتضاحكه ويشاربها وتشاربه فلما انتهى التاجر من قصته اقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ويقول له :

(الخليع) ـ هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أنساً وأتمّ سروراً وأجمعَ لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا

(العمدة) ـ حقاً إنه يوم سعدٍ وأنس غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لافى الخلاء وتحت السقف لاتحت السماء . فانك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا وفى ذلك من

التضييق على حريتنا مالا يخفى عليك

(الخليع) — لاتخشَ الناسَ ولا تشغلْ نفسك بالخلق واغتنم اللذات بكل جسارة وإقدام وليس للانسان سوى ساعة الصفو إن لم يغتنمها تركـ الدنيا بصفقة المغبون . وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح برهة فى الصعود الى الاهرام حتى لا يفوتنا شيء من أسباب التنزه

(التاجر) — دعْنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا وأية لذة بالله عندك فى صعود الجبل واحتمالِ المشقة والتعب مع التعرض للخطر فى كل خطوة

(الخليع) — هذا أمر سهل جداً وقلَّ من يزور الاهرام الا ويصعد فيها سافة على قدر جهده وانظرْ الى هذه النسوة الامريكيات الصاعدات النازلات فى أيدى العربان أمام عينك هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال ان نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً وعلى كل حال فلا بدَّ لنا من الصعود قليلاً ليعلم مَنْ حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار للتلهى والخلاعة . والسيدة توافقنى على هذا الرأى

(العمدة) — وأنا أوافق عليه أيضاً . وعسى الله أن نمثر فى صعودنا

على فص من الفصوص العتيقة التي طالما عثرت على مثلها في التل الكفرى بناحية بلدتنا . ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها

(التاجر) — أنا أنتظركما معها

(الخليع) — لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداء بهذه السيدات

قال عيسى بن هشام — ويقومون للصعود ويتلكأ التاجر في أخرياتهم ويحاول التخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قوته ممازحاً له وساخراً منه لشدة تخوفه وحذره والخليعُ والمرأة يُغريانه به ويضحكان لضحكه وما كانوا يصعدون قليلاً حتى حانت من العمدة التفاتة الى الارض فهاله ما بينهُ وبينها من الفضاء فامتُقِعَ لونُهُ وارتعدت فرائصهُ ومال على الدليل البدوىّ مستغيثاً به أن ينزله الى الارض معتذراً لأصحابه ان الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود فيدركه الخليع فيسنده مع البدوىّ فيسقط من أيديهما فيحمله البدوىّ على ظهرهِ وينزل به فما يبلغ الارض الا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهي تناديهم جميعاً ان يبحثوا لها عن فص الخاتم الذى وقع من إصبعها فيلحق بها الخليع فيبحث فلا يجد شيئاً فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل ويغلب على ظن التاجر ان الفصّ ربما لم يسقط في حال الصعود

بل فى حال الجلوس ويطلب من العربان ان يدركوه بغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيه . هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنتهي لها شكوى والخليع يُطيّب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الاسف من الحادث الذى كدّر عليهم الصفو وأبدلهم بالانس حزناً وان هذه شيمة الدهر قلّما يتم فيه صفاء او يكمل فيه سرور وما من لذّة الا وهى مشوبة بالالم :

فَسَدَ الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ     مما يَشُوبُ ولا سرورٌ كاملُ

على أن المصيبة هينة ما دامت فى المال دون النفس ومن ذا الذى يدرى بما هو مخبأ له فى الغيب والحمد لله على اللطف فى القضاء . ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم الى المرأة ويقسم لها انها لا تبيت الليلة الا ولديها فصٌّ مثل الفص الضائع فتشكره وتقول له أنى لها بمثل ذلك الفص وهو من الياقوت النادر المثال فى لونه وصفائه فيعيد عليها القسم بأنه سيأتيها فى الغد بفص أثمن منه وأجمل. ثم إنه يشدّ على يدها توثيقاً للوعد فتشدّ على يده للتقبيل فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص فيخلع خاتمه الذى استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره . ويعودون الى مجالسهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس. ويقول العمدة بعد

استقرار المجلس بهم :

( العمدة ) ـ ما أحسن المجلس وما أضيق الوقت وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار

( التاجر ) ـ لعلك تريد أن نقضي ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في ذلك الحان المنحوس

( الخليع ) ـ وهل تظن انه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان مثل ما نتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ما حولها هناك من المزاحمة والمخاصمة

( العمدة ) ـ وما العمل حينئذ

( الخليع ) ـ العمل أنني أكلفها أن تمارض هذه الليلة وترسل الى صاحب الحان بتعذر حضورها عنده

( العمدة ) ـ نِعمَ الرأي ما ترى

قال عيسى بن هشام ـ وبأخذ الخليع في استعطاف المرأه لقبوله هذا الطلب فتمتنع اولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التي تقضي عليها بدفع عشرة جنيهات اليه تعويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها . فيلتفت الخليع الى العمدة ينتظر رأيه فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض. ثم يتساءلونه

فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم فى الأنس والسرور . فيرى العمدة قضاءها فى البيت ويرى التاجر قضاءها فى التنقل بالمرأة في «البارات» ويرى الخليع قضاءَ جانبٍ منها اولاً فى مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التى تمثل فى « التياترو » العربى فيقع اتفاقهم على هذا الرأى الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة اولاً . وينصرفون على هذا العزم المؤكد . والميعاد المحدد . ويعن «للصديق» ان نتخلف عنهم . ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم . وأن نقضى هذه المدة الوجيزة . فى زيارة قصر الجيزة . ثم نلحق بهم عند المساء فى دار التمثيل والتشخيص . وديوان الروايات والاقاصيص .

## ﴿ قصر الجيزة والمتحف ﴾

قال عيسى بن هشام — ووصلنا الى قصر الجيزة ومتحف الآثار . ومُلتقَى السيّارة من سائر الاقطار (١) . فدخلنا روضة تجرى الأنهار من بينها . كأنها الجنة بعينها . ولما رأى الباشا مسالكَ الروض منضدّة وطُرُقَهُ مرصعة مزرّدة . حَسبها أرضاً مفروشة . ببُسط منقوشة بأشكال الأمر عليه . فهمّ بخلع نعليه . فقلت طريقٌ معبّد (٢)

(١) السيارة القافلة واصلها القوم يسيرون (٢) طريق معبد أى مذلل

لا فرشٌ منجّد . وحصباء ومَرْو [(١)] . لا بساطٌ وفَرْو . ثم شاهدنا قصراً يكلّ عنه الطرف . ويقصر دونه الوصف . فسرْنا نرتاد خلالَه . ونتفيأ ظلالَه . فاذا الأُسُود مقصورات فى المقاصير . والأساودُ مكفوفات فى القوارير [(٢)] . ورأينا النمور . فى الخدور . والرئال [(٣)] . فى الحجال . والذئاب . فى القباب والظباء . فى الخباء . فقال الباشا لِمَن هذه الجنان . وكيف يسكنها الحيوان . وما علمتُ من قبلُ أن الليوث الضوارى . تسكن مغانىَ الجوارى وأن أوابد البيد . تحتجب فى خدور الغيد . فقلت له سبحان القادر العظيم . هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم . طالما كانت حُجُراتُه مَطالعَ للاقمار . ودرجاتُهُ منازلَ الاقدار . كان اذا نادى صاحبُهُ فيه « يا غلام » . شقيتْ أقوام وسعدت أقوام . وأبّى نداءَه البؤسُ والندَى . بأسرع من رجْع الصدَي . وكان مَن احتمَي بظل هذا الجدار . تحامتهُ غوائل الأزمان والأدهار . ــ هنا كان يُفصَل الامر ويُحكَم . ويُنقَض الحكم ويُبرم . ــ هنا كانت تنفرط فرائد القلائد . من أجياد الخرائد . فتختلط بمنثور أزهاره . وتُرصّع لُجَيْنَ أنهاره . ــ

---

(١) المرو حجارة بيض رقاق براقة (٢) الاساود جمع اسود وهو العظيم من الحيات
(٣) الرئال جمع رأل وهو ولد النعام

هنا كانت تتناثر الحليّ من قدود الحسان. فتشتبه بأثمار الاغصان. —
هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد. فتجيبها ذوات الاطواق فوق الأفنان والأعواد. فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة. وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة. وأصبحت أرضه تكترى وجَنَى أشجاره يُباع ويُشترى. ودَوَى فيه صياح النسور وزئير الأسود. وامتلأت أرجاؤه بعواء الذئاب وهَمْهمة الفهود. وزال ما كان فيه من عزٍ وطَوْل. ومجدٍ وصوْل. وأيدٍ وحوْل. وصدقَ الكتابُ فحَقَّ عليه القول :

في هذه الدار في هذا المكانِ عَلَى هذا السريرِ رأيتُ الملْكَ قد سقطا

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر. ومليكِ ذلك العصر. من الجدّ الصاعد. والبخت المساعد. وما صار اليـه بعد ذلك من نحوسة السعد. وما دهاه في الغربة الى سكْني اللحد. وما ذاقه في هذه الدار دارِ الفناء. من مثل عذاب تلك الدار دارِ البقاء:

نالُوا قليلاً من اللذاتِ وارتحلوا برَغمهم فاذا النَّعماءُ بأساءُ

ثم وقف الباشا برهةً فكّر فيها واعتبر. وتلا: «ولَقد جاءهُم منَ الأنباء ما فيه مُزدجرٌ حكمةٌ بالغةٌ فما تُغْنِي النُذُر»

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة. حتى انتهينا الى دار التحف

العتيقة . فدخلناها نشاهد ما أبرزته يدُ البحث من الخفاء الى الظهور . وما أعادته قوة التنقيب من البِلَى الى النشور. وما صانته ألحاد القبور. من يد الفناء والدثور. وجنَّته أحشاءُ الرموس. من العفاء والدروس. وما أجنَّته أرحامُ المعابد والهياكل. من بقايا المواضي وخفايا الاوائل. وما انسدلت عليه سجوفُ الأحقاب. من ودائع الاسلاف للاعقاب. وما انشقّت عنه الارض من مكنون الدفائن. ومكنوز الخزائن. وعجائب الفن الدقيق. وبدائع الصنع الأنيق. بليَتْ في اصطحابها جدّةُ الايام والليالي. وانحنَتْ على احتضانها ظهورُ العصور الخوالي. ومضت دول بعد دول وذهبت أول في إثر اول. واندثرتْ مدائنُ ونشأتْ مدائن. وبادت مواطنُ وقامت مواطن. وانقلبتْ الأغوارُ أنجادا. والأبحار أطوادا. وغدا العمارُ خرابا. والغمارُ سرابا (١). والسرابُ غِمارا. والخرابُ عمارا. وهي هي مصونٌ شكلُها. كما تركها أهلُها. لسانٌ صادق. وخبرٌ ناطق. تنطق بالعبَر. وتحدّث عمن غَبَر:

مضَتْ غُبَّراتُ العيشِ وهْيَ غوابرٌ (٢)
على الدهر مكتوب عليها حبائسُ

---

(١) الغمار جمع غمر وهو معظم البحر (٢) غبرات غبر الشيء بقيته . وغوابر جمع غابر وهو الباقي والماضي ضد

وأقمنا هناك نتنقل بين الاصنام والتماثيل. ونتأمل في التصاوير والتهاويل [1]. ونتفكر في هذه العظام المنشّرة. والرُّفات المنظَّرة. بما عليها من الحلي والزينة. وتلك الاحجار الثمينة. كيف كانت ملوكاً للأمم. ثم بقيتْ على بِلَى الرمم. وتَوالِي القِدَم. في حال الوجود مع العدم.

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوي العمائم. مع فتى من الطرز المتحاذق المتعالم. ظهر لنا من أمرهما. وتبيّنَ من شكلهما. أن الرجل عينٌ من أعيان المدينة. وأن الفتى ابنٌ له وزينة. واذا هما يتناظرانِ ويتحاوران. في ما يريانِ ويُبصران. فدنونا منهما. وأنصتنا اليهما:

(الابن) — أشهِدتَ مَشاهدَ عزّنا ورأيت معاهد فخرنا وعلمت كيف كان مقدار مجدنا والى أية رتبة بلغتْ بنا صناعة أجدادنا فلله درهم ما كان أرقاهم في الفكر وأبدعهم في العمل ولو أن نوابغ الامم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة. ونزلوا الي ميدان المفاضلة والمناظرة. لمَا سبق المصريَّ منهم سابق. ولا تعلّق بأثره لاحق. ولكان له من بينهم الكعب الأعلى. والقِدحُ المعلّي. وهذه الآثار في يده يفاضل بها ويفاخر. وينشد عليهم قول الشاعر:

---

(١) التهاويل زينة التصاوير والنقوش

هذه آثارنا تدل علينا . . . . البيت

(الوالد) ـ ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تماجد بها وتفاخر يفوق ما يكون في السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة وما يتخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والامتعة البالية

(الابن) ـ كيف يكون منك هذا القول وهي بشهادة العالم أجمع أثمن من كل ثمين وأنفس من كل نفيس لا تقويم لها ولا تقدير الا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وكيف غاب عنك تهافتُ هؤلاء الغربيين أهل المدنية الحاضرة على اقتناء شيء منها بالمال الجمّ وتنافسُهُم في التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الاسفار البعيدة والمتاعب الشديدة. ولا يُعقل وهُمْ هم أهلُ الهدى والعلم. أن يشتغلوا بباطل. أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل

(الوالد) ـ لكم دينكم ولي دين . وما أزال اكرّر القول لك بأني لا أجد في نفسي شيئاً مما تشعرون به في هذا الباب. وما أراه من هذه الاحجار والتماثيل لا يساوي في نظري الا أنقاض بيوت عفَتْ أو طلولٍ درستْ وإنْ صح ما يقال عن هذه التماثيل انها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ كان التعلق بها والتمجد بها مما يُغضب الخالق ولا يُرضي المخلوق وأما قولك ان فيها منتهى فخر لنا

ومجدنا لانها من صنع ابائنا وأجدادنا وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية فانه إثمٌ ونكرٌ أستعيذ بالله منه «كَبُرَت كلمةً تخرجُ من أفواههِم إنْ يقولون الاّ كذِبا» ما كان أجدادنا وآباؤنا الا اولئك العرب الكرام اهل الدين والاسلام لانفاخر إلا بمفاخرهم ولا ننتسب لغير أصلهم. وأما من جهة الصنعة فى كل ما أراه هنا فان صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والاحجار ويتفننون فى تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقنَ صنعاً من هذه المحجّبة فى القصور المصونة فى البلور

(الابن) — علِمَ اللهُ لو كان فى لغتنا العربية من الكتب المؤلفة فى مزايا هذه الآثار مثل ما فى اللغات الاجنبية لعلمتَ منها مالم تكن تعلم على أن مجرد النظر يكفى وحده لاثبات هذه الآيات والمعجزات فى حسن الصنعة والدقة أفلا تنظر الى هذا التمثال البديع تمثال شيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز. فما أدقّ الصنع وأتقن العمل وما أكمل الشبه وأجمل الصورة

(الوالد) — نحن فى كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر. فدعنى على غباوتى وجهلى وباركَ الله لك فى علمك وعقلك

(الابن) صوت خفى «واغفر لأبى إنه كان من الضالين» — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلم بنا فقد حل الميعاد المضروب بينى وبين ذلك السائح الذى زارنا بالامس لتناول العشاء معه فى «اوتيل شبرد»

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما — ماذا تقول فى هذه المناقشة وما دار من الكلام بين الولد والوالد

(الصديق) — ما عساى أن أقول غير ما قاله الله عزّ وجلّ: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعوا الصلاةَ واتَّبعُوا الشهواتِ فسوف يَلْقَوْنَ غَيّاً .» وماذا نرى هنا غير الذى رآه هذا الوالد الساذج: قبورٌ منهوبة ورموسٌ منكوسة وأجداث منبوشة. فان كان الغرض من عرضها العبرة والموعظة فان فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش. الى خشب النعش. ومن وسائد الحَبَر. الى مساند الحجر. ومن ظهور الصافنات الجياد. الى بطون الديدان فى الاكفان والألحاد. لنِعمَ الموعظة الحاضرة للنظر والحس. والحكمة البالغة للعقل والنفس

(الباشا) — هذه هى الحقيقة بعينها فى نظرى الآن، وقد كنتُ أحسب أن لهذه الآثار شأناً عظيماً فيما مضى من دهري عند

ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها فى زمن الولاة السابقين ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغلها فى البلى والقدم ومحلها من التاريخ وما تحمله منقوشاً عليها من أساطير الاولين

(الصديق) — نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين فانما هى كما تقول لتعلقها بمباحثهم فى أخبار الاوائل وفلسفة التاريخ وزد على ذلك حبهم للاقتناء وولوعهم بالاختصاص بالنادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن فى مصر آثاراً تفوق فى القدم مثلها من بقية المتاحف. ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا أفادوك عنها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة «الهيروغليف» أعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية والله أعلم بمقدار علمه بها. ولو تمنيت الامانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس. ويا ليت المصريين يخرجون عنها الا عليهم

ولا لهم فانها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها فى خبايا الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها الى المتحف وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً على متحف الجيزة وماتنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل فانها تُعَدُّ بالملايين

(الباشا) ـ كنتُ أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيتك لولا أن يقال إن فى المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بمصر مزية أدبية لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف وشدة ضنهم بها فلا يرغبون ألبتة فى بيعها والتخلى عنها ويرون فيها فخرهم ومجدهم فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل

(الصديق) ـ إنّ حرص أهل الممالك على ما فى متاحفهم من الآثار وتفاخرهم بها هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار واشارة الى المجد القديم والعز التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين وماهى إشارة المجد والشرف فى هذه الرمم البالية رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين ـ ولأن الغربيين فى غير حاجة الى قيمة أثمانها فهى عندهم من الكماليات . أما عندنا

فالأمر بالعكس ولم تأتنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر . وانما جاءتنا من طريق النبش والحفر . والمصريون فى حاجة الى المال لانفاقه فى ضروريات المعايش وقلما يمر عام الا ويكشف المكتشفون فى مصر من هذه الآثار الشىء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة فاضر المصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد وعن تلك الأشباه المتعددة وانتفعوا بقيمة أثمانها فى بعض شؤونهم العامة ويبقى فى المتحف مع ذلك من الآثار مايكفى للفخفخة والمباهاة ومباراة الامم فى تشييد المتاحف . وان كان قد جاز لحكام مصر السابقين ان يهادوا ملوك أوربا وأميركا بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم فى الأنحاء المختلفة من أقطارهم وان يغضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدى الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لايجوز التخلى عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهى على ماتراه — مالا يُبَاع فانهُ يتقَسّمُ — وجملة القول ان الانتفاع بها اليوم قاصر على الاجانب وحدهم إما بمشاهدتهم لها فى ديارنا أو بانتقالها مسلوبة الى ديارهم . وأى عار على الامة المصرية أن تتصرف فى بعض الآثار المتشابهة التى تنبتها لها الكهوف والتلال فى كل يوم لتنتفع بأثمانها فى ترقية شأن المعارف

وبث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للارضة بدار الكتب المصرية فى المطبعة الاميرية التى طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة فى أيام الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم . وخبرونى ناشدتكم الله أى نفع وفائدة للامة المصرية الاسلامية فى أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة فى الانتكخانة وتقبر أرواح العلماء والحكماء فى الكتبخانة . وأى الامرين أعظم نفعا وأكثر ربحا أن يعرض على أعيننا تمثال « ابيبس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعمسيس » وفخذ « امينوفيس » أو أن تتداول الأيدى كتابا للرازي ومقالة للفارابى وفصلا لابن رشد ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومى . ماتجرى الامور عندنا يشهد الله الا على التناقض وماتسير الا على خلاف المصلحة

قال عيسى بن هشام — وجاء أوان الخروج فقمنا نسعى . لنلحق بأصحابنا فى الملهى . ونشاهد مايتم عليه حالهم . وينتهي اليه مآلهم

---

## ﴿ العمدة فى الملهى ﴾

قال عيسى بن هشام — وعدنا الى المدينة وقد مد الغروب حبالته . ليقتنص من الأصيل غزالته . فطارت نفسنا شعاعا[1] واضمحل

---

(١) الشعاع المتفرق

قرصها شعاعا . وجدّت نافرة الى كناسها . وهي تُصعِّدُ الشفق من أنفاسها . ثم اختفت شقائقُ الشفق . تحت أكمام الأفق . ولمّا أن اخضرّ من الليل جانبه . وطرّ شاربه . وتوقدت مصابيح السماء . فى قباب الظلماء . قصدنا دار التشخيص والتمثيل . وبيت التصوير والتخييل . فدخلنا مع الداخلين نساءً ورجالا . أجناسا وأشكالا . واخترنا لجلوسنا الكراسيّ دون الغُرَف . لتتيسر لنا المشاهدة من كل طرف . ثم جلسنا نحدد النظر . فى مَنْ حضر . واذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزياؤهم . واتفقت أذواقُهم وأهواؤهم . وعلَا ضجيجُهم وصياحُهم . وكثر امبُهم ومزاحُهم . سبـًّا وشتما . ولكزاً ولكما . ثم يتمايل بعضهم على بعض . ويضربون بعصيّهم وأرجلهم ظهر الارض . رجالاً وغلمانا . شيبا وولدانا . متظاهرين بملل الاصطبار . ومطالبين برفع الستار . ثم حوّلنا النظر الى أعالى الشُرَف . وجوانب الغُرَف . فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر . تشف عن لوامع اللآلىء والجواهر . فى نحور الحور من مكنونات القصور . وبَيْضات الخدور . ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور . فهنّ يزحزحنَ من الوشى والحبَر . ويكشفنَ عن الطُرر . تضىء بالغُرر . ضوء الليل تحت القمر . ويترآينَ ترآئِي الكواكب والنجوم .

من خلل السحب والغيوم :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض هى فيه بين تخفر وتبرج
كتنفس الحسناء فى مرآتها كملت محاسنها ولم تتزوج

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون. ويتشوقون ويتلهفون. لا تنثنى أبصارهم عن وجهتها . ولا يحولون الوجوه عن قبلتها. فهم قائمون على عبادتها عاكفون. لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون. وهن يوالين الضحكات . ويتابعن الحركات . ويتبادلن معهم الغمز . ويتبادلون معهن الرمز ويتراسلون بمراوح تثير مكنون الهوى والغرام. ويشيرون بمناديل تغنى عن فصيح اللفظ والكلام. وقد خرقت الأصابع نسيج الأستار. لتنفذ منها رسل الأزهار. وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير. تدنى البعيد وتكبر الصغير. وكل فتى يرى أنه المرمى دون سواه بالنظرات . وأنه المعنى بتلك الاشارات فيتصنع التجمل والتظرف ويتكلف التأنق والتلطف. وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام . متزاحمين اكواما على اكوام . كأنهم فى سوق من أسواق الأنعام . لا ينتهون فيه عن الشجار والخصام . وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى. فوجدناهم فى غرفة والعاهرة فى أخرى . وقد تزيت بزى الاجنبيات فنبذت

الخِمار والإزار . وتبدّتْ في القُبّعة والزنّار . وهي تغامز العمدة بعينيها . وتشير اليه بيديها . والخليعُ يكون تارةً في الغرفة عندها . وأخرى يَظهر في غرفة بعدها . الى أن دق الجرس بالدخول . وارتفع عن الملعب ستره المسدول . وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين . ما بين ملحّنين ومرتلين . على طريقة يمجّها السمع . ويعافها الطبع . وبكلامٍ مبهم . وألفاظٍ لا تُفهم . كأنهم حُداة في مفازة [1] . أو سُعاة في جنازة . وهم في أزياء متعاكسة . وأشكالٍ غير متجانسة . وثيابٍ تنافرت ألوانها . على أشخاص تباينت أوطانها . وظلوا يعبثون بالاناشيد والتلاحين . ثم انصرفوا عنا بعد حين . ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل . مزجّج الحواجب مكتحل . مصبّغ الخد والجبين . بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين . فأخذ يخطر ويتثنّى . ويهتف ويتغنّى . وبجانبه امرأة نَصف . تتمايل وتنعطف . لا تقلّ عنه شيئاً في باب التصبغ والتدهن . والتصنع والتلوّن . يقول لها في شكوى الغرام . وشرحِ الوجد بها والهيام :

« ياحبيبة الفؤاد . وغاية المراد . ما ألطف هذا الشكل . فهيّا بنا نغتنم الوصل » .

---

(١) المفازة الفلاة لا ماء فيها

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم . اذا ساعدتنا أمي نسيم . فدبِّرْ أنت ما عليك . وها أنا ذاهبة لأرسلها اليك . »

ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم فتدخل عليه واذا هي عجوزٌ شوهاء وجُلُبَّانَةٌ رزهاء (١) فيتصل بينهما الكلام وينتهي بالقبول والاتفاق ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ثم ينفرد متجو لا ينشد ويغني مدة من الزمن ثم يذهب لسبيله . وتأتي الأم ومعها زوجها واذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ولم تفده التجارب شيئاً فتحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته في بيته فيمتنع ويتعلل بقوله : « حقاً ان ذلك الشاب هو ألحّ من الذباب . وهو عندى أفسق من الشياطين . وأخبث من البراذين . لا يترك من النساء الدون . ولا العجوز الحيزبون . »

فتجيبه بقولها : « لا تخفْ أيها الزوج الافضل . فما كل الطيور تؤكل . وابنتنا العاقلة الحلوة . لا يُخشى عليها منه في الاجتماع ولا في الخلوة . » ثم يطول الكلام بينهما وينتهي بقبول الوالد ما دبّرته له كيد الوالدة . ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقان ويتلاثمان وتقول له في حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الانيق . على التيسير

---

(١) الجلبانة المهذارة السيئة الخلق والورهاء الحمقاء

والتوفيق . فقد سهلت أمى انا الطريق . ولم يبق أمامنا الا استرضاء الخادمة . حتى تكون لاسرارنا كاتمة » فيجيبها : « نعم وان لم تطاوعنا خانها تصبح حزينة نادمة . لانى أقسم يابنت الكرام . بما يدنا من الحب والغرام . أنى أذيقها كأس الحمام . بحدّ هذا الصمصام . ان امتنعت عن تسهيل الارب . بقبول ما فى هذا الكيس من الذهب . » فتقول له : « آه ياحبيبي ما أطرب الجلوة . وما أطيب الخلوة . حيث نسبح فى بحر النشوة . وهيا بنا ايها الهمام . فأنى اسمع صوت أقدام . وعندى الآن أن أحسن طريقة . ان نتناشق نسيم الصبا في زوايا الحديقة . فيقول لها : «حُفظتِ يا سيدتى ومولاتى ومنبع حياتى ومماتي . فالآن قد بزغتْ شمس سعودى . وعطّر الاكوان عَرف نَدّى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرُهما فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال . وخيانة واغتيال . وأخرى عن اجترام واقتراف . واختلاس واختطاف . ثم يعلو بينهم الضجيج ويصيحون بغناء كأنه ندب وعويل

وعلى هذا ينتهي الفصل الاول ويرخى عليه الستار ويجدّ الحاضرون حينئذٍ فى الصفير والتصفيق والتأوّه والشهيق كأنهم جميعاً فى نوبة

من الصرع أو المس . ثم انهم يتساءلون الى الخروج لشرب الخمر والتدخين ونقيم نحن جلوساً فى مكاننا فيلتفت الىّ الباشا ويقول :

(الباشا) - لقد سئمت - علم الله - ومللت من منظر هذه المراقص والملاعب فما أشبه بعضها ببعض وما أجمعها لأشتات النقائص والرذائل على اختلاف أوضاعها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا المكان فى أصل وضعه برقص ولا بملعب هذا هو « التياترو » المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسن الاخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو عندهم توأم الجرائد هذه تعظ بالخبر وهذا يعظ بالنظر فيغرس فى النفوس صورة الفضيلة مجسّمة للأبصار بما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل فى الازمان الغابرة أو الحاضرة ويفعل فى النفوس مالا تفعله الرواية والخبر وهى فى بطون القصص والسير فيمثل لك محاسن الفعال ومحامد الخصال وما تأتى به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك بها المصاعب ونالتك المتاعب ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصوّر فظاعة النقيصة وما يكون فى عاقبتها من السوء وفى أثرها من المكروه وان خلبتك بمنظرها ساعة وخدعتك ببهرجها برهة فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح ان هممت به ويردّك الى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك الى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة الى الشهود ومن القول الى الفعل فتنجذب نفسك الى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة وكرم ومروءة وأمانة ووفاء وسماحة وسجاحة وصبر وحلم وينفر طبعك عما تجمعه الرذيلة من دناءة وجبن وخيانة وغدر وجهل وحمق وفحش وفسق

(الباشا) - ان كان الامر كما تقول فكيف تسنّى للمصريين أن يقلبوه

وضعه ويشينوا شكله ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الخان فلا فرق عندي فيما أنظاره هنا الآن وما رأيته في الحانات الأخرى من الرقص والعزف ومعاقرة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يغري به ويهيج من شهوات النفوس اليه . فاذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من ابواب الآداب وهم يحضرونه و يشاهدونه على هذا الاعتقاد فان شره عندي أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى لأن الداخل اليه لا يرى على نفسه من لائمة يتقيها في دخوله ولا ينكر على أدبه منكراً فيه ولا يخشى انتقاداً عنده فتسترسل النفس في غيها ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً بخلاف الحال في الداخل الى تلك الحانات فانه يدخلها وهو وثق بأنه قادم على ما يلام عليه ويعاب فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوماً عن غيه وجهله . والاقدام على المحرم القراح فيه من تأنيب النفس ما يزجر وينهى لكن الاقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهياء والمصيبة العامة فلا وازع من الخجل والحياء ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب

( عيسى بن هشام ) ـ لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على أن هذا الفن غير مفيد للآداب فقد قدمتُ لك أنه فن غربي ووصفتُ لك بمقدار ما وصل اليه من الاتقان لدى الغربيين وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون الى إتقانه وحسنِ وضعه وجهلَ الناسُ أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والخلاعة على ما ترى . وعذرُ الذين يشتغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه لا بد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا من السعي في ارتقائه وإتقانه وهم يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث

تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل

(الصديق) — قد سمعتُ مقالك وعندي أنه يجب على الباحث فى الامور المتعلقة بتربية الاخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً الى تأثير التربة والاقليم والى تركيب الغرائز والفِطَر والى العادة والعُرف · ولا يتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوتِه بينهم · والشواهدُ كثيرة جمة على أن مايكون فى باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً وأن ما يكون فى لوندره حميداً يكون فى الخرطوم ذميماً وما يكون فى رومية حقاً يكون فى مكة باطلا ومايكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هَزلاً . ولست أرى أن هذا الفن لو تم لاصحابه ما يبغونه من وَفْرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به الى حد الاتقان المطلوب ولا أن يكون له النفع المقصود فى تربية الاخلاق وحسن الآداب لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق وأخص بالذكر منهم أهل الاسلام لا بل ربما كان منه الضرر البحت . ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العِشق يدور فيه بكل أدواره وان تخلو قصة من قصصهم التى يمثلونها عن ذكر العِشق والغرام وما من رواية لهم الا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها . وهو وإن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً بهِ لموافقة العادة عندهم ولكونه شيئاً لاعيب فيهِ يجهر بهِ فتيانهم وفتياتهم بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم قضت به رطوبة الاقليم وضرورة الحال الى ما يهيج الشعور ويثير ثائرة الخيال لكنهُ غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح بهِ فى عاداتهم ولا يدخلونه فى



أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر لا التجاهر به والتظاهر . ولقد جرى العشق فى بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح وكان عند بعض قبائل العرب اذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعوه عن التزوج بها لهذا السبب وربما رفعوا أمره الى السلطان إن شهّر بها فى شعره فيهدر دمه. فهذا العشق الذى هو الركن الاكبر والسبب الاعظم فى حصول التزاوج عند الغربيين هو من أكبر الموانع فى التزاوج لدى الشرقيين والتجاهرُ به من الامور المكروهة عندهم لطبيعة الاقليم فى حدة المزاج وتوقد الشعور وتلهب الاحساس . ثم إن تهذيب الاخلاق بهذا الفن لا يأتى الا من الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد فتشخيص هذه الاقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر فى أمة أخرى ولا بدّ أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقاً لأحوالهم وظروفهم جارياً على مقتضى عرفهم وتاريخهم وليس من المقبول عندهم تنزل هذا التشهير والتمثيل فى معيشة الأهل والولد وما تنسدل عليه الحجب والستور فى البيوت والدور . وليس فى الدين الاسلامى ما يسوغ باشتراك النساء مع الرجال فى تأدية هذا الفن لانه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال ويأمرهنّ بغضّ البصر فضلا عن طموحه . ولا من أدب المسلمين ان يمثّل بينهم تاريخ الاسلام وتاريخ خلفائه وصحابته على اسلوب يتعدى بالعشق والغناء . وماذا ترى فى أبى جعفر عاشقا وأبى مسلم مغنياً وأبي الفوارس راقصاً كما يجترئ عليه الآن أهل هذا الفن وذلك أكبر اهانة للاسلاف وأعظم خرف فى التاريخ . وإن أردتَ ان

أ كاشفك بكل ما يجول فى خاطرى قلت لك ان هـذا الفن الذى تغالى الغربيون فى اتقانه وارتقائه لم يفدهم أدنى فائدة في باب الآداب وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير بادٍ لانّ المعول عليه عندهم فى هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلال تمثيل الرذيلة و يبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات الى حد المبالغة التي يذهب اليها خيال الشاعر . فتوضيح الرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على أصحاب الرذائل فى القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل مدرجة الى تعمق صاحب الرذيلة فى رذيلته وانتفاعه فيها بتلك الوجوه المتنوعة فلا يسبقه اليها سابق . وكم تدرّب اللصوص ومهر الاشقياء و برّز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم وأخذوا عنها ما كان يعجزهم ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والاسهاب فى خفايا الرذائل التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الاسباب فى انتشارها ولذلك قالوا ان توضيح الجرائم التى من هذا القبيل فى القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم اليها . وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه فى شريعته فقال : « ما كنت لأتصور أن يونانيا فى الوجود يقدم على قتل أبيه » فكان قوله هذا أننى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها . وا كتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذى يلحق بأهل الشر منها

قال عيسى بن هشام — ودقّ الجرس وعاد الناس الى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح وزيّن السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظا خطيباً فما زال يهذى فى القول حتى سقط على الارض يتخبط فى قيئه و رجيعه . لا فى دمه

وتجيعه، ثم ارتفع الستار عن منظر غابة يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تتلفت وتتعثر . ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مر الشكوى من تهويشهم عليه في غنائه ثم إنه يعود الى ما كان فيه من الغناء ويأخذ بيد خليلته للهروب فيدخل والدها عليها في تلك الحال فيحول بينها وبين عاشقها فينبرى له الفتى بضربة حسام تلقيه على الارض صريعا ويدركه قومه فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون الى الفرار وتقع المرأة مغشيا عليها ويقع العاشق باكيا تحت أقدامها وعلى هذا يسدل الستار وينتهى الفصل ويعود الناس الى مكان الشرب والتدخين فنتبع أثرهم ونجلس ناحية فى بعض زوايا الخان . واذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسين جانبا أمام إحدى النوافذ وأمامهم الراح والكؤوس مترعة واذا برجل عابس الوجه بين الغلظة قد وقف أمامهم يقول للمرأة في كلامه : « أتظنين أن الهرب وخلف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسط المطلوب لى منكِ وأنا لا ازال أقتفى أثركِ منذ الصباح الى الساعة وتحملتُ فى البحث عنكِ تعبا عظيما والحمد لله اذ عثرت عليكِ فى هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطيني مبلغ القسط أو تردى الىّ هذه الحلى التي تتزين بها صدركِ أمام عشاقكِ وخلانكِ » ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها فيمنعه الخليع متوسطا بينهما ويقول له ليس هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك المحاكم . فلا يرجع الرجل عن عزمه بل يقول « انا لا أطالب بحقى أمام المحاكم وأمامى مالى فى صدرها » ثم يمد يده ثانية فتقبض العاهرة على حليها وتميل على العمدة تستغيث به

ونستجير فتأخذه الحمية والنخوة فيدفع عنها الصائغ بيده فيقول له : ان كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك فالشهامة تقضي عليك بأن تدفع لي المبلغ من جيبك لا أن تدفعني عن حقي بيدك» فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيها فينقد الصائغ الدراهم في الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ثم يقدمها الي المرأة بيد والكأس بيد أخرى فتقبل حافة الكاس شكراً له وحمداً وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين . ويعودون الى شربهم وحديثهم فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان الى سواه وأنه يفضل الذهاب الى منزل صاحبته ويطلب من الخليع ان ينظم لهم مجلسا هناك فوق سطح المنزل في ضوء القمر وبينما هم في أخذ ورد اذا بصاحب الحان الذي تشتغل فيه المرأة واقفاً على رأسها واضعاً يديه في خاصرتيه يبكتها بقوله: أهذا هو المرض الذي تعتذرين به عن تأخيرك في هذه الليلة عن الشغل وهذا هو المستشفى الذي تعالجين فيه وأظن ان حضرة العمدة هو الطبيب الماهر في هذا العصر الحاضر » ثم يجرها بيده لتذهب معه الى مباشرة الشغل في الحان فيمسكها العمدة من اذيالها ويقول له : ما هذه الوقاحة وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات في نظير تأخرها عن الشغل في الحان ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها في هذه الليلة » فيقول له : إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه اليّ فقد كذبت في دعواها وادخرت الدراهم لنفسها فاما أن ترد اليّ المبلغ وتتعهد لي بأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي وإما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذي لا يكفيني

فيه دخل أطيانك » ويشتد بينهم اللجاج والخصام فتنبرى إحدى الممثلات الجالسات فى الخان ممن انتهى دورهن فتستصرخ البوليس لاخراجهم فيأتى البوليس ويصمم أن يسوقهم الى القسم جميعاً . ونخرج وراءهم لاتباعهم فيأبي الباشا ذلك كل الاباء وينفر عنه كل النفور ويقول أنا لاأتوجه الى القسم لاشاكيا ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً فقد جرّبت مايقع فيه . وكفانى ما علمتهُ من ظواهره وخوافيه . وقد شعرت بسأم فى النفس . وصداع فى الرأس . فلنذهب الى البيت لنتمتع بشيءٍ من الراحة . ونخاص من رؤية هذه الحرمات المباحة . فأجبته بالطاعة والانقياد . ونترك الصديق على ميعاد

.......................

﴿ المدنية الغربية ﴾

قال عيسى بن هشام ـ وما وصلنا البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه . يحاول أن يشتفي بالرقاد من غمه وهمه . فتركته فى غرفته ورغبت فى النوم كرغبته . و بينا انا غريق فى المنام . أسبح فى بحر الاحلام. اذ سمعت الباشا يناديني نداء متتاليا . فقمت اليه مسرعا وملبّيا . فأخبرنى أن طول التفكر نفى عنه الرقاد . وأورثه الأَرَق والسُّهاد. وطلب مني ان نحيي الليلة بالسمر . وأن أقتلها معه بالسهر . فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث. من قديم فى الزمن وحديث . الى أن صارت الليلة فى أخريات الشباب . فاستهانت بالإزار والنقاب . ثم دبَّ المشيبُ فى فودها [1] . و بان أثر الوضح [2] فى جلدها. فعبثت بالعقود والقلائد. من الجواهر والفرائد. ونزعت من صدرها كل منثور ومنظوم. من درر الكواكب ولآلىء النجوم. وألقت بالفرقدين

(١) الفود معظم شعر الرأس مما يلى الاذن (٢) الوضح بياض الصبح

من أذنيها . وخلعت خواتيم الثريا من يديها. ثم إنها مزّقت جلبابها، وهتكت حجابها . وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء. ترتعد متوكئةً على عصا الجوزاء. وتردد آخر أنفاس البقاء . فسترها الفجر بملاءته الزرقاء . ودرجها الصبح في أرديته البيضاء . ثم قبرَها في جوف الفضاء. وقامت عليها بنات هديل(١). نائحة بالتسجيع والترتيل . ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجتلاء . وتبدل النحيب بالغناء . لاشراق عروس النهار ، وإسفار مليكة البدور والاقمار. وما نشعر الا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس. للموعد الذى كان بيننا من أمس. فسألنا كيف أصبحنا . وهل نعمنا واسترحنا . فأخبرته بما كان من اتصال السهر الى الآن. وما كانت تجري عليه المسامرة . وتدور به المذاكرة . وجملتها ان الباشا لا يزال يدهش مما يراه فى رحلته ، ولم يكن له أثر فى أيام دولته. ويستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال ، من حال الي حال ، وما الاسباب والعلل فى انتشار هذا الفساد والخلل. فذكرت له بعض ما حضرنى منها . وما علمته عنها . وانك لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح. وتخبرنا بما عندك من السبب الصحيح

(الصديق) السبب الصحيح فى ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتة فى البلاد الشرقية وتقليدُ الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم كالعميان لا يستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس ولا يتبصرون بحسن نظرٍ ولا يلتفتون الى ماهنالك من تنافر الطباع وتباينِ الاذواق

---

(١) بنات هديل الحمائم

واختلاف الاقاليم والعادات ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة وظنوا أن فيها السعادة والهناء وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الاصول القويمة والعادات السليمة والآداب الطاهرة ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهريا فانهدم الاساس ووهت الاركان وانقض البنيان وانقطعت بهم الاسباب فأصبحوا فى الضلال يعمهون وفى البهتان يتسكعون[1] واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الاجانب يرونه أمراً مقضياً وقضاء مرضياً وخربنا بيوتنا بأيدينا وصرنا فى الشرق كأننا من أهل الغرب وإن بيننا وبينهم فى المعايش لبعد الشرق من الغرب

(الباشا) - قد يكون ذلك ولكن لست أدرى لأية علة اخذ الشرقيون بباطل المدنية الغربية وارتدوا بلباسها ولم يلتفتوا برهة للرجوع الى سابق مدنيتهم الصحيحة وعمرانهم القويم فهم أهل السبق فى ذلك كله وعنهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون فى كل زمان ومكان

(الصديق) - لا أعلم لذلك من علة الا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر وما يتولد عنهما من طول التوانى والتواكل وسوء التواخى والتخاذل فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكترثوا

(١) تسكع الرجل تمادى فى الباطل

بمستقبلهم وقعدت بهم هماتُهم عن مشقة التكاليف التي كان يتباهي أسلافهم باحتمالها ويتفاخرون بممارستها . وراق لهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جدّ ولا كدّ فعظم مقدار اهل الغرب في أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة عالية فوقهم فخضعوا وذلوا وقهرَ الغربيون وغلبوا

(الباشا) ـ ألا ليت شعري كيف يمكنني الوصول الى البحث والنظر في أصول المدنية الغربية ظاهرها وباطنها وأن أقف على خافيها وباديها في أرضها وديارها . ولكن بعدت الشقة وعزّ المطلب

( عيسى بن هشام ) ـ لا تستبعد أيها الامير حصول الغرض ونيل المطلب في يوم من الايام فانه لا يزال يدور في خاطري أن أرحل معك رحلة الى البلاد الغربية نجتني منها ثمرات العلم والبحث فان كان هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له أمرنا

( الصديق ) ـ وأنا ان شاء الله معكما

قال عيسي بن هشام ـ ثم قمنا وقد عقدنا النية على تحقيق هذه الامنية . ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية . في المبدأ والنهاية

---

والى هنا انتهى الحديث وتم الكلام . فان كان في الاجل
مدة باقية . وصلنا هذه الرحلة الاولى برحلة ثانية
والحمد لله أولا وآخراً ومنه المعونة والتوفيق

بدأتُ هذا الكتاب عند طبعته الاولى بخير ما يُبدأ به كتابٌ بعد اسم الله وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين

لم أرم فى ذلك ـ علم اللهُ ـ الى التنبيه على ذكرى والتنويه بقدرى وأستغفره ثم أتوب اليه أن يكون الدافع الى نشرها هذا الغرض دون سواه وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء الى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والاغراء بالتعمق فيه كالطفل توضع فى يده قطعة العاج المنقشة علالةً يتعلل بها اذا نبتت أسنانه بل كان نشرها لانها أثر من الآثار يجب عرضه على النظار ونفاسة بما يخطه ذلك القلم الجليل فى أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يبقى مطويا فى أدراج الاوراق وحقُّهُ أن يُنشر على سائر الآفاق

وأختم اليوم هذه الطبعة على مثل هذه النية بخير ما يختتم به القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين : هذه الرسالة التى شرفنى بها مولانا الاستاذ الشيخ سالم بوحاجب شيخ العلماء وصاحب الإفتاء بالمملكة التونسية بعد أن قرأ هذا الكتاب فى طبعته الاولى . وناهيك بقدر هذه الرسالة بركةً ويمنا وشرفا وجلالاً ممن يمثل لك بالفعل ما يُروَى عن السلف الصالح بالقول . ويشهد لك بسيرته فى هذه الايام . كيف كان العالم

عامل فى صدر الاسلام . ويعيد لنا ذكرى البصرى فى الزهد والتقى . والكوفىّ فى الرأى والحجى . والمكىّ فى الفقه والدين . والمدنىّ فى العلم علم اليقين . هذا الى سعة فى الاطلاع وتصرّف فى الافكار ودقة فى البحث واستنباط للامور يؤلف الغابر بالحاضر ويطابق بين أحكام ماقضت به الحكمة فى سالف الأوان وما تقضى به قواعد هذا الزمان :

أنفقَ العُمرَ ناسكاً يطلبُ العلْـ  م َ بكشفٍ عن أصلهِ وانتقادِ

فهو المثال التام الذى ينشده الإسلام منذ السنين والاعوام من بين العلماء الاعلام ليعود اليه مجده ويرتدّ اليه حقه ويعرف بهم قدره . ولو منّ الله بمن يأخذ بقدوته فى سائر الاقطار . ولو جرى العلماء على مثاله فى كل مصر من الامصار . لاستوى الأواخر بالأوائل فى العلم والدين . ولعاد الاسلام الى ذلك العز القديم والنصر المبين ؟

محمد المويلحى

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها الجهبذ النحرير . المتصرف فى أحرار الالباب . ورقيق الآداب . بالاسترقاق والتحرير . البالغ من رتب التهذيب أقاصيها . المالك من

بدائع التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية . اللائقة بعزة تلك الحضرة المحمدية المويلحية . فقد وصل الىّ ـ واصل الله في مدارج الاجادة ارتقاءكم وأدام لحسن الافادة إتقانكم وانتقاءكم كتابكم الجليل . الذي يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان . وبراعة البيان . وكمال تربية الانسان . أوضحُ دليل . فوالذي علّم بالقلم . ومنح خيرَ خلقه جوامعَ الكلم . إنّ لقلمكم من السحر المبين ما تخرّ له سحرة البيان ساجدين . وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التي لمح لتأهلكم لها كتاب الاستاذ جمال الدين . كما يحقق ما يُتفاءل به من إسناد مروياتكم لاسم عيسى . وإحياء موتى الافكار المؤسسة على حياة مَن كان في اللحْد رميسا . فيا لَهُ مِن معلّم قد علِم منه كل أناس مشربَهم . ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربَهم . فرجال الحكم مثلاً سواء كانوا من الامة الاسلامية أو غيرها يتعرفون منه ملاك من الامة وعوخيرها . باسناد الوظائف الى أهل المعرفة والفضل . والضنّ بها عن غير الاهل وإقامة منار العلم والعدل . لتدارك ما تخرب بيد الجور والجهل . ـ والعلماء يدركون به طرق النصح في التعليم . وعدم النفرة من الحديث لمجرد كونه لم يعهد في القديم . مع ما يلزم لهم في اقتياد ذوى الجهالة والعناد من الملاطفات .

## فهرس

